



## الصون العمراني والتجديد الحضري

التقرير الإقليمي العربي المنجز في إطار التقرير العالمي لليونسكو

حول دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة

المقدّم إلى



الألكسو - إدارة الثقافة

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

شارع محمد علي عقيد - المركز العمراني الشمالي ص.ب 1120 - حي الخضراء 1003 - الجمهورية التونسية

الهاتف: 70 013 900 (216+) - الفاكس: 71 948 668 (216+) - العنوان الإلكتروني: alecso@alecso.org.tn

# الصون العمراني والتجديد الحضري

التقرير الإقليمي العربي المنجز في إطار التقرير العالمي لليونسكو

حول دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة

المقدم إلى

مؤتمر الأمم المتحدة الثالث

المعني بالإسكان والتنمية الحضرية المستدامة

الموئل الثالث - كيتو 2016

الألسو - إدارة الثقافة

الصون العمراني والتجديد الحضري: التقرير الإقليمي العربي المنجز في إطار التقرير العالمي لليونسكو حول دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة المقدم إلى مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالإسكان والتنمية الحضرية المستدامة - الموئل الثالث - كيتو 2016 / / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. إدارة الثقافة ؛ تقديم عبد الله محارب. - تونس: المنظمة...، 2017. - 192 ص

ISBN: 978 - 9973 - 15 - 380 - 7

ق/002/03/2017

# المحتوى

7	تقديم
11	تمهيد
15	توطئة: الثقافة العربية والحضارة المدنية على محك التاريخ
20	الفصل الأول: برنامج العمل الحضري الجديد لما بعد 2015: مذكرة اليونسكو المفاهيمية، وتقرير الألكسو ...
24	المنطقة العربية وتصنيفاتها
29	مجال تطبيق الاستراتيجية الثقافية
33	المضاربات المعمارية والسياسية حول مصير المدن التاريخية
38	تحديد المدينة العربية وممارسات التخطيط والتنمية
45	الشرق إزاء الغرب، المرأة المزدوجة للثقافة العربية المعاصرة
60	التنمية المستدامة على المحك: علامات عدم الاستدامة
62	نظرية الحفاظ على المناظر الحضرية التاريخية وإدارتها من منظور التنمية المستدامة
72	خاتمة الفصل الأول
	<b>الفصل الثاني: القضايا والإشكاليات المتعلقة بالتخطيط العمراني والحوكمة (دراسات حالة لبعض المدن العربية)</b>
	<b>مدينة فاس</b>
74	الدعم السياسي تحت الحماية الفرنسية
76	الدعم السياسي في عهد المغرب المستقل
78	الحوكمة المؤسسية
80	الجهاز التشريعي والقانوني والتنظيمي
81	الجهاز المالي
82	مشروع التراث المتعلق بإعادة تأهيل السكن القديم والتجديد الحضري
82	خطة العمل
85	البعد الاجتماعي للفضاء التاريخي
87	نشر ثقافة التراث
88	مسألة الإيداع الثقافي
89	أبعاد الدعم السياسي والحوكمة الحضرية وحدودها
89	إعادة تأهيل الأحياء السكنية، أولويات الحفاظ العمراني
93	مدينة فاس تبحث عن تمويلات لتحقيق التنمية
96	مدينة فاس القديمة، الاستثمار الخاص كعامل للتنمية
97	مدينة فاس، التظاهرات الثقافية كحافز للتنمية
	<b>مدينة الجزائر</b>
98	جدلية التنمية والتحضر وصحة الوعي بالهوية الوطنية وأهمية التراث
102	الإطار القانوني والجهاز المؤسسي
105	عملية تخطيط وإدارة مدينة الجزائر
106	الدروس المستخلصة والآفاق المستقبلية
	<b>مدينة تونس</b>
108	تسارع نسق التحضر، وتهميش المدن التاريخية وعجز في الحوكمة الحضرية
109	الخطوات الرئيسية لعملية التخطيط/الرمجة/إعداد التصاميم
112	تقويم الحوكمة
113	الدروس المستخلصة وآفاق المستقبل

## صفاقس

- 114 ..... إنتاج المناظر الحضرية التاريخية.....  
117 ..... المنظر الحضري التاريخي في مواجهة التحضر الحديث .....  
121 ..... المشاريع العمرانية .....  
122 ..... الحوكمة المؤسسية.....  
124 ..... بروز المجتمع المدني على الساحة.....  
125 ..... الدعم السياسي .....  
125 ..... الدروس المستخلصة.....  
126 ..... الآفاق المستقبلية.....

## القاهرة التاريخية

- 127 ..... الوضعيات الديموغرافية في القاهرة التاريخية والقاهرة الكبرى.....  
127 ..... التوسع العمراني في القاهرة التاريخية: أهم التواريخ.....  
129 ..... الجهاز المؤسسي والقانوني.....  
131 ..... تقويم برامج التخطيط والتنمية العمرانية.....  
131 ..... التعاون مع اليونسكو.....  
دور المؤسسات الفاعلة في عملية المحافظة على القاهرة التاريخية الاستراتيجية الثقافية  
133 ..... للحفاظ والإحياء العمراني .....  
136 ..... الاستراتيجية الثقافية للحفاظ والإحياء العمراني.....  
139 ..... الدروس المستخلصة .....  
140 ..... الآفاق المستقبلية.....

## طرابلس، لبنان: المدينة التاريخية

- 142 ..... الوضع الجغرافي لطرابلس .....  
142 ..... التطور العمراني لطرابلس.....  
144 ..... الثقافة الحضرية والعمارة المنزلية في طرابلس.....  
144 ..... النظام القانوني البنائي والإطار التنظيمي.....  
145 ..... الحوكمة المؤسسية.....  
146 ..... الدعم السياسي لمشاريع صون المدن التاريخية.....  
148 ..... إشكالية التمويل .....  
149 ..... الدروس المستخلصة والآفاق المستقبلية.....

## بغداد

- 150 ..... حالة المستوى المعيشي في بغداد.....  
151 ..... التطور العمراني لبغداد ونشأة مدينة الحدائق.....  
152 ..... النهضة الثقافية المعمارية .....  
154 ..... الدعم السياسي والجهاز الإداري والقانوني .....  
156 ..... مستوى التدريب وتوفر الكفاءات.....  
156 ..... التوصيات.....  
158 ..... التوصيات.....

## جدة التاريخية

- 160 ..... تطور المشهد العمراني التاريخي .....  
161 ..... التنظيم الحضري والمعماري.....  
161 ..... النمو الديمغرافي والضغطات الاجتماعية والاقتصادية.....  
162 ..... النمو الديمغرافي والضغطات الاجتماعية والاقتصادية.....

163	استراتيجيات الحفاظ على الطابع العمراني.....
166	تحديث المنظومة التشريعية والقانونية والتنظيمية.....
166	إطلاق مقاربة للتخطيط العمراني على المدى الطويل .....
167	الدروس المستخلصة.....

### مدينة الكويت

168	التطور العمراني .....
169	المخططات الهيكلية.....
169	الحدثة والمحافظة على التراث المعماري.....
171	الدعم السياسي والجهاز المؤسسي والقانوني.....

### مدينة دبي

173	التطور العمراني وثورة التحول إلى حاضرة.....
175	المخططات الهيكلية.....
176	العولمة والمنظر الحضري التاريخي.....
177	تطوير المنظومة القانونية والمؤسسية .....
177	الإدماج الاجتماعي للإرث التاريخي والاعتراف الدولي بالموروث الثقافي.....

### مدينة العين

179	تطور المنظر الحضري التاريخي.....
180	من أرخبيل الواحات إلى مدينة الحدائق.....
183	العين، ممتلك ثقافي من التراث العالمي.....
184	المنظومة القانونية والتشريعية والتنظيمية والحوكمة المؤسسية .....
186	خطة التهيئة الترابية والعمرانية للعين في أفق 2030.....
188	الخاتمة العامة.....



## تقديم

يعتبر التوسع الحضري في مطلع هذا القرن الحادي والعشرين من أخطر مشاكل العالم، الذي أصبح أكثر من نصف سكانه يعيشون في المدن، ويتوقع الخبراء أن ترتفع هذه النسبة، بحلول عام 2050، إلى 70%. وستكون 95% من هذا النمو في البلدان النامية التي تمثل المنطقة العربية جزءا منها.

وقد تسارعت وتيرة انتشار هذه الظاهرة بداية من النصف الأول من القرن الماضي، بالتوازي مع تنامي استقطاب المدن لسكان المناطق المحيطة بها بفضل "أضوائها" وفرص العمل التي توفرها، مما أدى إلى تركّز أكثر من 80% من النشاط الاقتصادي العالمي فيها. غير أنه لم يعد بإمكان هذه المدن أن تستمر في توفير الرخاء وخلق مزيد من فرص العمل بسبب العواقب الوخيمة لتسارع نسق التوسع الحضري الذي تسبب في تشويه المناظر وتلويث الموارد الطبيعية، بالإضافة إلى الاكتظاظ السكاني والبناءات الفوضوية والمخاطر الدائمة المحدقة بالمدن التاريخية وتردي البنية التحتية، ناهيك عن المشاكل الاجتماعية الناجمة عن التفاوت في الدخل وعدم التساوي في التمتع بالخدمات الحضرية وعدم تكافؤ الفرص في التعليم والثقافة، علاوة على البطالة والفقر وانعدام الأمن.

فكيف يمكن التعامل مع جميع هذه التحديات التي تواجهها مدننا؟

هذا ما أرادت المجموعة الدولية الإجابة عنه من خلال مؤتمر الأمم المتحدة للإسكان والتنمية الحضرية المستدامة - المؤئل الثالث- الذي عقد في كيتو من 17 إلى 20 أكتوبر 2016، وساهمت في أعماله منظمة اليونسكو بتقرير حول "دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة"، أسندت إعداد الجزء المتعلق منه بالعالم العربي إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، وهو الجزء الذي يتضمن هذا الكتيب ملخصه.

لقد توصل المؤتمر العالمي إلى "إعلان كيتو بشأن المدن المستدامة والمستوطنات البشرية للجميع"، الذي يمثل "رؤية مشتركة" من أجل تحسين جميع مجالات الحياة الحضرية، على مدى السنوات العشرين المقبلة، وذلك بهدف جعل المدن والمستوطنات البشرية تشمل الجميع دون أي تمييز وتوفر لهم العدل والأمن ورغد العيش وكافة المرافق، وتؤدي وظيفتها الاجتماعية بضمان الحق في السكن اللائق والحصول على الماء الشروب بثمن متيسر وعلى الخدمات الممتازة في مجالات التغذية والصحة والتعليم والبنى التحتية والنقل والطاقة والهواء النقي...

كما تضمن مشاركة جميع سكان المدن في إدارة شأنها وجعلهم يشعرون بأنها ملكهم وإليها ينتمون، والحرص، في هذا الصدد، على وجود حياة ثقافية ومساحات خضراء وفضاءات عامة مفتوحة

للجميع، أفرادا وعائلات، وعلى التفاعل الاجتماعي بين الأجيال. مع إيلاء عناية خاصة بضعاف الحال والمساواة بين الجنسين.

وفي إطار التحضير لمؤتمر كيتو، أصدر وزراء الإسكان والتنمية الحضرية العرب، المجتمعين في المنتدى الوزاري العربي الأول المنعقد في القاهرة في ديسمبر 2015، "إعلان القاهرة حول الإسكان والتنمية الحضرية المستدامة"، الذي قرروا فيه "اتخاذ كافة الإجراءات لتنفيذ الأجندة الحضرية الجديدة التي ستنبثق عن الموئل الثالث آخذين بعين الاعتبار أن الإنسان هو هدفها".

ويعني هذا الالتزام أن الدول العربية ستنفذ برامج عاجلة لمعالجة المشاكل التي تواجهها مدنها العربية، والتي ذكر إعلان القاهرة منها: سرعة معدلات التحضر في الوطن العربي وكونها من أعلى المعدلات في العالم وما أدت إليه من ضغوط على البنية التحتية والهيكل الأساسية والموارد المحدودة... وازدياد معدلات الفقر في المدن، وما نتج عنه من انتشار المناطق العشوائية وتعميق الفجوة الحضرية بين السكان، والوضع الدقيق الذي تمر به بعض البلدان العربية وما تعانيه المجتمعات الحضرية والريفية فيها من قسوة الصراعات والنزاعات والعمليات الإرهابية التي تؤدي إلى الهدم الممنهج للمدن العريقة ومناطق التراث الإنساني، بالإضافة إلى سياسات الاحتلال الإسرائيلي خاصة فيما يتعلق بسعيه إلى تهويد القدس وتغيير طبيعتها الديمغرافية والتراثية.

إن المستقبل الذي نسعى جميعا إلى تحقيقه في مدنها واضح المعالم: إننا نصبو إلى أن تكون مدنها نظيفة ومضيافة، توفر لسكانها عيشا رغدا، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، في كنف الأمن والعدل والمساواة...

وينبئنا الخبراء إلى أن تفادي المخاطر المستقبلية يقتضي عدم الاقتصار على الحلول التقنية التي تقدمها الأوساط المهنية، بل الحرص على أن تندرج تلك الحلول في إطار عملية أوسع تراعي كافة الجوانب التي تجعل المدينة تحافظ على هويتها وتؤدي وظيفتها المجتمعية، ويقتضي ذلك استحضار ماضيها، وذاكرتها، وتراثها، وثقافتها، بكل حقها ومكوناتها وخصائصها.

وعليه فإن المنطقة العربية، وإن كان عليها أن تستلهم من التجارب العالمية الناجحة في مجال التحضر وإعادة التهيئة العمرانية، مطالبة أيضا بالرجوع إلى ثراء مَعِينِ تقاليدها وتراثها واحترام خصوصياتها الثقافية مع الاستجابة لمتطلبات العولمة، خاصة وقد بين تقرير اليونسكو أهمية البعد الثقافي في "بناء مستقبل المدن"، باعتبار أن الثقافة، بوصفها "حلقة أساسية للمجتمعات، ينبغي أن تغذي السياسات والاستراتيجيات الخاصة بالتنمية المستدامة". وفي هذا الإطار يجدر بنا الاستفادة من تخطيط المدينة العربية الذي يبين هذا الكتيب بعض مزاياه وخاصة ضمان التمازج الاجتماعي، بل إن الأستاذ غوسّي M. Gossé أستاذ الهندسة المعمارية في المعهد العالي للهندسة المعمارية- لاكمبري (بروكسال)

يؤكد أن «المدينة القديمة، مثلما شكلتها التقاليد العربية والإسلامية، قادرة فعلا على أن تصبح نموذجا لتخطيط عمراني معاصر، شريطة إعادة تأهيلها وتحديثها بما يتلاءم مع الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في عصرنا».

وتتطلب ضخامة المهمة شراكات حقيقية على جميع المستويات، المحلية والوطنية والإقليمية والعالمية، والتزامات قوية تجمع بين الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدني ومنظومة جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، بالإضافة إلى الجهات المانحة. فلا بد إذن من العمل على تعبئة جميع الموارد المتاحة، الخاصة والعامة، للاستجابة لمقتضيات تحقيق التنمية الحضرية المستدامة.

د . عبد الله حمد محارب

المدير العام

للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم



## تهيد

يتضمن هذا الكتاب تعريبا، بتصرف، للتقرير الخاص ببلدان المنطقة العربية الذي أنجزته الألكسو في إطار شراكتها مع منظمة اليونسكو لإعداد التقرير العالمي حول "دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة"، الذي كلفت المنظمة الدولية بتقديمه إلى مؤتمر الأمم المتحدة للإسكان والتنمية الحضرية المستدامة - الموئل الثالث (كيوتو 17-20 أكتوبر 2016).

وقد تضمن تقرير الألكسو قسما تأليفيا وملخصا لدراسات حالة تناولت مُدُنًا عربية في المشرق والمغرب قدمها مهنيون وأكاديميون أسهموا منذ وقت طويل في البحث عن الحلول المناسبة للقضايا المتعلقة بـ "المناظر الحضرية التاريخية" في المدن المدروسة، هم: عبد الرحيم قاسو (مهندس معماري)، نعيمة لهبيل التجموعتي (اقتصادية)، حليم فايدي (مهندس معمار وتنظيم مدن)، فائقة البجاوي (مهندسة معمار وتنظيم مدن)، فاخر الخراط (مهندس معماري وأستاذ جامعي)، كريم إبراهيم (مهندس معماري)، مصباح رجب (مهندس معمار وتخطيط مدن)، سيسيليا بييري Caecilia Pieri (باحثة، متخصصة في عمارة بغداد)، زهراء علي بابا (مهندسة معمارية)، سيموني ريكا Simone RICCA (مهندس معماري)، دانيال بيني PINI Daniele (مهندس معماري وأستاذ تخطيط مدن). وتولى تحرير التقرير باللغة الفرنسية المنسق العلمي للفريق، مهندس تخطيط المدن الأستاذ جلال عبد الكافي.

إن النقاش الدائر حول ارتباط الثقافة بالتنمية، والذي أصبح الجميع يشعرون بمدى أهميته في الظرف الحالي، يشهد اليوم زخما جديدا من خلال الذاكرة التاريخية للشعب العربي في المشرق والمغرب، حيث إن ذكرى عظمة الحضارة المدنية وانحطاطها في المنطقة الثقافية العربية، التي تناولها ابن خلدون بالتحليل منذ القرن الرابع عشر في "المقدمة"، قد طفت من جديد في الوعي الجمعي المعاصر، لاسيما بعد تعميم التعليم.

فقد شهدت بداية هذا القرن الحادي والعشرين طرعا مُلِحًا لقضايا تتعلق بالتهيئة الترابية والتنمية الإقليمية والتخطيط الحضري، استوجبت معالجة حازمة من قبل السلطات العمومية تلبية لاحتياجات رعاياها واستجابة لمتطلبات الحياة اليومية وضمانا لمستقبل الأجيال الصاعدة خاصة فيما يتعلق بالسكن والعمل على المديين المتوسط والطويل.

فهل بمقدورنا إرساء علاقات منتظمة على نحو محكم بين الفضاءات العمرانية والمجتمعات، وبين المدن والدول، في حين أن مؤشرات التنمية البشرية تشير إلى تراجع في مستوى الحوكمة وإلى فقدان السيطرة على ظاهرة التحضر؟

إن مظاهر كثافة المجمعات السكنية وتدهور أحوالها والتفكك الحضري تتركس جميعها أشكال التمييز الاجتماعي والفصل الفضائي، ولا أدل على ذلك من تجاور المناطق السكنية المغلقة (gated communities) وأحياء الصفيح (slums).

لقد أصبحت المدينة في العصر الحديث تتركس أكثر فأكثر الانتقائية والتفرقة، على عكس المدينة التاريخية العربية التي كانت، إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر، تُعرف بتمازجها الاجتماعي. وتسعى الألكسو إلى تحقيق أهداف التنمية المستدامة في أفق 2030 مستلهمة تجربة كبار المفكرين وأعلام الأدب العربي في القرن العشرين، على غرار طه حسين في مصر ومحمود المسعدي في تونس، اللذين تمكنا في بداية الدولة الحديثة من بناء نظم تعليمية في بلديهما وامت بين قيم الأصالة والثقة في العقل والحس التاريخي والثقافي. إن صفات الحزم والقدرة على الإصلاح التي تحلها بها- مثل العديد من الشخصيات الثقافية الأخرى في العالم العربي- قد مكنت من رفع التحدي الرئيسي الخاص بفرض نظام التعليم الإلزامي. وتعتقد الألكسو أن تعبئة جهود المثقفين العرب، الملتزمين بنشر الثقافة ونقل المعرفة، كفيلة بتمكيننا من كسب رهانات التنمية الحضرية المستدامة.

وتدعو الألكسو الدول الأعضاء إلى أن تبادر بمعالجة قضايا التحضر وتحديات التحديث والعمولة من خلال تُوخِّي تَمَشُّ طوعي لاستيعاب الثقافة الحضرية من منطلق:

- أن التحضر لا يعني تسطيح الفضاء المعماري، والتفكك العمراني والفصل الاجتماعي،
- أن التحديث لا يعني مجرد تقليد الغرب أو التبعية الفكرية له،
- أن العمولة لا تعني فرض القيم الغربية على المجتمعات، أو اتباع أنماط حياتية تسلب فيها الشخصية، أو إضفاء صبغة فولكلورية على الثقافة الحضرية.

وقد أثبتت التجارب الأخيرة الخاصة بإعادة تأهيل الأحياء السكنية القديمة والتجديد الحضري أن لدينا من الخبرات والكفاءات في القطاعين العام والخاص في بلداننا العربية ما يلبي حاجتنا... إلا أن فرص إبراز تلك القدرات ميدانيا لا تزال في كثير من الأحيان في الطور التجريبي.

فما زلنا، في الواقع، نحتاج إلى المزيد من حشد الدعم السياسي والمؤسسي، ووضع النظم الملائمة، وتوفير الآليات المالية لإدماج التراث العمراني في عملية التنمية الحضرية المستدامة.

ومن هذا المنطلق، راهنت الألكسو على جمع عدد من الخبرات الأكاديمية والمهنية العربية التي أثبتت كفاءتها على مستوى الوطن العربي مشرقه ومغرب، سعيا إلى حشد الطاقات الفكرية اللازمة لإحياء الثقافة الحضرية العربية وتشجيع الخيال الخلاق الضروري لتوفير فضاءات معمارية وبناء مجمعات مواكبة للتطورات الحديثة في القرن الحادي والعشرين. إن الألكسو تدرك، أكثر من أي وقت

مضى، مدى أهمية الدور الذي يضطلع به المجتمع المدني المعاصر في عملية البناء الحضري: فالشارع العربي الذي استأثر باهتمام المؤلفات الأدبية البديعة لنجيب محفوظ وعلاء الأسواني، قد نسج، على مرّ الأيام، في سيرورة الحياة اليومية، روابط المؤانسة السائدة بين سكان المدن القديمة، تلك "المجمّعات التاريخية أو التقليدية" التي علينا حمايتها كما تنادي به توصية اليونسكو لعام 1976.

وتولي الألكسو اهتماما كبيرا "للحق في المدينة" وتدعم الجهود الرامية إلى صون التراث الحضري التاريخي وإعادة تأهيله، وفقا لما جاء في توصية اليونسكو الصادرة عام 2011، مركزة عملها على تعزيز قدراتها في مجال تقديم المشورة والمساعدة الفنية وفقا للتفويض الذي منحه إياها المجلس الاقتصادي والاجتماعي لجامعة الدول العربية الذي كلفها بإنشاء "المركز العربي للتراث العمراني والمعماري في البلدان العربية".

يمثل المرصد جهازا مختصا يعمل كوحدة لإدارة المشروعات، ويتولى الإشراف على تنفيذ خطط العمل والقيام بدور الحارس والميسر على المستويين الوطني والإقليمي، من خلال حشد المهارات الأكاديمية والمهنية، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، في المجالات الآتية:

- التوثيق / الإعلام،
- التعليم / التدريب،
- المراقبة / التقييم،
- تقديم المشورة والمساعدة،
- إعادة الإعمار لفترة ما بعد النزاعات.

هذا وتزعم الألكسو في القريب العاجل استعراض قضايا التخطيط العمراني والحوكمة المؤسسية التي يتناولها هذا التقرير بالدرس والتحليل، والتحاور بشأنها مع الدول العربية.

د . حياة قطاط القرمانري

مديرة إدارة الثقافة



## توطئة

# الثقافة العربية والحضارة المدنية على موك التاريخ

يركز هذا التقرير، في معالجته لدور الثقافة في التنمية الحضريّة المستدامة للمنطقة العربيّة، على موضوعات تتعلّق بتسارع نسق التحضر ومشكلات التنمية الخاصّة بالمستوطنات البشريّة والمعوقات التي تعترض الحوكمة الحضريّة، وهي قضايا لا تمثّل سوى جزء من عوامل التوتر الاجتماعيّ والسياسيّ. ولأجل إبراز المقاربة التشخيصية الكلاسيكية لتحليل القطاعية للمهندسين المعماريين والمخططين العمرانيين والمهندسين والمطوّرين وعلماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد الواردة في هذا التقرير، عملت الألكسو على توجيه الأنظار إلى الثقافة العربيّة بتنوع مشاربها وتجلياتها والحضارة الإسلاميّة بامتدادها الجغرافي، وذلك بالرجوع إلى البحوث التاريخيّة التي تُثير بشكل أو بآخر التطورات المعاصرة. وتعتبر الدراسة الشاملة التي خصصها الدكتور هشام جعيط لمدينة الكوفة وثيقة تتناول بالتفصيل نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة وتصحح كثيرا من الأطروحات التي قدمها عدد من كبار المستشرقين بشأنها، وتتميز مقارنته باعتبار المدينة كلّاً متكاملًا وليس مجرد قضية عمرانية أو معمارية. كما أنه يلح على الطابع الديناميكي للمدينة عندما يقول: "لا تنتهي أية مدينة من بنائها الذاتي وهدمها الذاتي أيضا، ذلك أن نبضات حياتها ترتبط بالمادة البشريّة الموجودة داخلها وبالمُدّ البشري المحيط بها، وكذلك بوتائر التاريخ الكبرى... حيث يُثبت المستوى السياسي أحيانا قدرته على الهيكلّة بصورة خاصّة، فهو قادر بفضل قرار بسيط على تغيير المظهر الاجتماعي والمظهر المدني، إلى أجل..!"<sup>1</sup>.

ويرى هذا المفكّر أن "الفتنة الكبرى" تشكل حقبة مفصلية تولّدت منها انقسامات الإسلام الكبرى مباشرة أو على أمد قريب أو بعيد، حتى إنه في الإمكان أن تعزى إلى تلك الحقبة كل تطورات الإسلام السياسي والإسلام الديني تقريبا وامتداداتها في العصر الكلاسيكي الطويل. إن تسليط الضوء على الخلافة المبكرة في رأي هشام جعيط يهّم المسلمين الحديثين الذين يصفون عليها سجلاتهم ومجادلاتهم السياسيّة/الدينيّة الناجمة عن الاصطدام بالحدّاث، فمنذ 1924، تاريخ إلغاء أتاتورك لمؤسسة الخلافة، هناك سجل مركزي بين السجلات ذو علاقة بعلمنة السياسة والدولة لا يزال يشق الوعي الإسلامي الحديث إلى شقين: أنصار علمانية الدولة وأتباع إسلاميتها"<sup>2</sup>.

1 الكوفة: نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة، الكويت، ط 1، 1986، ص 453

2 هشام جعيط، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، ط 4، 2001، ص 7.

لقد كانت هذه الآراء التي نشرها هشام جعيط سنة 1989 صائبة في توقعاتها، حيث شهدت بدايات القرن الحادي والعشرين العديد من المواجهات بين المجتمعات المدنية والأحزاب السياسية في كل من المشرق والمغرب حول موضوع العلمانية. وقد تأكد ذلك بعد أن أعلن الإرهابي "أبو بكر البغدادي" عزمه على استعادة الخلافة بإشهار سيفه.

إن ما أقدم عليه هذا الإرهابي بدخوله في هذه الحرب ينافي منطلقات ومقاصد الجدل الديني والسياسي الذي خاضه المفكرون المسلمون المصلحون الذين عاشوا في القرنين التاسع عشر والعشرين، والذين نجد في مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي (1894-1902) مؤلف كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، الذي سخر حياته للنضال ضد الحكم الاستبدادي للخلافة العثمانية.

من جهة أخرى نشرت المؤرختان بريجيت فولون Brigitte Foulon وإيمانويل تيكسيي دي مسنيل Emmanuelle Tixier du Mesnil ترجمة فرنسية لمختارات من نصوص الأدب العربي الأندلسي، من ظهور الخلافة سنة 711 إلى سقوط غرناطة سنة 1492<sup>3</sup>، تناولتا فيها «الكارثة السياسية» التي أحدثتها الفتنة الكبرى، لكنهما لاحظتا أيضا الازدهار الثقافي الذي غالبا ما يصاحب ظهور النزاعات. لقد كان ملوك الطوائف الأبناء الشرعيين للفتنة والتمزق... إذ قامت على أنقاض الخلافة بالأندلس زهاء ثلاثين دويلة تزعمها حكام ظلوا يتقاتلون فيما بينهم لضمان بقائهم وتثبيت شرعيات غالبا ما كانت أركانها واهية. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد كانت هذه الإمارات حواضن للحضارة العربية الإسلامية في إسبانيا، حيث شهدت فيها الآداب ازدهارا لم يُعرف له مثل من ذي قبل وتعددت قلاعها وبنائاتها الفخمة، مساهمة بذلك في ترسيخ خصائص الهوية الأندلسية.

أما كريستوف بوميان Krzysztof Pomian، مؤرخ العصر الوسيط اللاتيني، فقد قدم وصفا مقارنا بين الحضارات المدنية بالمشرق الإسلامي والغرب المسيحي معتمدا في ذلك على قراءة جديدة لكتابات ابن خلدون بوضعها ضمن إطارها التاريخي<sup>4</sup>.

يبيّن ابن خلدون (1332 - 1406)، في مقدمته، نظريته السياسية والاقتصادية حول حضارة العمران في الفضاء الثقافي العربي والتي يمكن تلخيصها كما يلي: لا مدينة بدون دولة ولا دولة بدون مدينة. ذلك أن الدولة هي التي تؤسس المدينة بحشد السكان وتشييد الحصون وبناء المساجد والقصور وتوفير فرص العمل للرعايا وجمع الثروات ثم إعادة توزيعها بمقتضى المصالح.

فالمدينة هي التي تمكن النظام الملكي من أداء مهامه: يحكم السلطان رعاياه العزل ويوفر لهم

3 Brigitte Foulon et Emmanuelle Tixier du Mesnil : Al-Andalus, Anthologie Choix de textes, traduction, présentation, annexes chronologie et bibliographie Préface, Gabriel Martinez-gros. Edition Flammarion, Paris 2009, 480p. Citations : p. 169

4 Krzysztof Pomian, Ibn Khaldoun au prisme de l'Occident Bibliothèque des histoires. Nrf Gallimard 2006.

الحماية ويحفظ النظام الاجتماعي ويضمن الأمن الحدودي، وهو الذي يعطي الحوافز لأصحاب الصناعات والتجار ويشجع النشاط الاقتصادي دون المشاركة في عملية الإنتاج... وهو يؤمن لهم كل هذا مقابل فرض الجباية.

ويتناول ابن خلدون أيضا المناطق البدوية المجاورة للمدن موضحا أن التماسك الاجتماعي بين القبائل والسلالات والعشائر المستمد من العصبية البدوية يتآكل نسبيا بحكم الدينامية الحضرية: "إنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضرة"<sup>5</sup>.

ويلاحظ ابن خلدون أن سمات الحضارة المدنية تظهر في الهندسة المعمارية الدينية والمدنية والفنون والثقافة والعلوم التي لا تنمو إلا في المدن المزدهرة. كما أشار في مقدمته إلى عظمة المدن وانحطاطها في الأندلس (إشبيلية) والمغرب (فاس، تلمسان) والمشرق (القاهرة، دمشق) مؤكدا أن: «غاية العمران هي الحضارة والترف وإنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد» (ج 2، ص 451).

إن هذا الاستنتاج الذي قدمه ابن خلدون ليس مجرد انطباع بل هو ثمرة تمشٍّ معرفي وعصارة أطروحته التي تأكد من صحتها بفضل قدرته على تفحص الأماكن والتحقيقات الميدانية والتأمل في الحياة اليومية واعتماد الشهادات والعودة إلى المصادر التاريخية.

فما يقدمه لنا هذا المؤرخ هو في الحقيقة تمشٍّ منهجي قائم على تحريات صارمة وملاحظات دقيقة تمكّن من التفكير في الشأن الحضري على نحو شامل. ويُعتبر هذا المنهج مُجددا بالنسبة إلى القرن الرابع عشر، كما أشاد بذلك كريستوف بوميان K. Pomian في قوله: "جمع ابن خلدون بين صرامة العالم ونظرة الصحفي الثاقبة". ويضيف قائلا: "لم يعط أي مفكر سياسي لاتيني للحضارة المدنية الأهمية التي أولها إياها ابن خلدون، إذ لا أحد منهم فكّر مثله في أن وجود الدولة يرتبط ارتباطا عضويا بوجود المدينة".

ومع ذلك، كيف يمكن تفسير الشعور بالتدهور الذي أحس به ابن خلدون في نهاية رحلته إلى المغرب والمشرق؟ ينظر كريستوف بوميان K. Pomian إلى الثقافة العربية والإسلامية في نهاية هذا القرن الرابع عشر ضمن سياق تطور العالم الغربي، إذ يقول: "وعلى الرغم من أن اللاتينيين كانوا متأكدين من عدم قدرتهم على مضاهاة الشرق.. فقد حدث في البلاد المسيحية اللاتينية ما لا مثيل له في المجتمعات الأورثوذكسية والمجتمعات الإسلامية، وهو الابتكارات المتعددة التي تمتد جذورها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر".

5 ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ج 1، ص 167

ويوضح كريستوف بوميان K. Pomian ذلك بقوله: "إننا نشهد فعلا ولادة الفكر العَلَماني" الذي تظهر سماته في تكريس أهمية القانون الذي أصبح يستند أكثر فأكثر إلى التشريعات المدنية ويقترح معايير جديدة ذات طابع عِلْماني. ومن هذا المنظور فإن الدولة المسيحية اللاتينية التي انفردت بسلطة القانون كانت تُخضع الدين للسياسة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وقد أفرزت تلك المتغيرات صعودا بارزا للحقوقيين المتخرجين من الجامعات وهم الأوائل الذين باشرُوا المهنة الفكرية رغم كونهم لم يكونوا ينتمون إلى الكنيسة.

ويرى كريستوف بوميان K. Pomian أن واحداً من أكبر الفوارق بين مفهوم الدولة عند ابن خلدون وما كان متداولاً لدى المُنتظرين المسيحيين في عهده يكمن في الروابط القائمة بين ممارسة السلطة العليا والموقف إزاء القانون.

إن هذا الوعي بالتطور المجتمعي، الذي سيتجسد في عصر النهضة، قد بلغ درجة من النضج جعلت المؤلفين اللاتينيين، خلافا لابن خلدون، يعتقدون أنهم يعيشون مرحلة تصاعدية في تاريخ الفنون والآداب. ففي نهاية هذا القرن الرابع عشر لم يشرع الشرق بعد في السير على هذا الدرب المؤدي إلى الحداثة. وربما كان ابن خلدون واعيا بذلك حين قال: "فإذا تراجع عمرانها (المدينة) وخف ساكنها قلّت الصنائع لأجل ذلك ففقدت الإجابة في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد، ويصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل لقلة العمران وقصوره عما كان أولا، ثم لا تزال تُنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يُفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة، والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدن وتظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قُدر لها به. سنّة الله في خلقه"<sup>6</sup>.

تتجسد آفاق الشمولية ذات الطابع الديني التي تعرّض لها د. شايغان D. Shayegan منذ عام 1987<sup>7</sup> في تصريحات سياسية حديثة العهد: ففي يوم 29 يونيو 2014، وهو أول يوم من رمضان، أعلن ما يسمى "الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام (داعش)" إقامة الخلافة على الأراضي السورية والعراقية التي تقع تحت سلطتها، معتبرة نفسها وريثة الخلافة الإسلامية الماضية.

وهكذا يتضح أن التيارات الأصولية توظف التاريخ والدين لخدمة الانتماءات السياسية الضيقة. وتضم القائمة أدناه بعض الأمثلة القائمة على هذا التوظيف:

6 المقدمة، مرجع سابق، ج 2، ص 434-435

7 Shayhegan Daryush, Les Presses d'aujourd'hui 1982. ما هي الثورة الدينية؟

- 2001: تحطيم تماثيل بوذا في باميان، أفغانستان،
  - 2003: نهب متحف بغداد، العراق،
  - 2011: هدم مسجد سيدي البحري، حومة السوق جربة، الجمهورية التونسية
  - 2012: تدمير أضرحة تومبوكتو، مالي،
  - 2013: هدم صومعة الجامع الأموي في حلب،
  - 2015: هدم معالم في الموقع الأثري تدمر، سوريا
  - 16 أغسطس 2015: اغتيال خالد الأسد بقطع رأسه، وكان سابقا مديرا للآثار وأميناً لمتحف تدمر،
  - 30 أبريل 2015: هدم معبد بل، تدمر
  - 23 أغسطس 2015: هدم معبد بعل شامين، تدمر
  - مطلع سبتمبر 2015: هدم البرج الجنائزي، تدمر
- فما هي الغاية من وراء هذا العنف المدمر يا ترى؟

إنه إنكار للتاريخ وللثقافة. وبطبيعة الحال لا علاقة لهذه الجرائم بالدين الإسلامي ولا بالثقافة العربية الإسلامية التي ترفض كل أشكال التطرف والغلو، والتي احتضنت هذه المعالم وحمتها عبر العصور كجزء لا يتجزأ من تراثنا العربي الإسلامي.

وستقوم الدول والمنظمات العربية بترميم ما هدمه الإرهابيون واللصوص من المعالم في الأرض العربية، وستظل الأمة العربية تساهم، كما كانت، في إثراء "الحضارة الكونية" وفقاً لتعبير الأستاذ رينيه ماهو René Maheu المدير العام لليونسكو في مطلع الستينيات من القرن الماضي<sup>8</sup>.

ولضمان المشاركة الفعالة في هذه الحضارة العالمية التي تتميز بتجاوز الانقسامات بين الشرق والغرب، كان على تقرير منظمة الألكسو التأكيد على الحاجة الماسة إلى قراءة التاريخ والثقافة وفقاً لمبادئ ديمقراطية، ما أمكن ذلك، إذا ما أردنا تحقيق أهداف التنمية الحضارية المستدامة.

## الفصل الأول

### برنامج العمل الحضري الجديد لها بعد 2015:

### مذكرة اليونسكو المفاهيمية وتقرير الألكسو

في إطار إعداد التقرير العالمي لليونسكو حول "دور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة" المقدم إلى مؤتمر الأمم المتحدة الثالث للإسكان - الموئل الثالث (2016)، تكفلت الألكسو بصياغة التقرير الإقليمي الخاص بالدول العربية. ويستند التقرير الإقليمي للألكسو إلى الوثائق الثلاث المذكورة أدناه والتي ترسم المنحى الفكري لهذا التقرير وتبين غاياته الأساسية وتحدد مجالات العمل المطلوب.

1. أوصت مذكرة تقديم ندوة اليونسكو المنعقدة عام 2014 بشأن جدول الأعمال الحضري لما بعد عام 2015 بما يلي:

- أ. تغيير جوهرى في منوال التنمية الحضرية،
  - ب. وضع رؤية مستقبلية طموحة ومعيارية ذات صبغة عملية،
  - ج. التأكيد على الدور المحوري للثقافة بوصفها محركا للتنمية الحضرية،
  - د. تكييف نماذج التخطيط والترتيبات الإدارية مع الأطر الثقافية الإقليمية بأبعادها الخاصة والمتفرّدة،
  - هـ. إدماج المجتمع المدني شريكا في إنتاج الثقافة الحضرية والتنمية المستدامة.
- وفي ضوء هذه التوصيات الخمس ذات الأهمية البالغة، يتمحور جدول الأعمال الحضري الجديد لما بعد عام 2015 حول المبادئ الأساسية الثلاثة الآتية:
- حماية التراث العمراني والمحافظة عليه،
  - صون التراث غير المادي،
  - تعزيز الثقافة من خلال النهوض بالإبداع والابتكار.
- إن هذه المذكرة التي تلخص مناقشات ندوة اليونسكو المشار إليها أعلاه لم تسلم من المشاحنات والحجاج، وهي تقدم فكرة أولية عن المسارات السياسية التي تركز على:
- ♦ ترسيخ دور المدن كفضاء جيوسياسي بامتياز يساعد على تحقيق ما تتطلبه التنمية المستدامة من أنشطة متعددة الأبعاد وحوكمة شاملة.

◆ اعتماد اللامركزية في عمل اليونسكو بما يمكّن من حشد الكفاءات الإقليمية وإقامة شراكات على الصعيد المحلي.

2. تشير المذكرة المفاهيمية الخاصة بإسهام اليونسكو في إعداد جدول الأعمال الحضري لما بعد عام 2015 إلى النقاط التالية:

أ. الاختلالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والديموغرافية الناتجة عن "تسارع نسق التحضر" منذ عام 1950.

ب. أبعاد وضوابط التوصيات الصادرة عن المؤتمرات العالمية السابقة (الموئل الأول- فانكوفر 1976، والموئل الثاني- إسطنبول 1996) والالتزامات الواردة في الإعلان بشأن المدن والمستوطنات البشرية الأخرى في الألفية الجديدة (منظمة الأمم المتحدة 2001).

وبالنظر إلى الانفجار السكاني المتوقع بحلول عام 2050 والتهديدات المناخية الأخرى، وضوابط السياسات الحضرية الوطنية والدولية السابقة، من المنتظر أن يوصي مؤتمر الموئل الثالث باتباع المقاربات الجديدة الآتية:

- السيطرة على ظواهر التمدن من خلال إدماج السياسات الحضرية وتصميم المدن ذات الكثافة والفعالية العالية.
- اعتماد الإصلاحات المؤسسية والقانونية التي تُيسّر مشاركة المجتمع المدني وتفسح مجال الشراكة أمام أصحاب المصلحة كافة.

بعد إقرارها بأن «المدن في القرن الحادي والعشرين تشكل تحديا كبيرا للتنمية المستدامة»، تستنتج المذكرة المفاهيمية أن «الثقافة تظل محركا للتنمية الاقتصادية وعاملا من العوامل المساعدة على الاندماج الاجتماعي».

وفي سياق تدقيقها للقضايا المطروحة على الموئل الثالث، تنصّ المذكرة المفاهيمية على أن «كسب رهان التنمية الحضرية لا يمكن أن يتحقق إلا في بوتقة المدن».

وإذ تشير هذه المذكرة إلى الأحكام القانونية للتوصيات والاتفاقيات الدولية، وتؤكد أن معظم الممتلكات المدرجة على قائمة التراث العالمي هي مدن وتجمّعات حضرية تنضوي تحت فئة المناظر الحضرية التاريخية، فإنها تعتبر:

- أن نقطة الانطلاق لوضع استراتيجية للتنمية الحضرية المستدامة تتمثل في صون التراث المادي وغير المادي،
- أن تجديد المراكز التاريخية وإعادة تأهيل المساحات الحضرية والفضاءات العامة المخصصة للثقافة يساعد على الحفاظ على النسيج الاجتماعي وتحسين المردود الاقتصادي وتعزيز القدرة التنافسية،
- أن النهوض بالتراث غير المادي والانتعاش الثقافي، من خلال الابتكار والإبداع، من شأنه أن يمكّن المدن من ترسيخ هويتها والنهوض بقدرتها على استقطاب المستثمرين على الصعيدين الوطني والدولي.

هذا وسيتم تحديد مساهمة اليونسكو في الجهد المشترك الذي تبذله منظومة الأمم المتحدة لوضع جدول أعمال حضري جديد لما بعد عام 2015 في تقرير عالمي يضم المحاور التالية:

1. التقييم التشخيصي للأوضاع المتعلقة بالتراث المادي وغير المادي في سياق إقليمي مع إيلاء اهتمام خاص ب:
    - السياسات والممارسات الوطنية في مجال الصون،
    - الإطار المؤسسي والتشريعي،
    - الرهانات والتحديات التي تواجهها إدارة التراث في النهوض بالتجديد العمراني والتنمية الحضرية.
  2. صياغة سياسات اليونسكو القائمة على البعدين الأساسيين للثقافة كرافع للتنمية، ألا وهما التراث والإبداع.
  3. التركيز على العناصر التالية:
    - الميزات والتحديات العمرانية المتصلة بالتحضر،
    - التحديات والفرص الخصوصية،
    - دور الثقافة والتراث في تعزيز التماسك الاجتماعي والمشاركة المجتمعية،
    - الدروس والرؤى المستقبلية.
- ويستند الإطار المفاهيمي للتقرير الإقليمي للألكسو إلى مضمون التوصية الخاصة بالمنظر الحضري التاريخية (اليونسكو 2011). ويضم التقرير دراسات حالة وفقا للتمثلي الآتي:

#### ◆ التعرف بالمدينة التاريخية وتحليل تطورها

- السكان، والنمو السكاني والهجرة،
- مظاهر التحضر المنظم و/أو العشوائي،
- التراث التاريخي، والتكامل المكاني والتنمية الحضرية.
- الخاتمة: تقييم تشخيصي للحالة الراهنة

#### ◆ القضايا والإشكاليات المطروحة

- الدعم السياسي
- الحوكمة المؤسسية
- الإطار القانوني
- الإجراءات المالية
- الترتيبات العملية
- الخاتمة: تحديات حماية التراث المادي وغير المادي والمحافظة عليه

#### ◆ الآفاق المستقبلية والاستراتيجيات

- المشروع التراثي الخاص بالتجديد الحضري
- برنامج العمل التنفيذي:
- إعادة تأهيل السكن القديم وإعادة تهيئة الأحياء السكنية العشوائية (أحياء الصفيح)،
- التهيئة العمرانية للطرق ومختلف الشبكات وتجهيز الأماكن العامة،
- حماية المعالم الأثرية والمدنية والدينية، العام منها والخاص، وحفظها وترميمها،
- إنعاش الأسواق والبازارات والمساحات التجارية،
- توفير التجهيزات الاجتماعية والثقافية والتربوية والصحية الضرورية،
- الحد من استخدام السيارات داخل المناطق الحضرية، وتنظيم مسالك المازة، وتيسير حركة النقل العام بتصميم أماكن مخصصة لها وتوفير مواقف للسيارات يسهل الوصول إليها.
- إجراءات تطويع الفضاءات التاريخية لمتطلبات الحياة الاجتماعية المعاصرة،
- التخطيط التشاركي،
- التمازج الاجتماعي،
- الإبداع الثقافي وتشجيع الابتكار.

- نشر الثقافة في الأماكن الحضريّة.

- تعزيز القدرات المؤسسية والقانونية والمالية للوزارات المكلفة بالشؤون الثقافية،
- التدابير الكفيلة بتشجيع الإبداع الثقافي.

## 1. المنطقة العربية وتصنيفاتها

المشرق (le Levant): المكان الذي تشرق منه الشمس، الشرق (L'Orient والمغرب) (le Couchant l'Occident): المكان الذي تغرب فيه الشمس، تلك هي العبارات التي تم تداولها عادة في أدبيات التاريخ للإشارة إلى المناطق الجغرافية في العالم العربي.

ومنذ القرن العشرين، أصبحت الأوساط السياسية والدبلوماسية تستخدم مفردات مثل الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهلال الخصيب. وقد أصبحت هذه المفردات الآن جزءاً من اللغة المتداولة، ولكن إلى ماذا تشير هذه العبارات بالتحديد؟

- "الشرق الأدنى" هو مصطلح فرنسي يتقاطع مع عبارة (le Levant) التي كانت محبذة خلال القرن التاسع عشر، وتشمل منطقة الشرق الأدنى والدول العربية المطلة على شرق البحر المتوسط: مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وجزءاً من الأردن.

- "الشرق الأوسط" هو مصطلح مرتبط بالرؤية الأنجلوسكسونية للمنطقة: وهو يشمل منطقة الشرق الأدنى والدول العربية الأخرى علاوة على إيران.

- "الهلال الخصيب" ورد هذا المصطلح في أوائل القرن العشرين على لسان عالم الآثار جيمس بريستريد Breasted James في إشارة إلى منطقة تمتد، في شكل هلال، من حوض نهري دجلة والفرات إلى غزة، وتتميز بكثرة المياه وخصوبة الأرض. وهي عبارة عن تجمع إقليمي تتراوح مساحته بين أربعمئة إلى خمسمئة ألف كلم مربع ويضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

وتيسيراً لقراءة هذا التقرير، نورد فيما يلي التصنيفات الجيوسياسية المختلفة التي تستخدمها المنظمات الدولية والجهات المانحة:

### 1.1. التصنيفات الإقليمية/الجيوسياسية

شهدت المنطقة العربية أنواعاً مختلفة من التصنيفات وفقاً لاعتبارات سياسية متنوعة، نستعرضها بإيجاز حسب الاستعمال في أربع منظمات هي:

- اليونسكو

- جامعة الدول العربية،
- البنك الدولي،
- الاتحاد الأوروبي.

### 1.1.1. الانتماء السياسي والثقافي من منظور اليونسكو

وفقا لتسمية اليونسكو، تضم «المنطقة العربية» الدول التسع عشرة الآتية حسب الترتيب الأبجدي اللاتيني:

تاريخ الاستقلال	الدولة	
1962	الجزائر	1
1971	البحرين	2
1922	مصر	3
1971	الإمارات	4
1932	العراق	5
1946	الأردن	6
1961	الكويت	7
1943	لبنان	8
1958	ليبيا	9
1974	موريتانيا	10
1956	المغرب	11
1967	عمان	12
...	فلسطين	13
1971	قطر	14
1932	السعودية	15
1956	السودان	16
1946	سوريا	17
1956	تونس	18
1932	اليمن	19

### 2.1.1. الانتماء من منظور جامعة الدول العربية

تضم جامعة الدول العربية، التي تأسست في 22 مارس 1945، البلدان التسعة عشر التي تصنفها اليونسكو في المنطقة العربية، بالإضافة إلى جيبوتي (1977) والصومال (1974) وجزر القمر (1993).

### 3.1.1. انتماء جيوسياسي من منظور البنك الدولي

تشمل منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (Middle East and North Africa, MENA) منطقة تضم الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية، بالإضافة إلى دول أخرى تم إلحاقها وهي:

- إسرائيل،
- إيران،
- تركيا وقبرص ومالطا،
- أرمينيا وأذربيجان وجورجيا.

وبهذا تضم منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا دولا تمتلك 60 % من احتياطي النفط و45% من احتياطي الغاز.

هذا التقسيم الجيوسياسي يتصل بعالم الأعمال وأوساط المال، وبقضايا العولمة والعلاقات الدولية القائمة على التبعية فيما يتعلق بعملية التنمية. وحيث إن مسار العولمة لا يتوقف عند حدود الدول، فإن البنك الدولي يعتمد هذا التصنيف (MENA) لغايات تتصل بإعداد الدراسات الثقافية والاقتصادية الكلية.

### 4.1.1. انتماء أورو-متوسطي من منظور الاتحاد الأوروبي

كانت الغاية من الحوار العربي الأوروبي، الذي دعت إليه أوروبا في قمة كوبنهاجن عام 1973 في أعقاب حرب أكتوبر وفرض الحظر النفطي، تهدئة العلاقات الاقتصادية من خلال السعي إلى تحرير التبادلات التجارية (لكن دون السماح بحرية تنقل الأشخاص) بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، من ناحية، والعمل، من ناحية أخرى، على وقف التدهور المستمر للوضع السياسي الإقليمي الناتج عن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين والأراضي العربية المحتلة...

في هذا السياق المشحون بالتوترات والصراعات سعى الاتحاد الأوروبي إلى إقامة شراكة ليس مع الدول العربية فحسب، ولكن مع كافة البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وقد مرت هذه الشراكة، فيما يتصل بموضوع هذا التقرير، بالمراحل التالية:

- 1976: قررت البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط العمل سويا من أجل مكافحة التلوث

والسياحة المفرطة والتحضر غير المنظم وغيرها من العلل التي تعوق عن التنمية. وقد أبرمت هذه البلدان مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية اتفاقية برشلونة لحماية البحر المتوسط من التلوث التي تؤكد ديباجتها على القيمة الاستثنائية للتراث الثقافي المتوسطي.

- 1978: دخول اتفاقية برشلونة هذه حيز التنفيذ، وإطلاق الأطراف المتعاقدة خطة عمل البحر المتوسط التي أسندت أمانتها إلى برنامج الأمم المتحدة للبيئة.

- في سبتمبر 1985، حددت الأطراف المتعاقدة في إعلان جنوة الغايات الأساسية التي ينبغي تحقيقها، ووضعت سلسلة من الإجراءات التي يتعين اتخاذها، من بينها "ضبط الطرق الكفيلة بحماية المواقع التاريخية ذات الاهتمام المشترك". وبالاستناد إلى مبادئ عامة ومعايير وضعها المجلس الدولي للمعالم والمواقع ICOMOS، تم في عام 1987 إعداد قائمة أولية ضمت مائة موقع.

- 1989: وضع برنامج الأمم المتحدة للبيئة خطة عمل البحر المتوسط MAP.

- في يناير 1989، احتضنت مرسيليا أول اجتماع للمسؤولين عن المواقع التاريخية ذات الاهتمام المشترك في منطقة البحر الأبيض المتوسط... وقد أسفر هذا الاجتماع عن نشر ميثاق يحدد "المبادئ التوجيهية للتعرف على المواقع التاريخية وصونها وإدارتها وتوفير الحماية لها". وتنفيذا لهذه المبادئ، تم إرساء شبكة في إطار خطة عمل البحر الأبيض المتوسط، أسندت إدارة أمانتها إلى بلدية مرسيليا من خلال هيئة تدعى "ورشة عمل التراث".

تهدف خطة عمل البحر المتوسط إلى حماية الممتلكات الثقافية والطبيعية في محيطها الخاص، لا لكونها تشكل نماذج نادرة من صنع البشر بل بالنظر إلى أنها شهادات لا تقدر بثمن عن الهوية الثقافية للمتوسط.

- 1995: تعديل اتفاقية برشلونة لحماية البحر المتوسط من التلوث الموقعة عام 1976، بغرض حماية البيئة البحرية والمنطقة الساحلية للبحر المتوسط. وقد تمّ تكليف برنامج الأمم المتحدة للبيئة/خطة عمل البحر المتوسط بمتابعة تنفيذ هذا البرنامج عن طريق الخطة الزرقاء/ مرصد البحر الأبيض المتوسط للبيئة والتنمية.

- 1996: تكفلت لجنة البحر المتوسط للتنمية المستدامة التي تضم الدول المتوسطية والمفوضية الأوروبية بتعبئة الخبراء وتنظيم منتديات تناولت محاور استراتيجية تتعلق بمنطقة التجارة الحرة الأورو-متوسطية، والسياحة، والإدارة الحضرية وغيرها من المواضيع الهامة.

وفي هذا السياق يجدر الاستشهاد بما قاله فيرنان بروديل Fernand Braudel: "إن البحر الأبيض المتوسط يمثل منطقة بيئية أصيلة وفريدة من نوعها من حيث خصوصياتها الجغرافية والتاريخية وتراثها الطبيعي والثقافي وشعور شعوبها المترسخ بالانتماء إلى العالم المتوسطي".

- 1995 تم في نوفمبر إطلاق "مسار برشلونة" للشراكة الأوروبية المتوسطية، بمبادرة من الاتحاد الأوروبي، وحصلت دول جنوب المتوسط وشرقيه، في إطاره، على تمويلات هامة من برنامج ميديا MEDA للمساعدات المالية وعلى قروض من البنك الأوروبي للاستثمار، وهو يركز على ثلاثة محاور رئيسية هي:
- شراكة سياسية وأمنية تقوم على أساس التشاور والتنسيق،
- شراكة اقتصادية ومالية تهدف إلى بعث منطقة تبادل حر في عام 2010،
- شراكة ثقافية واجتماعية وبشرية على أساس الحوار بين الثقافات.

لقد تم وضع "التصورات المستقبلية للخطة الزرقاء حول البيئة والتنمية في منطقة البحر الأبيض المتوسط" من قبل اللجنة المتوسطية للتنمية المستدامة (CMDDD) وهي هيئة استشارية لدى برنامج الأمم المتحدة للبيئة/خطة عمل البحر المتوسط (PNUE / MAP 1996). وتم عرض الاقتراحات الواردة في التقرير حول "مسألة المدن والتنمية المستدامة في منطقة البحر الأبيض المتوسط" أثناء مؤتمر برشلونة يومي 3 و5 سبتمبر 2001، فيما تم تقديم التقرير النهائي للمصادقة عليه خلال الاجتماع الاستثنائي الذي عقدته لجنة البحر المتوسط للتنمية المستدامة (CMDDD) بتاريخ 12 نوفمبر 2001 في موناكو.

◆ اكتمل برنامج التراث الأوروبي المتوسطي "يوروميد للتراث Euromed Heritage" في عام 2013، وهو البرنامج الثقافي الأول للشراكة الأوروبية المتوسطية، أطلقتها المفوضية الأوروبية في عام 1998 تحت شعار "إننا نعتني بماضيها لنحافظ على مستقبلنا". وفي إطار هذا البرنامج جاء مشروع "قنطرة"، الذي ساهمت فيه مديريات الآثار والتراث في تسع دول مشاركة هي فرنسا وإسبانيا والمغرب والجزائر وتونس والأردن ولبنان ومصر وسوريا، والذي أنجز قاعدة معلومات على الانترنت عن التراث الثقافي لدول حوض البحر الأبيض المتوسط، تشمل ما يقارب 1500 مدخل: مواقع أثرية، قطع فنية..

وقد اعتبر جورج موتين George Mutin أن الحصيلة كانت غير كافية ملخصا ذلك في: "وجود فجوة مؤلمة بين الطموحات التي تم الإعلان عنها في السابق وما تم تحقيقه على أرض الواقع". وأردف

قائلا: "لم تستطع أوروبا إدماج بلدان البحر الأبيض المتوسط في دورتها الاقتصادية (...). فهل إن للاتحاد الأوروبي مصلحة في أن يترك على حدوده الجنوبية مناطق فقيرة تعيش على هامش الاقتصاد العالمي"<sup>9</sup>.

وفي مواجهة الفشل (النسبي) لمسار برشلونة، تم تأسيس الاتحاد من أجل المتوسط بتاريخ 13 يوليو 2008 في باريس، وقد وضع أهدافا طموحة من بينها "إنشاء الجامعة الأورو-متوسطية"، وهو عمل تم إنجازه وينبغي إدراجه في تقرير اليونسكو/الألكسو.

## 2. مجال تطبيق الاستراتيجية الثقافية

### 1.2. تصنيف المستوطنات البشرية

يشمل تطبيق الاستراتيجية الثقافية المقترحة لتأهيل الأحياء السكنية والتجديد الحضري المجالات التالية:

1.1.2. المدينة التاريخية على النحو الذي حدده ميثاق واشنطن (ICOMOS 1987)؛ وهي تضم:

- المدينة القديمة، التي تُعرّف بكونها "تجمّعا تاريخيا أو تقليديا" (اليونسكو 1976) وهي قديمة مقارنة مع:
  - المدينة الحديثة التي بنيت في القرنين التاسع عشر والعشرين في عهود الاستعمار والحماية والانتداب الأوروبية، وهي تضم تراث الحدائق المعمارية والحضريّة.
- وتجدر الإشارة إلى أن المصطلحات المستخدمة في الهيئات المهنية غالبا ما تشير إلى سِمَتِي المركزية والقدم، بالنظر إلى أن المدينة التاريخية تقتصر أحيانا على نواتها التاريخية والأحياء القديمة التي تحيط بها. وبصورة عامة فإن المدينة التاريخية، وهي تتألف من المدينة القديمة والمدينة الجديدة الواقعتين جنبا إلى جنب أو المتداخلتين في بعضهما البعض، ومصنفة عموما كـ "منطقة محمية" في وثائق التخطيط، هي من حيث صيانتها وإدارتها مشمولة بتوصية اليونسكو الخاصة بالمنظر الحضري التاريخي (2011).

على المستوى المجالي، يُلاحظ أن المدن التاريخية تهيكّل، في معظم الحالات، الحركية الحضريّة في الدول العربية

## 2.1.2. المستوطنات البشرية الأخرى

### أ- المناطق الريفية ذات أمط الحياة المستقرة

- السكن القروي والنجوع والدواوير والحارات المشيدة وفق نمط معماري تقليدي،
- السكن في "القصور" والغرف البربرية (بالجنوب التونسي) والقصبات ذات الأشكال المعمارية التقليدية أو التاريخية،
- السكن في الكهوف في السهوب الصحراوية،
- السكن في الضيعات الاستعمارية المبنية بمواد مجلوبة وطبق نمط معماري غربي.

### ب - أراضي البدو الرحل والمناطق الرعوية

سكن المخيمات أو الخيام المنصوبة على الأرض، وهي مشيدات منسوجة.

### ج - مناطق الواحات

السكن المشيد بمواد بناء محلية، خامة أو مُنصَّجة بالنار، وسعف النخيل وجذوعه، طبقاً لأشكال معمارية تقليدية.

### د- السكن العشوائي

يُبنى في الغالب بمواد معادة الاستعمال (أحياء الصفيح) أو بمواد صناعية مثل الخرسانة والآجر والبلوك (أحياء غير مخططة) طبقاً لأنماط معمارية محلية غير مألوفة.

## 2.2. التاريخ المشترك

كان كثير من المدن التاريخية في الدول العربية عواصم لولايات الإمبراطورية العثمانية خلال الفترة 1516-1918، أي لمدة أربعة قرون، باستثناء بغداد التي تم غزوها نهائياً عام 1639 بعد هزيمة الصفويين، وصنعاء التي تم التغلب عليها نهائياً في عام 1872. وبطبيعة الحال، هنالك استثناء كبير للمملكة المغربية التي ظلت محافظة على استقلالها حتى عام 1912، سنة فرض الحماية الفرنسية. وبالنظر إلى أن فترة الحكم العثماني للولايات العربية (إيالات، سناجق)، التي استمرت لمدة أربعة قرون، كانت أطول من الفترة الحفصية في تونس وأطول من الحكم الفاطمي في مصر وحكم المماليك في سوريا، فإن الطابع التاريخي للتراث الثقافي خضع بالضرورة بتأثيرات الإبداعات في مجال العمارة والتخطيط الحضري الذي هو مجال تخصص المهندس المعماري المبتكر سنان باشا وتلامذته من بعده، وهي تأثيرات شملت جميع أنحاء الإمبراطورية فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

ودون الدخول في التحولات العميقة التي عرفها التخطيط العمراني في الولايات العربية خلال القرن التاسع عشر بفضل التأثيرات الغربية، فإن المدن العربية التي نعرفها اليوم تبرهنُ على هذه التطورات، على غرار مدينة القاهرة التي أراد إسماعيل باشا تحويلها إلى باريس مصغرة.

إذا أُريد للثقافة أن تسهم في التنمية الحضرية المستدامة في القرن الحادي والعشرين، يجب وضع هذه التطورات في الاعتبار لتجنب خيبات محاولات المتحفية والتهذيب العمراني.

### 3.2. التناسق الجغرافي

#### 1.3.2. بلاد جنوب وشرقي البحر الأبيض المتوسط

كانت دول المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين ولبنان وسوريا خلال فترة الاستعمار تشكل منطقة جغرافية متناسقة بسبب علاقاتها السياسية التي تعود إلى آلاف السنين، وثقافتها الحضرية، وتبادلاتها التجارية عبر البحر الأبيض المتوسط واستعمالها للغات الفرنسية والإيطالية ثم الإنجليزية. وقد تعزز هذا التناسق الجغرافي من خلال استخدام نفس آليات المحافظة على التراث والتخطيط الحضري المقتبسة في معظمها من النظم الإدارية والتشريعية السائدة في فرنسا وخاصة في منطقة العاصمة باريس.

إن هذا الترابط القانوني والمؤسسي الذي جمع بين هذه الدول العربية قد مكّن من إدارة المدن التاريخية التي كانت، ولا تزال، تشكل البنية الحضرية سواء في المغرب أو المشرق. وتبين دراسة بعض الحالات (ع. قاسو: فاس، و ك. إبراهيم: القاهرة) الدور الحاسم الذي لعبته الدوائر المعنية بالآثار والأوامر والمراسيم الخاصة بالحماية والصيانة المستوحاة مباشرة من القانون الفرنسي.

ونلاحظ حالياً أن معاهد البحوث الفرنسية تكرر حضور الجامعات الفرنسية في بلاد المغرب والمشرق (نذكر بالخصوص الدور البارز لـ URBAMA، و IRMC أو IFPO لاسيما بالنسبة إلى تأطير طلبة الدكتوراه)، وهي بذلك تمثل جزءاً هاماً من التعاون الثنائي.

#### 2.3.2. التجمعات شبه الإقليمية للهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية

لا ينطبق هذا الترابط على بلدان منطقة الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية. وتشكل الأردن والعراق مجموعة شبه إقليمية لها ارتباط متين مع الكويت والسعودية نظراً للطبيعة الصحراوية لأراضيها وأنماط الحياة البدوية الرعوية السائدة فيها. وفي وسط هذه التجمعات الفرعية، توجد مدينتان تاريخيتان تلعبان دوراً رئيسياً: بغداد، عاصمة الدولة العباسية، وجدة، بوابة مكة المكرمة.

- بغداد، هذه المدينة المطلّة على شاطئ نهر دجلة الذي يغذي شبكة استثنائية من واحات شهدت الفتن والغزوات والحروب على نحو مطرد خلال أكثر من ألف سنة، حتى إن هذه العاصمة أصبحت شبيهة بالطرس، أي بالمدينة التي تبعث من جديد باستمرار. (بياري C. Pieri: دراسة حالة بغداد).

وهذا الطابع لمدينة من الماضي ما فتئ يعود للظهور في طرق البناء المتبعة: فالمساكن التي تحفّ النهر، والتي تعاني من الفيضانات المتكررة، والمشيدة في معظمها من الآجر أو الطابوق، هي بطبيعتها هشّة وتتقادم وتتقوض بسبب غياب الصيانة المنتظمة، وبذلك فهي غالباً ما تتعرض للهدم وإعادة البناء.

- جدة، المدينة الساحلية، ومفترق طرق القوافل وباب مكة المكرمة، عرفت هي الأخرى تغييرات عميقة منذ عام 1950 نظراً لزيادة تدفق الحجيج. فمساكن جدة العالية المبنية بالآجر أو بالخشب لم تتحمل ضغط الطلب على السكن من قبل الحجيج وكذلك العمال المهاجرين (س. ريكا S. RICCA: دراسة حالة مدينة جدة).

وبشكل عام، يعود تاريخ نشأة معظم العمارة العامية في البيئات الصحراوية، سواء في العراق أو في الكويت أو السعودية أو دول أخرى في شبه الجزيرة العربية، إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (دراسات ريكا وبينى S. RICCA و D. Pini)، ذلك أن المهارات التقليدية للبناء لم تتمكن من مواكبة التطورات الاقتصادية والاجتماعية في القرن العشرين.

إن اكتشاف حقول النفط في عام 1938 في المملكة العربية السعودية ثم في دول الجوار قد فتح المجال لابتكارات في مجال التخطيط الحضري والمعماري لم تكن معروفة قبل عام 1960، ليس في المملكة فقط بل كذلك في دول عربية أخرى.

وهكذا تم تصوّر منظر حضري جديد من قبل معماريين ومخططي مدن ومهندسين محترفين عالمياً، وإنجازه من طرف شركات هندسة متعددة الجنسيات ذائعة الصيت.

هذا التحديث الخارق وهذه العولمة غير العادية لمُدُن شبه الجزيرة العربية قد ولدا في أقل من نصف قرن حالة حضرية استثنائية لا يوجد لها نظير في المجموعات الجغرافية والتاريخية الأخرى في المنطقة العربية، كما يتضح من دراسات الحالة الخاصة بالكويت وجدة ودبي والعين.

### 3. المضاربات المعمارية والسياسية حول مصير المدن التاريخية

أثارت دراسة الحالة التي أعدتها نعيمة لهبيل التجموعتي عن مدينة فاس جدلا ساخنا بخصوص المضاربات المعمارية والسياسية حول مستقبل المدن التاريخية، فقد استعرضت الحجج المتضاربة لمؤلفين مختصين في التخطيط الحضري هما الأستاذ تريبيون J. F. Tribillon والأستاذ قوسي M. Gossé من المعهد العالي للهندسة المعمارية-لاكامبري ببلجيكا (La) -l'Institut supérieur d'architecture (Cambre).

#### 1.3. المدينة القديمة، "نمط حضري مجرد من الأهلية"

يرى تريبيون J.F. Tribillon، أن المدن القديمة تشكل أنماطا حضرية قد جُردت من أهليتها من قبل الأنماط الحضرية المعاصرة. وحيث إنها تعتبر شكلا من أشكال العمارة العامية، غير المتطورة، فإن المدن القديمة تصبح مجرد قطعة متحفية ينبغي الحفاظ عليها. لماذا؟ "ربما كانت المدن القديمة غير قابلة للنمو لأنها لا تضمن تدفق حركة المرور أو ربط كل مبانيها بشبكة الطرقات"<sup>10</sup>.

وتعتبر نعيمة لهبيل أن أطروحة تريبيون J.F. Tribillon تذكرنا بالطرح الذي قدمه لوكوربوزيه Le Corbusier الذي استنكر بشدة، بل بازدراء، التنظيم الفضائي للمدن القديمة: "تتطلب حركة المرور الخط المستقيم" كما قال في عام 1925. فـ"الخط المستقيم صحي لروح المدن، في حين أن الخط المنحني مدمر لها، لأنه صعب المسلك وخطير، ومُشَلَّ للحركة (...). إن المسلك المنحني هو طريق الدواب، والمسلك المستقيم هو طريق البشر"<sup>11</sup>.

إن التذكير بالأطروحات الاستفزازية لتريبيون J.F. Tribillon أو الكاريكاتورية الصادرة عن لوكوربوزيه Le Corbusier، وفقا لنعيمة لهبيل، يصلح لغاية تعليمية وذلك "بإطلاق صيحة فزع والدعوة إلى التفكير بصدق ووضوح وبدون محرمات".

وفي ضوء المقاربة الفكرية التي بلورتها اليونسكو، علينا أن نتذكر أن مؤرخي التخطيط الحضري يؤكدون أن الاستفزاز والأسلوب الكاريكاتوري ينهران في صلب تيار فكري يقف وراءه مهندسون معماريون يؤمنون بأن الحداثة هي المرجعية الوحيدة لبناء المساكن وتخطيط المدن، وهي حداثة تم التعبير عنها في ميثاق أثينا الشهير الذي صدر عام 1933 على هامش المؤتمر الدولي للعمارة الحديثة (CIAM). وقد بادر لو كوربوزيه Le Corbusier، في هذه المناسبة، إلى الإعلان عن نظرياته الجديدة الرامية إلى إدخال إصلاحات جذرية على المدن القديمة وذلك بتطويعها لكي تواكب "حضارة الممكنة".

J. F. Tribillon, «L'urbanisme». Ed La découverte, Coll. Repères 2009, p 60  
Le Corbusier, Urbanisme, Crès, 1925 11

في عام 1931، اندهش لو كوربوزيه Le Corbusier حين شاهد، وهو على متن الطائرة، منطقة وادي مزاب (الجزائر) وفيها مدن قديمة ذات تشكّل عمراي مخصص كليا للمارة. وعندما عاد لوكوربوزيه Le Corbusier إلى مدينة الجزائر، أعد تصميمًا أطلق عليه تسمية **Plan Obus**: حركة معمارية ضخمة، كما يقال اليوم، تجعل من المدينة مجرد تحفة.

إن هذا المخطط الطوباوي ملفت للانتباه بالضرورة، كما ذكر المهندس والمؤرخ جان جاك دي لوز Deluz في تعليقه عليه: "يضم مشروع Obus جميع أحياء وسط المدينة في مبنى واحد يمتد على عشرة كيلومترات محاط بالمناطق الخضراء بينما يشكّل سقفه الطريق الموصلة إلى جميع أنحاء، وبإمكان كل فرد أن يجد داخل نسيجه الحضري مساحة لبناء مسكنه الصغير كل حسب ذوقه. تبدو نقطة ضعف هذا المشروع في طرحه النهائي لمصير القصبية التي يتم الاحتفاظ بها ولكن يتم التحليق فوقها!". ومضى دي لوز J.J Deluz يقول: "كلما سافرتُ إلى الجزائر العاصمة بالطائرة، تَخَيَّلْتُ بسخرية هذا الثعبان غير العاديّ على طول الخليج. ورغم سخافة هذه الفكرة فإن هذا لا يمنعني من أن أجد المبادرة رائعة. لم يجرؤ أي أحد قط على إدماج العمارة والتخطيط العمراني بمثل هذه الدرجة، وقد بقي هذا الدرس، بقطع النظر عن كونه مفيدا أم غير مفيد، عالقا في ذاكرة بعض المهندسين المعماريين البرازيليين، وآخرين من إيطاليا، على غرار غريغوتي Gregotti"<sup>12</sup>.

هذا الطرح الطريف لهذا المهندس المعماري العبقرى يثير ضمنا سؤالا محوريا يتعلق بالتنظيم الفضائي والتخطيط الحضري: ما عسانا نفعل بالمدينة القديمة وهي تقع في قلب المدينة- الحاضرة التي ما فتئت تتسع؟ هل يجب تجاوزها، أو تجنبها، أو تجزئتها أو اختراقها بطريقة جذرية؟

لقد تم تقديم كل هذه الحلول خلال حقبة زمنية مختلفة، سواء أثناء فترات الاستعمار أو خلال المرحلة الوطنية، في البلاد العربية الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، لأن المدينة القديمة كثيرا ما وصفت بأنها عائق فضائي أو أنها لا تواكب التطورات الاجتماعية، ولم تكف تسلّم أي مدينة قديمة من التجديد الحضري الذي يدعو إليه المهندس المعماري، ناقل الحداثة، والذي يتقبله بكل سهولة رجل السياسة المناوئ للتقاليد<sup>13</sup>.

♦ في حالة فاس على سبيل المثال، يصعب تبرير اختراق الرصيف، الذي شرع فيه في عام 1960، وتغطية وادي بوخروب للسماح بدخول حركة مرور العربات إلى قلب المدينة القديمة، وذلك عبر طريق مسدودة، اقتُحمت في نهاية المطاف من قبل الباعة المتجولين... إن عملية مدّ الطرق، التي اعتمدها المخطط التوجيهي للتهيئة العمرانية لعام 1975، اختراق انتهك سلامة

12 .Deluz Jean Jacques, Alger chronique urbaine, Editions Bouchène, Paris 2001, 244p  
13 Jellal Abdelkafi, « Medinas en devenir », In Marcello Balbo, Medinas 2030, scénarios et stratégies. L'Harmattan 2010

هذه المدينة التاريخية، مدينة الحدائق التي توجد في موقع تلال فريد من نوعه، وصفته نعيمة لهبيل التجموعي بأنه "فضاء للتراث الأصيل نابغ بالحياة، يجرك حتى اليوم إلى عالم الخيال". وهي ترى أن هذه العملية لم تأت نتيجة تخطيط متأن وجماعي، بل انبثقت من إيمان ساذج بحدثة تقدمية مناوئة لتقليد رجعي، وهو إيمان يجتمع فيه المهندس المعماري ورجل السياسة بغاية إنجاز "مشاريع كبرى" وصفها تييري Paquot Thierry، المفكر المعني بالمسائل الحضرية، بأنها رمز "للإفراط في التسمم". وينقل في هذا السياق ما قاله لويس مومفورد Lewis Mumford: "هل إن المدينة تُصمّم، بحسب شكلها ومكوناتها، لخدمة تكنولوجيتها ودعم نموها الاقتصادي؟ هذا في الواقع عكس ما ينبغي أن تكون عليه الأشياء. فللمدينة هدف واحد، وهو وضع تقنياتها في خدمة غاية بشرية (1970)".<sup>14</sup>

وقد واجهت مدينة تونس نفس الوضعية حيث إنها نجت من مشروع اختراق واسع النطاق. فقد قام المهندس المعماري كاكوب O.C.C acoub، الحاصل على جائزة روما الكبرى للعمارة، بتصميم شارع، في عام 1958، كان سيعبر المدينة القديمة من طرف إلى آخر من خلال ربط باب البحر بالقصبة. ولتحقيق هذا المشروع، تم في عام 1961 تنظيم "مسابقة دولية لاختراق القصبة" وذلك تحت رعاية الاتحاد الدولي للمهندسين المعماريين.

ونظرا لأن نتائج المسابقة لم تكن مرضية فقد تم إبطال المشروع، على أنه وقعت العودة إلى موضوع الاختراق من قبل المخططين الإيطاليين كاروني Quaroni ودي كارلو De Carlo، فقد تضمن المخطط المدير لتونس الكبرى الذي تم تصميمه في 1964 ربط مسالك المدينة القديمة بشبكة طرقات العاصمة وذلك ببناء طرق واسعة تشق النسيج الحضري التقليدي. ولكن لم يتم استغلال ما أنجز من ذلك المخطط المدير بسبب اقتحام الطريق المسدودة من قبل الباعة المتجولين.

◆ اقترح المخطط المدير لمدينة دمشق، الذي تم إعداده في عام 1964 من قبل المهندس المعماري إيكوشار M. Ecochard، تهيئة "مساحات هامة تعتبر ضرورية للطابع الجمالي، ولحركة المرور، وللسلامة وللربط مع باقي أقاليم المدينة". وأشار إيكوشار Ecochard إلى أنه كان يتعين إعادة تهيئة حي الجامع الأموي على نحو «يمكّن من تيسير الوصول إلى المعالم التاريخية بواسطة العربات لتمكين الناس من زيارتها»، وأن "تحيط بالمدينة، داخل الأسوار أيضا، طرق رئيسية، ويتم إعادة تأهيل أماكن محددة لتهيئة مساحات صغيرة ومناطق لوقوف السيارات". وهي طريقة أخرى لمسخ التراث العمراني...

◆ وقد كان لـ "نظرية إيكوشار Ecochard" وقع على المدى الطويل، حيث إن مشروع اختراق

الضاحية الشمالية لدمشق قد دفع باليونسكو في سنة 2006 إلى إجراء تقييم للمخاطر على هذه المدينة التاريخية المسجلة على قائمة التراث العالمي. وقد بذل الخبراء الذين عينتهم اليونسكو قصارى جهدهم للإقناع بأن ضاحية دمشق ومدينتها القديمة يشكلان كلاً لا يتجزأ، وأن النسيج التاريخي سواء داخل الأسوار أو خارجها، هو شهادة فريدة حول التنظيم الفضائي والأنشطة الاقتصادية والديناميكية الاجتماعية (اليونسكو، D. Pini, F Miglioli, 2007).

◆ كما تخضع القاهرة القديمة لضغوط متزايدة ناتجة عن حركة المرور إذ يشير كريم إبراهيم وزملاؤه إلى أن الطريق السريعة التي بنيت فوق شارع الأزهر في أوائل الثمانينيات لتسهيل حركة المرور من الغرب إلى الشرق، عبر المدينة القديمة، لم تحل المشاكل الخاصة بالوصول إلى سوق خان الخليلي والمستودعات والورش والصناعات الصغيرة التي تضمها المدينة التاريخية. وفي عام 2000، تم بناء نفق على نفس المحور، وذلك بغية إعادة ربط مناطق النسيج التاريخي المقسمة، إلا أنه تم الإبقاء على الطريق السريعة المرتفعة".<sup>15</sup>

### 2.3. المدينة القديمة "شكل حضري مستقبلي"

لقد تبين أن تطويع التراث العمراني لحضارة المكننة، على ما كان يريده لو كوربوزيه Le Corbusier، هو مجرد طوباوية مربكة ذات مردود عكسي، كما يقول المهندس المعماري ديلوز J. J. Deluz. ففي ثانياً ميثاق أثينا، لم يتمكن المهندسون المعماريون المنظرّون من تحسين التنظيم الفضائي أو الوظيفة الحضرية، على غرار إيكوشار Ecochard الذي كان يطمح إلى تمكين حركة المرور من الوصول إلى قلب المدن القديمة والمدن الجديدة التي كانت قد أنشئت جنبها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وكلما جرت محاولة في هذا الشأن، كان مردود التجديدات الحضرية سلبياً لأن كل ما حققته في النهاية هو تجزئة مواقع تراثية ذات وظائف اجتماعية وثقافية متكاملة.

ويؤكد البرنامج الجديد للتحضر لما بعد 2015 الذي وضعته اليونسكو على ضرورة "تكييف نماذج التخطيط من أجل حماية التراث العمراني والحفاظ عليه".

وهذا ما لاحظته نعيمة لهبيل نقلا عن غوسّي M. Gossé أستاذ الهندسة المعمارية في لاكامبري الذي يرى أن "المدينة القديمة، مثلما شكلتها التقاليد العربية والإسلامية، قادرة فعلا على أن تصبح نموذجا لتخطيط عمراني معاصر، شريطة إعادة تأهيلها وتحديثها بما يتلاءم مع الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في عصرنا"

لقد تناول المهندس المعماري والمدير السابق لبرنامج المدن التاريخية لمؤسسة آغا خان للثقافة (AKTC) ستيفانو بيانكا Stefano Bianca مسألة "إعادة الإدماج والتحديث" هذه، وطرح إشكالية تطور التيارات الفكرية الخاصة بالتخطيط الحضري وأساليب التخطيط. ويلاحظ بيانكا S. Bianca أن "الأنماط المعمارية والمخططات الحضرية المستخدمة حاليا ليست تقليدية بالكامل أو حديثة بالكامل. هذه الحداثات الأصلية الناشئة" (الهند، مصر، شمال أفريقيا، أمريكا الجنوبية) هي تعبير عن هذا التأويل من قبل "سكان العالم الثالث الذين يميلون إلى استيعاب عناصر الثقافة الغربية الحديثة (ويتم ذلك في بعض الأحيان بصورة سطحية أو مشوهة). وبالرغم من ذلك، فإن هذا الثقافة يظل متجذرا في التعبير العامي والشعبي، والذي لا يمكن أن يُدرك بالاستناد إلى المعايير الرسمية لحداثة غربية مطلقة".

يثير بيانكا S. Bianca معضلة "الصون الأصيل" و"التخطيط الوظيفي". هذه المعضلة، التي يعيها جيدا المهندسون المعماريون ومخططو المدن، جديرة بالدرس والبحث لضمان تطوير نماذج التخطيط الفضائي والحضري في العالم العربي الذي يبدو أنه قد اقتصر على الإجراءات التنظيمية وحدها، دون الأخذ بعين الاعتبار "مبادئ التنمية المستدامة التي كانت متاحة في المدن القديمة قبل اعتماد هذا المفهوم في ريو دي جانيرو عام 1992".

يذكر غوسّي M. Gossé، كما أوردت نعيمة لهبيل، بأن المدينة القديمة لديها سمة أساسية يصعب على المدن الحديثة توفيرها لسكانها، وهي التمازج. إن طبيعة المورفولوجيا العمرانية وأنماط السكن في المدينة القديمة تجعل التمازج الاجتماعي، والجيلي، والوظيفي ممكنا. ذلك أن المدينة القديمة تتميز بالكثافة والاندماج، فضلا عن كونها تشكل منطقة خاصة بالمارة بعيدة عن التلوث الناجم عن استخدام السيارات.

لو نظرنا من زاوية التنمية المستدامة، فإنه بإمكان المدينة القديمة، بوصفها نظاما بيئيا حضريا، أن تكون، حسب روبر M. Robert، نموذجا للعمران في المستقبل<sup>16</sup>. ... طوباوية أم واقع؟

#### 4. تحديد المدينة العربية وممارسات التخطيط والتنمية

إن المضاربات، التي تم الحديث عنها سابقا، وذكر أنها تفترض تواطؤا ضميا بين المهندس المعماري والسياسيين، طالما أعاقت (وما زالت تعيق أحيانا) عملية تحديد المدينة العربية وترتك ممارسات التخطيط الفضائي والتنمية الحضرية.

إن المسار الفكري الرامي إلى تصحيح المفاهيم يساعد الأوساط الجامعية على فهم أدق للظاهرة الحضرية التي تمثلها المدينة القديمة وإعادة اعتبارها "وثيقة تاريخية".

#### 1.4. المدينة القديمة، نموذج أصلي للمدينة العربية والتخطيط التقليدي

أطلق الجغرافيون تسمية المدينة القديمة على المدينة العربية مقارنة بالمدينة الجديدة التي شُيدت إلى جانبها منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهي تمثل، من وجهة نظر تاريخية، ظاهرة حضرية فريدة وأصيلة منبثقة من الثقافة العربية والحضارة الإسلامية.

♦ إن المدينة القديمة فريدة من نوعها بالنظر إلى أن شكل المدينة وتنظيمها الداخلي ليس لهما نظير في السابق. وحسب فرانسواز شواي Choay Françoise، "لا يخضع إنجاز مساحات المدينة لأي نص توجيهي"<sup>17</sup> وسوى لاحترام الجماعة المؤمنة لمفهوم "الحرم"، مما يجعل المدينة القديمة تحدد المقدّسات والمحظورات، فتولّد، دون الرجوع إلى أية قواعد مدونة أو أي رسم محدد سلفا، مساحات مغلقة، منكفئة على ذاتها ومحجوبة عن الأنظار. وهذا ينطبق على "حرم الدار" أي جزء البيت الذي لا تنتهك حرمة، وهو المكان الذي يُستترّ فيه عن الأنظار حياءً. فإذا تم الاعتراف بهذا المبدأ للخصوصية كمؤسس للفضاء الأسري، ندرك أبعاد الأصالة التي تتميز بها المدينة القديمة. ونظرا إلى أن البيت لا يفتح نوافذه على الشارع، وأن الفضاء المنزلي الداخلي يحظى بحماية فائقة، فإن الأزقة والطرق المسدودة تظل مجرد فضاء إضافي يستخدم وفقا لما يراه السكان بالتوافق بينهم. فهو لا يعتبر فضاء عاما<sup>18</sup> تسيطر عليه مؤسسة عمومية، بل هو، على العكس من ذلك، يقع تحت سلطة الحاكم الذي يتكفل بمهام التحكم فيه من خلال تفويض للسلطة وصلاحيات فرضها. وفي حالة قيام نزاع بين الجيران (فتح نافذة في مكان غير لائق أو الزيادة في ارتفاع مبنى بما ينتهك مبدأ الخصوصية)، تحال الخلافات على القاضي الذي يحكم وفقا لنظام الحِسبة في الإسلام.

17 - 30 - 31 F. Choay, La règle et le modèle sur la théorie de l'architecture et de l'urbanisme, Seuil 1980. p. 30 - 31

18 استخدم مفهوم الفضاء العام في التخطيط الحضري منذ عهد قريب نسبيا، ومع ذلك فإننا لا نجد تعريفا دقيقا له. ويمكن اعتبار الفضاء العام جزءا من الممتلكات العامة غير المبنية المخصصة للاستخدام العام.

لقد دَرَسَ Robert Brunschvig النظامَ القانوني للإدارة الحضرية في المدن العربية روبرار برنشفيك الذي بيّن أن التنمية الحضرية لا تحدث بالصدفة بل تخضع لقواعد التشريع الإسلامي<sup>19</sup>.  
أما فيما يتعلق بطرق تطبيق التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية (اليونسكو 2011)، فإن الألكسو مدعوة إلى أن تأخذ في الاعتبار أنه لا يحق لأيّ قوانين في مجال التخطيط الحضري التغاضي عن أسس التشريع الإسلامي التي تحدد شروط الجوار.  
وعليه، فإن المورفولوجيا الحضرية وأصناف السكن تخضع لقواعد مستوحاة من عمران تقليدي لا يستمد مبادئه من إملاءات المثل أو عفوية التطور ولكن من مبدأ احترام الخصوصية الذي يسمح بتصميم الفضاء وفق الأحكام الشرعية والتقاليد السائدة.  
وعلى الرغم من أن المدينة القديمة لا تتضمن فضاء عاما، بالمعنى السياسي والقانوني المتداول في الغرب الحديث، فإن هيكله نسيجها الحضري تتشكل من الأسواق والجامع الكبير، الذي يوجد في قلب مجمّع الأنشطة الحرفية والتجارية التي كانت تنصهر ضمن تعاونيات مهنية تدار من قبل أرباب الحرف والصنائع. وكانت الأسواق، التي لها مداخل محروسة، تكوّن في كثير من الأحيان تجمعات معمارية ضخمة، تتوزع بوجودها المدينة إلى أحياء سكنية متجانسة اجتماعيا.

#### 2.4. المدينة القديمة، تراث حضري في تطور و/أو في تحول

إن تقديم المدينة القديمة كنموذج فريد وأصلي، إذا ما تم لأغراض التحليل، يهدف أساسا إلى تحديد سمات النموذج الحضري وتسهيل إدراك فهمه، وتجنب المضاربات التي تزيد قيمة المدينة أو تقلل منها. وباختصار، فإن المقاربة النمطية تدرك حدودها أمام تنوع الحالات، ولا يمكن لها أن تحل محل التاريخ الفريد الذي واكب تأسيس كل مدينة من المدن التاريخية أو أنماط تطورها، وهي أخيرا لا تحل محل عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في السياق السياسي الخاص بكل بلد من البلدان العربية. وترمز المدن القديمة، التي يستهدفها مشروع الصون المعماري المعاصر، إلى نهاية تطور تاريخي حدّد معالمه دخول العثمانيين إلى الأراضي العربية.

#### 1.2.4. آثار التغيرات والتحويلات الاجتماعية والاقتصادية

سواء في فاس أو الجزائر أو تونس بالنسبة إلى شمال أفريقيا، أو طرابلس لبنان بالنسبة إلى منطقة الهلال الخصيب، أو القاهرة بالنسبة إلى وادي النيل، أفرزت الحركات السكانية في كل هذه العواصم، وفي معظم الحالات، كل وفقا لمنطقها التاريخي، حركات اجتماعية واسعة وإعادة تركيب أنثروبولوجي.

<sup>19</sup> Robert Brunschvig, « Urbanisme médiéval et droit musulman », in Revue des Etudes Islamiques, 1947

◆ في الجزائر، التي عرضت كدراسة حالة من قبل الأستاذ حليم فايدي، كان لدخول الجيش الفرنسي إلى القصبة، في عام 1830، أثر فوري حيث تسبب في هجرة أكثر من نصف سكان المناطق الحضرية نحو القرى الداخلية (قدر أندري رايون A. Raymond عددهم بحوالي 30000 نسمة لمدينة تبلغ مساحتها 47 هكتارا). لقد "تم استبدال سكان القصبة الذين كانوا موالين للسلطة العثمانية بمجموعات من القبائل، ولم تسترجع مدينة الجزائر الحجم الذي كان عليه سكانها قبل الاستعمار إلا في عام 1900". وفي عام 1962، عند الاستقلال، انتقلت الأسر الحضرية إلى الأحياء الأوروبية. وتم استبدالها بدورها بمهاجرين قادمين من الريف.

◆ في عام 1912 تم التخلي عن مدينة فاس كعاصمة للمغرب لفائدة الرباط عاصمة الحماية الفرنسية. وقد شهدت فاس تحركات سكانية مكثفة، وذلك تحت وطأة التاريخ الاستعماري وتطور الرأسمالية وبفعل التنمية الاقتصادية الضخمة التي عرفتها الدار البيضاء، مدينة المستقبل، أو "المدينة العالم" كما وصفها مؤرخ الهندسة المعمارية جون لويس كوهن Jean Louis Cohen.

◆ في طرابلس لبنان، حاول الأستاذ مصباح رجب الوقوف على التركيبة السكانية المتغيرة لهذه العاصمة الإقليمية اللبنانية، مع الأخذ بعين الاعتبار التقسيمات الإدارية المتقلبة. وتظهر نتائج التقييم الأول (غوليك 1967 Gulick) أن عدد السكان تضاعف ثلاث مرات بين 1850 و1900، وذلك من 5000 إلى 15000 نسمة. وبداية من عام 1900، أخذ النمو السكاني في التسارع مع اتساع مجال هذه البلدة الصغيرة ليلعب عدد سكانها في عام 1952 أكثر من 100000 نسمة. وفي عام 2000، أجرى مجلس التنمية الإقليمية تعدادا لسكان المدينة القديمة في حدودها التاريخية، وقد بلغ عدد السكان 16528 نسمة موزعين على 3053 وحدة سكنية، أي بمعدل 5.4 أفراد في كل أسرة. وباختصار، فإن عدد سكان مدينة طرابلس التاريخية في عام 2000 ظل كما كان سنة 1900، أي حوالي 15000 نسمة. ويُستنتج من ذلك أن النمو السكاني كان قد وقع خارج أسوار المدينة التاريخية. وعليه، يجب أن تأخذ عملية الصون والتجديد الحضري في الاعتبار كامل هذا المجال، أي المناظر الحضرية التاريخية مجملها.

وتعرض دراسات الحالة التي أعدتها الألكسو النمو الديموغرافي والحركات الاجتماعية ووتيرة التمَدّن حسب المراحل التالية:

## 1830 - 1930: فترة نمو سكاني بطيء وتحضر تدريجي في عهد الاستعمار

- نهاية تطور المدن القديمة كواقع حضري في فترة ما قبل الثورة الصناعية، وما قبل الرأسمالية، وما قبل الاستعمار،
- فقدان الوظائف والصفات والرموز التي كانت تضي على المدينة القديمة نموذج المدينة العربية المنظمة،
- نشأة المدن الاستعمارية الجديدة إلى جانب المدن القديمة،
- في الجزائر: بناء دار الشؤون الأهلية من قبل السلطة الاستعمارية (كلارو Claro، مهندس معماري) "لإظهار القوة، والسيطرة على الذاكرة على نحو أفضل" (جوردي وبلانش Jordi et Planche 1999)،
- المعرض الدولي الكولونيالي في باريس، والمؤتمر الدولي حول التخطيط العمراني في المستعمرات،
- أعرب المهندس المعماري هنري بروس Henri Prost، كبير المهندسين المعماريين لدى الحكومة، عن قلق المهنيين قائلا: "في الجزائر: القصة مكتظة، كل مناطق السكان الأصليين مكتظة بكثافة لا تحتمل، وفي الضواحي البعيدة، تتشكل تجمعات سكنية عشوائية تتألف من ملاجئ غير مستقرة، خارجة عن رقابة البلديات. هؤلاء الناس شجعان ولكنهم فقراء. فما هي السبل الكفيلة بإنشاء أحياء جديدة لهؤلاء الناس دون الزيادة في تكاليف معيشتهم" (1931).

## 1930 - 1980: تسارع وتيرة النمو السكاني والهجرة من الريف إلى المدن

- هجرة أسر الطبقة البرجوازية التقليدية من المدينة القديمة إلى ضواحي المدينة الجديدة،
- مغادرة البيوت ذوات الفناء التي أصبحت تؤجر غرفة غرفة من قبل أصحابها،
- انتشار الأكوخ بالمدينة القديمة على يد أسر الفلاحين العاطلين عن العمل،
- تعايش العديد من العائلات الفقيرة تحت نفس السقف في البيوت ذوات الفناء مع سوء التغذية والأمية، وعدم النظافة.
- "لم تعد المدينة المفقرة و"المكوخة" سوى "مدينة خارج المدينة" وأصبحت مهمشة حضريا" على حد تعبير الجغرافي بيير جورج (Pierre George) 1952.

## 1980 - 2010: فترة التحول الديمغرافي والحركة الاجتماعية داخل المناطق الحضرية والمناطق المحيطة بها:

- مغادرة مهاجري الجيل الأول، الذين كانوا قد ربضوا في المدينة القديمة، باتجاه الأحياء السكنية العشوائية أو التجمعات غير المنتظمة،
- إحراز هؤلاء على ملكية مساكنهم والتي كانت في حالات عديدة من تشييدهم المباشر،
- استُخدمت المدينة القديمة المهجورة كفضاء انتقالي من طرف الأولياء قبل الاندماج النهائي لأطفالهم في النسيج الحضري.

#### 2010 - 2030: احتمال انخفاض النمو الديموغرافي واستدامة حالة التكوخ

- تركز البؤس الاجتماعي في المدينة القديمة بانتشار الأكواخ التي تأوي سكانا يقل دخلهم عن خط الفقر ومستقبلهم مجهول،
- تضاعف عدد المباني المتداعية إلى السقوط والتي ينتظر أصحابها هدمها للاستفادة من قيمة الأراضي التي تقع عليها.

#### 2.2.4. تقادم العمارة المحلية التقليدية

تجد فنون العيش والتطلعات الجمالية لسكان الحضر، سواء في المغرب أو في المشرق، تعبيرا ملموسا عنها في نمط البيت التقليدي ذي الفناء، وهو يمثل بامتياز نموذج العمارة المحلية التقليدية. فإلى حدود منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، كان البيت ذو الفناء يشكل نمط السكن المرجعي، بما أنه يتلاءم مع متطلبات الأسرة الممتدة وإيقاعات الحياة في المدن. وهكذا كانت المدينة العتيقة تشكل تراثا عمرانيا حيا للأسر الممتدة التي كانت تنسج روابط اجتماعية في المناطق المجاورة لها (الحومة). لقد تناول نجيب محفوظ، بإبداع، وصف الحياة اليومية في أحياء القاهرة في روايته بين القصرين التي صدرت باللغة العربية في عام 1957 (وتُرجمت إلى الفرنسية سنة 1987). إن قراءة متأنية لهذه الرواية تُبرز التقلبات الاجتماعية التي حدثت على مدى حوالي ثلاثين عاما والتي تتلخص سماتها البارزة فيما يلي:

- نشأة وتطور الطبقات الوسطى التي تتمحور حول الزوجين والأطفال، مقابل تراجع في عدد الأسر الممتدة من وجهة نظر ديموغرافية،
- تغير في الأنماط العلائقية بين الزوجين، فالزوجة أصبحت تعمل، والأطفال يذهبون إلى المدرسة. وقد استدعى هذا التطور شكلا جديدا من الهندسة المعمارية المحلية، أي أن تكون للمسكن مواصفات وظيفية تلائم الوضع الجديد. ذلك أن المسكن ذا الفناء يطرح بعض المشاكل المناخية الكبيرة إذ يصعب العيش فيه بسبب البرد والمطر. فالفناء المفتوح على السماء يكون لطيفا في الصيف دون شك، بينما يصبح الأمر مختلفا تماما في فصل الشتاء.

إن العيش في منزل داخل حي سكني لا تتوفر فيه وسائل النقل العام من شأنه أن يسبب صعوبات فيما يتعلق بتنقل الزوجين للذهاب إلى العمل والتحاق الأطفال بالمدرسة.

ونتيجة لذلك، فإن الأسر العادية ذات الدخل المتوسط، تلك التي لديها قدرة على دفع الإيجار، لم تعد تفضل العيش في المدينة القديمة، لأنها لا تجد مبتغاها في البيت ذي الفناء التقليدي الذي لم يعد يفي بمعايير الأداء الوظيفي ولا يوفر أسباب الراحة. وعلى الرغم من كون المدينة القديمة تشكل مجمعا تاريخيا، فإنها ظلت مهمشة في محيطها الحضري حيث إن أنظمة النقل العام لا تضمن للسكان فيها وسائل النقل من بيوتهم إلى مقر عملهم.

وهكذا فإن الأسر التي تقطن المدينة القديمة لا تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، وإنما هي أسر فقيرة ومحرومة نوعا ما، وترضى بالعيش المشترك في مسكن وضعه متدهور لم يعد المالك يأبه بصيانتته نظرا إلى أن مستوى الإيجار لم يعد يغطي تكاليف الصيانة.

#### 3.2.4. الوضع العقاري

من المؤكد أن المسائل المتعلقة بالأوضاع العقارية تجعلنا نشعر بمدى تأثير القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية وثقل التقاليد التي تؤدي آثارها المجتمعية إلى تجميد أوضاع الملكية. وقد أصبح هذا الوضع الذي كان مصلحو القرن التاسع عشر يدركونه جيدا "هاجسا استحواذيا" كما يتضح ذلك من خلال الدراسة التحليلية لمدينة فاس التي قام بها الأستاذ محمد عامر<sup>20</sup>. وتنطبق الأوضاع الموصوفة في فاس على جميع البلاد العربية تقريبا.

وبإيجاز، فإن الوضع القانوني للممتلكات الأثرية في المدينة القديمة غالبا ما يكون خاضعا لنظام الملكية الشائعة، وعدد المستحقين في الازدياد بالنظر إلى تكاثر الورثة. ويعني هذا أنه، وعلى الرغم من أن قيمة العقار تتآكل في السوق بسبب خضوعه لنظام الملكية الشائعة، قد تبقى هذه الوضعية القانونية على حالها ما دام الخلاف قائما بين الورثة. ولذلك يُشترط الخروج من نظام الملكية المشتركة لاستعادة جزء من الخسارة المسجلة في قيمة العقار. لكن ذلك ليس بالأمر الهين: فمن بين المستحقين من يحدد اللجوء إلى القسمة الفعلية، مما قد يتسبب في نزاع دائم مع الأطراف التي لم تثبت ملكيتها أو تلك التي لا يُقرأ لها حساب في القسمة. وهناك من يرفع دعوى قانونية، يطول أمدها وتتطلب بذل جهود مُضنية، مما يستدعي موارد مالية لتغطية أتعاب المحاماة.

ومهما كان الأمر، فإن تحرير السوق العقارية وإزاحة القيود عن المعاملات الخاصة بها سيحدد مصير المدن القديمة، ذلك أن المملك العقاري، في غياب الحلول القانونية، سيتدهور تدريجيا وربما يؤول إلى الخراب، وهو ما يعود بالمضرة على الأفراد المتشاركين في الملكية، والمستأجرين، والمجتمع العام الذي يواجه التحديات الناجمة عن "تكويخ" السكن.

وفي ظل هذه الظروف الخاصة بالمدينة، فإن اتخاذ التدابير القانونية والمالية التي تسمح بالنهوض العقاري لفائدة الإسكان، سواء كان اجتماعيا أم لا، يبدو صعبا للغاية. وكما أشار الأستاذ قاسو بخصوص المغرب والأستاذ إبراهيم بخصوص القاهرة، فإن المؤسسات المسؤولة عن الأوقاف تلعب دورا مهما في صون التراث وإدارته، ولكنه من الصعب إشراكها في عملية التخطيط الإداري والقانوني. فضلا عن ذلك، فإن الدوائر الحكومية تتجنب اللجوء إلى إجراءات نزع الملكية لتسوية الأوضاع العقارية.

يقول جونيشيرو تانيزاكي Junichiro Tanizaki في "الثناء على الظل"<sup>21</sup>: "لا بد لمن يروم في يومنا هذا بناء بيت على الطراز الياباني الأصيل، وهي عمارة من أروع ما تكون العمارة، أن يتوقع حصول العديد من النكسات من جراء إيصال التيار الكهربائي والغاز والماء إلى هذا البيت. ومهما كانت خبرة المرء متواضعة في مجال البناء، فإنه يكفيه أن يدخل قاعة استقبال في مسكن أو في مطعم أو في نزل تقليدي لكي يدرك مدى الجهد الذي من الضروري بذله لإدماج هذه التجهيزات على نحو متناسق في غرفة ذات طراز ياباني". (ص 15) ويضيف "كلما زرت معبدا ما في كيوتو أو نارا وأرشدت إلى المسلك المؤدي إلى بيت الراحة التي بنيت بالطريقة القديمة، وهي شبه مظلمة لكنها في غاية النظافة، غمرني شعور قوي بالجودة العالية النادرة التي تتميز بها العمارة اليابانية". (ص 19)

ويقول المؤلف نفسه (جونيشيرو تانيزاكي) في روايته "حب أحرق" التي ترجمها من اليابانية إلى الفرنسية مارك ميكريان Marc Mécréant مع مقدمة لألبارتو مورافيا ونشرتها Gallimard 1991: "الكل يعلم أن المأساة التي عاشتها اليابان، ولا تزال تعيشها اليوم، هي محاولة تخريبها بنسق متسارع منذ منتصف القرن التاسع عشر. وقد كان المآل الذي صار إليه هذا التخريب، على عكس ما جرى في بلدان العالم الثالث، إيجابيا في النهاية، فقد أصبحت اليابان، هذا البلد الإقطاعي الصغير، خلال فترة لا تتجاوز القرن، قوة عالمية. ولا يخفى على من له دراية باليابان أن الحضارة اليابانية لم تتمكن من تحمل صدمة "بربرية" الحضارة الغربية (...). وفي حين تحرز الأمة اليابانية النجاحات تلو الأخرى، فإن الفرد الياباني يعاني اليوم من تفكك انفصامي غير متوازن بين موروث تقليدي أصبح شكليا ومفرغا من محتواه وحدائه مبتذلة ومستعارة. فتعامل اليابان في واقع الأمر لم يكن مع الغرب، بل مع التخريب، ولم يكن

من ذلك سوى آثار فورية مدمرة. ومن بين تلك الآثار نشاهد ولادة ميل لجهوية أنانية وبغيضة، تتضمن شعورا بالنقص وتمثيلية إيمائية سطحية وتقاليد ذات طابع خاص في طور التلاشي".

## 5. الشرق إزاء الغرب، المرأة المزدوجة للثقافة العربية المعاصرة

تساءل مثقفو العالم الثالث خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي عن دور الثقافة في عملية إنهاء الاستعمار. ففي عام 1951، ألقى الأنثروبولوجي ميشال ليريس Michel Leiris كلمة أمام اليونيسكو حول موضوع العرق والحضارة. وفي عام 1964 علق جاك بيرك Jacques Berque في بيروت على تصفية الاستعمار في المغرب والمشرق بقوله: "لقد التحق العرب بموكب الإنسانية جمعاء نتيجة العنف الذي عانوه أو مارسوه. وهذا هو مدلول تحررهم السياسي، أو بالأحرى المقصود من تطورهم الفكري والاجتماعي. كل أمة، أو بتعبير أدق، كل ثقافة، تقف اليوم أمام خطاب مزدوج يتمحور حول خصوصيتها وكونيتها من جهة، وأصالتها وصوريتها من جهة أخرى".

انعقد "مؤتمر هافانا حول الثقافة" في الفترة من 4 إلى 11 يناير 1968، وعرض ميشال ليريس Michel Leiris خلاله أفكاره حول "دور البحث العلمي والدراسات السوسولوجية والإبداع الفني في تشكيل ثقافة البلاد الخارجة من التخلف"، مشددا على مفارقة البلدان التي "لا تزال متخلفة" على الرغم من كونها أحرزت استقلالها، داعيا إلى العمل من أجل التحرر وإنشاء "ثقافة لإنسان غير مستلب الهوية"<sup>22</sup>.

في خضم هذه المساعي الهادفة إلى إنهاء الاستعمار في المغرب والمشرق العربيين، وتحرر العرب وانعتاقهم من الاستلاب، كيف أمكن تناول مسألة الثقافة الحضارية و"السكن القديم والمدن الجديدة وأحياء الصفيح" كما جاء في الصيغة المعبرة التي أوردها جاك بيرك<sup>23</sup>؟

وردت الإجابة عن هذا السؤال من قبل مجموعة من الأكاديميين من ضفتي البحر الأبيض المتوسط التقوا في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس، وذلك للمشاركة في مناقشات متعددة التخصصات حول المجتمعات العربية، بعنوان "المدن"، بقيادة فرناند بروديل Fernand Braudel<sup>24</sup>.

كان لهذا الحدث الفكري المتميز حول تشكّل الثقافة العربية المعاصرة، كما يراها مثقفون غالبا ما شاركوا في المساعي الرامية إلى تصفية الاستعمار- والذين شهدت مواقفهم، ولا تزال، انتشارا في جميع أرجاء العالم العربي- أصداء في المجالات السياسية والإيديولوجية وخاصة حينما طُرحت مسألة الاستشراق من قبل إدوارد سعيد: "أردت من خلال الاستشراق الاستناد إلى النقد الإنساني لفتح مجالات الصراع

Michel Leiris, Cinq études d'ethnologie, le racisme et le Tiers Monde. Unesco 1951, Editions Gauthier - méditations 1969 22

Jacques Berque, « Médinas, villes anciennes et villes nouvelles », Cahiers de Tunisie - IHE Tunis N°21 - 22, 1958, pages 7 à 42 23

EPHE, 6<sup>ème</sup> section « Les villes » entretiens interdisciplinaires sur les sociétés arabes 18 -20 février 1958 Cahiers à tirage limité ronéoté. 197 pages 24

المحتملة، (...). فمن خلال هذه النزعة الإنسانية كان مقصدي الأول تحرير العقل من قيوده لتوجيهه نحو تفكير تاريخي وعقلاني. إن ضمان استدامة الإنسانية يتم عن طريق الإحساس بانتماء جماعي إلى باحثين آخرين ومجتمعات أخرى وفترات أخرى، إذ لا يمكن أن تظل الإنسانية معزولة عن العالم. فكل مجال يرتبط بالمجالات الأخرى كافة ولا يمكن لأي شيء يحدث في عالمنا أن يبقى معزولا ونقيًا من أي تأثير خارجي. يجب أن نعالج الظلم والمعاناة، ولكن في سياق مترسخ الجذور في عمق التاريخ والثقافة والواقع الاجتماعي والاقتصادي، ذلك أن دورنا يتمثل في توسيع مجال الحوار (...). كل من له فكر إنساني عميق (...) مطالب دوماً ببذل جهود جادة في عمق نفسه لكي يترك مكاناً يتسع لأجنبي آخر".<sup>25</sup>

وقد حدد هنري لورنس Henry Laurens في محاضراته الافتتاحية في الكوليج دي فرانس Collège de France بتاريخ 11 مارس 2004 مقاصد الجدل حول الملابس التي جعلت الغرب يخلق مفهوم الشرق لغايات إمبريالية بقوله: "يبدو أنه يتم التسويق للهيمنة المفروضة من الخارج من خلال خطاب يجعل من المجتمعات العربية والإسلامية كيانات جامدة في جوهرها، ويتوقف نجاحها المستقبلي على تدخل خارجي تطوعي يتكفل بإعادة وضعها في الاتجاه الصحيح للمسار التاريخي المُحدّد من قبل جهات أخرى. وتُطبّق هذه المقاربة ذاتها على اختصاصات منسوبة إلى الشرق تدعي الاستحقاق العلمي..."

وفي ختام هذا الجدل أشار هنري لورنس Henry Laurens إلى أنه "في أغسطس 2003، أي قبل وفاته بقليل، كان إدوارد سعيد قد أعرب عن رفضه المتعنّت لقبول فكرة الصراع بين الغرب والشرق، وقد كان ذلك بمثابة وصية فكرية أوردتها في سياق الغزو العسكري للعراق من قبل القوات الأنجلو-أمريكية"<sup>26</sup>.

وعليه، يتعين على تقرير اليونسكو/الألكسو حول "دور الثقافة في التنمية الحضارية المستدامة" أن يدرج، في سياق طرحه للأفكار التي ستعرض على مؤتمر الموئل الثالث، إسهامات الاستشراق في الفنون والآداب والتاريخ والأنثروبولوجيا والعمارة والتخطيط الحضري إلخ ...

ومع ذلك ينبغي الحرص على توجيه الاهتمام إلى ما لاحظته سيميو- فرايتو Sidonie Semieux - Fraitot - في قولها إن "الشرق يظل أسطورة في المخيلة الأوروبية. فالمشرق يحيل إلى لفظ orior باللاتينية، الذي يشير إلى معنى الطلوع، والولادة، والبدائية، وقد كان دوماً مدعاة لافتتان سكان البلاد التي تختفي فيها الشمس، ألا وهي الغرب"<sup>27</sup>.

يُستشفّ هذا الافتتان القديم بالمشرق وهذا الانجذاب إلى بلدان الإمبراطورية العثمانية، على

Edward Saïd, *L'orientalisme, l'Orient créé par l'Occident*, Paris, Seuil 1980 préface 2003 25

Henry Laurens, *Histoire du monde contemporain*, Collège de France, Fayard 2004 26

Sidonie Semieux - Fraitot, *L'orientalisme, citadelles et Mazenod*, Paris, 2015 27

الرغم من النزاعات والحروب المتكررة التي خاضتها مع الدول الأوروبية، من خلال سلوكيات اجتماعية برزت كموضة خلافة: فالانبهار المفرد بنمط العيش الشرقي/ التركي (Turcomania) وصل إلى درجة أن نخب الطبقات الراقية في الغرب أصبحت ترتدي الزي العربي وتسكن بيوتا ذات طراز مغربي، وتعيش محاطة بأثاث من صنع سوري أو مصري... وقد انتشرت هذه الموضة بفضل ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة من قبل أنطوان غالان Antoine Galland سنة 1704 وهو ما أشعل الخيال الأوروبي. وتدور أحداث مغامرات أبطال وبطلات قصص ألف ليلة وليلة في مدن غريبة رائعة، حيث يسكن العرب قصورا ضخمة ذات عمارة شقافة وغرف هادئة، تبرزها البرك والنوافير، وتزيئها الحدائق المزهرة...

إن هذا التصور للمدينة، بقصورها وبيوتها وأسواقها وفنادقها ومساجدها الضخمة، المستمد من هذا الجنس الأدبي، شاع في الغرب والشرق على السواء، إلى درجة أن الحقائق التاريخية والاجتماعية أصبحت غالبا ما يشوبها استشراق ترعرع في فترات لاحقة، كما يشهد على ذلك الميئل إلى اعتماد تصاميم وزخارف العمارة العربية (arabesque) الذي ظهر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين...<sup>28</sup>.

وقد استمر هذا التأثير إلى يوم الناس هذا كما يتضح ذلك من منح جائزة غونكور Prix Goncourt 2015 إلى ماتياس إينارد Mathias Enard تقديرا لروايته "Boussole" (البوصلة)، وهي رواية متعمقة حول الشرق، يروم المستشرقون، سواء كانوا أكاديميين أو مغامرين، الغوص فيها بحثا عن الشعر والموسيقى، وعن علم الآثار والهندسة المعمارية، وعن تاريخ المدن وأنماط حياة سكانها<sup>29</sup>. وعليه فإن الاستشراق في مجالات الفن والعمارة لا يمكن أن تُختزل أبعاده في مجرد آثار تخلفها موضة ما.

### 1.5. الاستشراق في العمارة والفنون

مثلت حملة بونابرت على مصر ووصوله إلى الإسكندرية يوم 1 يوليو 1798 صدمة، سفنه وجحافله وعلمائه، وظهور المصلح محمد علي باشا في عام 1805، الذي عمد إلى تطبيق تنظيمات إسطنبول في القاهرة، بداية مرحلة هامة من تاريخ الاكتشاف المتبادل بين الشرق والغرب، ومعرفة كل منهما للآخر. وممكّن العودة إلى "أشكال الاستشراق في العمارة" (Figures de l'Orientalisme en Architecture)، وهو تأليف جماعي بإشراف بروان وليرون وفولي (M. Volait, C. Bruant, S.)، من قياس درجة الروابط الثقافية بين العمارة العلمية والعمارة الشعبية، (Leprun, RMMM 1996)، من قياس درجة الروابط الثقافية بين العمارة العلمية والعمارة الشعبية، وأنماط العيش التي كانت سائدة في المغرب والشرق.

<sup>28</sup> (François Beguin, Arabisances : Décor architectural et tracé urbain en Afrique du Nord (1830 -1850  
<sup>29</sup> Mathias Enard, Boussole, Actes Sud, 2015

### 1.1.5. المهندسون المعماريون ومأسسة التصرف في التراث

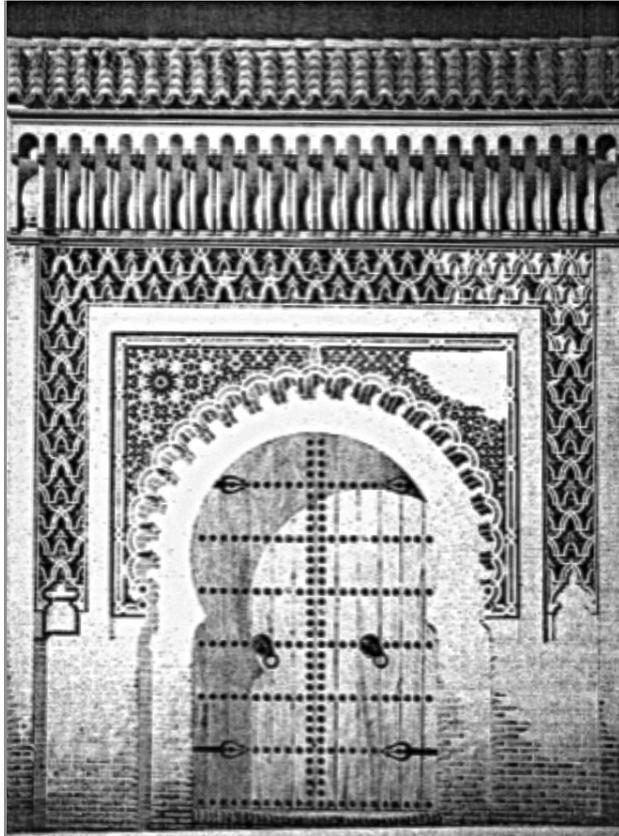
لم يتم، في المغرب والمشرق ما قبل الثورة الصناعية وما قبل الرأسمالية وما قبل الاستعمار في القرن التاسع عشر، تناول موضوع التراث من زاوية الصون التاريخي، ولم يتم التعامل مع التراث كشهادة ثقافية. وكلما تزايد نفوذ الاستعمار، تبين أن الغرب هو من كان يتولى مهمة إضفاء الطابع المؤسسي على القضايا الخاصة بالتراث في الشرق.

إن البعثات العلمية، أولا في مصر والجزائر، ثم في تونس والمغرب، قد أطلقت عملية استكشاف لمعارف تخص المدن والأقاليم والمجالات والمجتمعات، وساهمت في التجديد النسبي للمقاربة التي كان ابن خلدون قد توخاها من خلال اكتشافاته. وفي هذا السياق يستأثر أربعة مهندسين بالاهتمام:

◆ **باسكال كزافيي كوست Pascal Xavier Coste (1879-1787)**، وهو مهندس معماري وفنان كلفه محمد علي باشا بعدد من المهام في العمارة والهندسة المدنية، درس "العمارة العربية" وخاصة المعالم الأثرية بالقاهرة التي قام برفع قياساتها ورسمها خلال رحلته الأولى التي تمت بين 1818 و1826. وعلى الرغم من صرامته المهنية، فقد كان يتحلى في الوقت ذاته بصفات التعاطف واللطف في معاملاته الميدانية، كما كان يهتم بالعمارة العامية وبدراستها، وقد أشرف عام 1922 على إعداد مسح ميداني لقرية ريفية: "يُظهر هذا الرسم الدقيق والبسيط الحياة الريفية ومكانة المشيّد في التنظيم الاجتماعي. وقد كان كوست قريبا جدا من إثنولوجيا السكن، ذلك أن اهتماماته لم تكن تقتصر على تقديم تصنيف بسيط للعمارة، بل إنها كانت تشمل الفضاء المأهول كذلك". (Leprun RMMM 1996).

◆ **أما بل رافوازيي وإدموند دوثوا Edmond Duthoit و Amable Ravoisié**، وهما مهندسان معماريان، شاركا في مهمة استكشاف علمي للجزائر انطلقت في عام 1840. كانت مهمتهما تتلخص في معاينة المجال وتكوين رصيد تراثي. وقد تمكن رافوازيي **A. Ravoisié** من نشر 700 لوحة، تضمنت معالم كانت في عمومها قديمة، من بينها 32 لوحة حول العمارة العربية ومشاهد عامة للمدن. أما **دوثةا E. Duthoit** فقد تخصص في إعداد رفوعات ميدانية للمعالم العربية وتوثيقها، وقد تضمنت أعمال هذا المعماري، الذي طالما أعرب عن "إعجابه بالخيال الخصب لفنون الزخرفة العربية"، رسوما وصورا ورفعا لمقاسات.

في عام 1880، تم، ولأول مرة في تاريخ الجزائر، تعيين دوثوا E. Duthoit في منصب مهندس معماري رئيس مكلف بالمعالم التاريخية، أي بعد مضي 50 عاما على إنشاء لجنة المعالم التاريخية في فرنسا التي كانت مهام تسييرها قد أوكلت إلى بروسبار ماريي Prosper Mérimée وذلك في عام 1834.



دوثوا E. DUTHOIT، باب مدرسة سيدي بو مدين (العباد، تلمسان)  
 (أرشفيف المعالم التاريخية، باريس، أخذت الصورة من قبل نييلة أو بصير)  
 الألوان، زخرفة البناء وزخارف الزينة المتشابهة كانت قد استأثرت  
 باهتمام دوثوا E. DUTHOIT في الدراسة التي أعدها حول الفن المعماري  
 لمدينة تلمسان

ويعود سبب هذا الاهتمام اللافت بمأسسة التراث إلى أن كبار أساتذة العمارة في مدرسة الفنون الجميلة في باريس، على غرار Viollet Le Duc، كانوا يرون أن "الفن العربي فن علمي ومتطور جدا".

♦ أمبرواز بودري Ambroise

Baudry (1906-1838)،

مهندس معماري، درس في مدرسة الفنون الجميلة في باريس، وهو تلميذ مهندس أوبرا باريس شارل غارنيي Charles Garnier. استقر بالقاهرة بين 1871 و1886 وشارك في القيام بجزء للمعالم المعمارية في العالم العربي.

وقد مكنته المهام التي كلفته بها الحكومة المصرية من كسب تجربة فريدة من نوعها من خلال الإشراف على

مسوحات ميدانية، ودراسات استقصائية، وأشغال ترميم لمعالم أثرية منها قصور للمماليك والعثمانيين، وعمليات إعادة بناء تميزت بتطابقها الكامل مع التصميم الأصلي والحرص على الحفاظ على أصالة الأسلوب.

تبين البحوث أن "بيت الفلاح" أكثر أصالة من "البيت العربي"، وذلك، كما يقول بودري، "لأن حيطانه مستقيمة وعارية، بدون طنّف، وبدون قوالب، وبدون إفريز... نشاهد فقط الآجر الأحمر

مثبتا في البناء راسما فوقه أبهى أنماط المطرقات"، (M. Volait RMMM 1996) وباختصار، فإنه قد لاحظ منذ عام 1881 ما سيلاحظه جاك مارماي Jacques Marmey، المعماري الذي تم تكليفه بإعادة الإعمار في تونس في عام 1953، ألا وهو البساطة في أشكال العمارة العامية.

وقد قام بودري A. Baudry ببناء بيته الخاص في القاهرة وبيتين عربيين آخرين، الأول لمصري من أصدقائه والثاني لـ"كونت" في خدمة الخديوي. "هذه المباني الثلاثة، التي لم يكن لها نظير في القاهرة آنذاك، لم تكن مجرد تقليد أو محاكاة للأوهام المعمارية التي كانت تحملها



أمبرواز بودري AMBROISE BAUDRY  
مشهد من الطريق الذي يؤدي إلى باب النصر، القاهرة، فبراير 1871

الموضوعة الاستشراقية منذ مدة في باريس، ولم تكن كذلك مشابهة للأجنحة الشرقية التي أتيح للجمهور اكتشافها في المعرض العالمي الذي أقيم سنة 1867" (M Volait RMMM 1996).

لقد كان بودري، بفضل معرفته المباشرة واطلاعه الواسع، يستعير من العمارة العربية يعجبه، ولكنه لم يكن يحبذ الزخرفة الغربية.

وشغل بودري أيضا مهمة متفقد للمعالم الأثرية التاريخية لدى لجنة صون الآثار العربية القديمة وقد أسهم في إنشاء متحف الفن العربي. وقد كان يتمتع بخصال مهنية عالية، غير أن ما يستحق المزيد من الإعجاب في مسيرته المذهلة من حيث قدرته على تحصيل المعارف وإتقان الممارسات، هو الطريقة الدقيقة التي تمكن بفضلها، وهو القادم من الغرب، من الانغماس



أمبرواز بودري AMBROISE BAUDRY  
مشهد من صالون بيته في القاهرة

في "الفنون العربية" التي كان اكتشفها في القاهرة، إلى درجة أنه قام، عند عودته إلى باريس، بتصميم فضاء داخلي مصري بديكور حميمي شرقي، ليقضى فيه آخر أيام حياته.



مبنى ملحق بمنزل DELORT



الصالون «المصري» بمنزل بودري Ambroise Baudry في باريس،  
وفيه أثاث من متجر قديم في خان الخليلي

وأخيرا، توجد ثلاثة تواريخ تسترعي الاهتمام:

- 1880 : إحداه منصب المهندس المعماري الرئيس للمعالم الأثرية في مدينة الجزائر.
- 1881 : إنشاء لجنة حفظ الآثار العربية القديمة في القاهرة.
- 1885 : تونس تنشئ مصلحة الآثار والفنون الجميلة والمعالم التاريخية.

## 2.1.5. الرسامون ونشر الرسالة الثقافية

♦ أوجين ديلاكروا (1798-1863-Delacroix Eugène) رسام، مختص في علم الأجناس، التحق بمدرسة الفنون الجميلة بباريس في عام 1816، وقام برحلة إلى المغرب خلال الفترة ما بين يناير ويوليو 1832 رفقة البعثة الدبلوماسية الفرنسية إلى السلطان مولاي عبد الرحمن. وقد قادته هذه الرحلة الاستكشافية إلى جبل طارق، والجزيرة الخضراء، وطنجة، ووهران، والجزائر العاصمة، ثم إلى مناطق في عمق الأراضي المغربية الواقعة بين طنجة ومكناس.

أنجز ديلاكروا، في كناشات صغيرة الحجم، رسوما لمناظر طبيعية وحدائق وأسوار ومدن ومنازل وقصور ومشاهد لشوارع ومواكب، ورسوما لمتسولين وتجار وفرسان ومعارك وأسود وخيول. وتعتبر رسومه بالريشة والحبر وبقلم الرصاص ورسوماته المائية عملا وثائقيا ذا قيمة استثنائية يعكس بتفصيل ودقة الفضاءات والمجموعات في المغرب الأقصى في أوائل القرن التاسع عشر.

كان ديلاكروا، هذا الرسام المتخصص في علم الأجناس والمؤرخ، (...)، "يمعن النظر بإعجاب في منازل طنجة وقصورها التي كانت زيارتها متاحة له (...) " وكان "يتفاعل بنفس الحساسية مع بساطة البناءات الغارقة في الأضواء و مع ثراء زخرفتها الداخلية التي لم تفته فرصة التأمل في جميع ألوانها (سيرولاز A. Serullaz 1994)". وقد تم تجميع كافة مذكراته التي كان يسجلها على الفور ورسوماته في "ألبوم شمال أفريقيا وإسبانيا".

وتدفعنا رسومه التي تضمنها كتالوج المعرض الذي نظمه معهد العالم العربي (1994)<sup>30</sup> إلى التفكير في دور الذاكرة الإثنولوجية والتاريخية في الثقافة المعمارية العربية المعاصرة. ومن هذه الرسوم على سبيل المثال:

30 الرحلة إلى المغرب، Delacroix، المعرض الذي نظمه معهد العالم العربي في باريس. 27 سبتمبر 1994 - 15 يناير 1995  
Catalogue Brahim Alaoui (sld) 1994. Flammarion, Paris



القدوم إلى مكناس (قلم رصاص وألوان مائية)



مسكنان مغربيان في طنجة (قلم رصاص وألوان مائية)



واجهة مسكن في طنجة (قلم رصاص وألوان مائية)



ساحة في طنجة (قلم رصاص وألوان مائية)



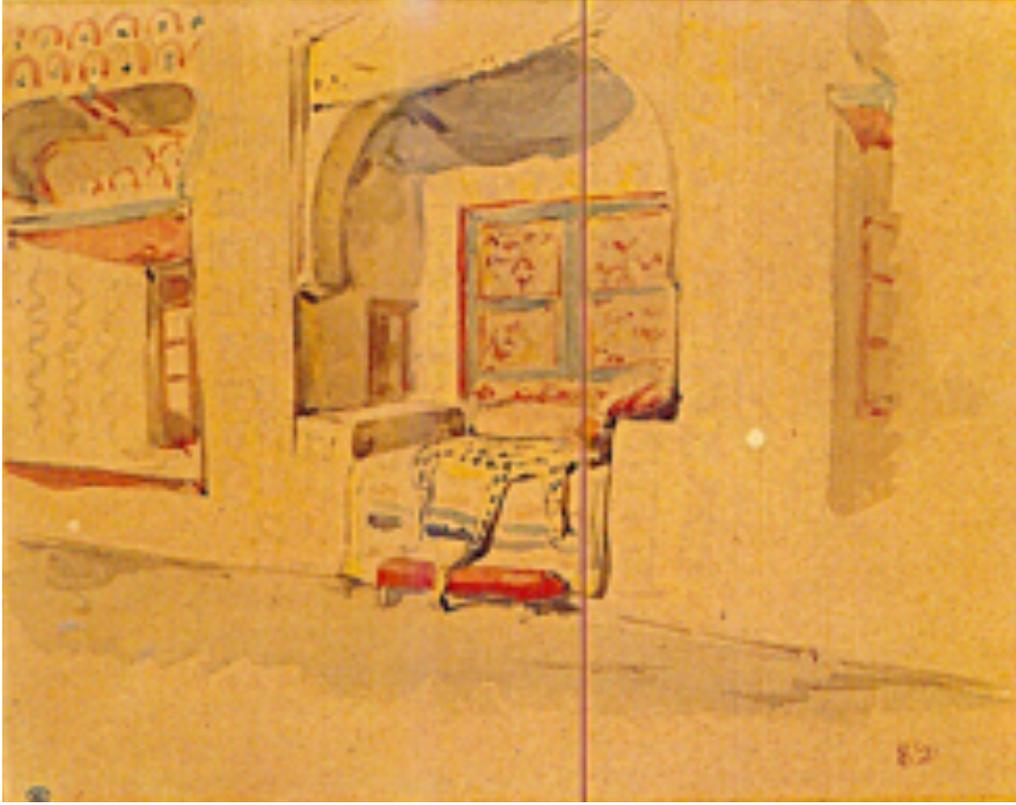
أبواب ونوافذ منزل مغربي



نوافذ داخل بيت مغربي



مشهد داخلي لمنزل مع باب مفتوح على اليمين (قلم رصاص واللوان مائية)



مشهد داخلي مغربي مع قبو

جاء هذا المعرض الذي نظمه معهد العالم العربي عام 1994 لتتويجا لسته وثلثين معرضا آخر نُظمت بين عامي 1939 و1987 في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا واليابان ... لكن العالم العربي لا يعرف الأعمال الفنية التي أنجزها أوجين ديلاكروا، باستثناء النخبة المثقفة التي توفرت لها فرص لمشاهدتها في الخارج.

إن ديلاكروا، الذي وقع التعريف به أعلاه كرسام مختص في علم الأجناس وكمؤرخ، وذلك في سياق الحديث عن رحلته إلى المغرب، هو بالطبع فنان منقطع النظر كان قد دفع بالفن التشكيلي لخوض ثورة حديثة. هذا ما تبينه لوحتان أنجزهما الفنان بالاستناد إلى رسوماته الفورية المستوحاة من الواقع:

#### ◆ ناصر الدين دينيه (1861 - 1929) Etienne, Nasreddine Dinet

##### رسام، شاهد عيان على العادات والتقاليد

كانت الرحلة الأولى التي قام بها دينيه إلى الجزائر، في عام 1884، بداية لعلاقة عميقة جمعت بين هذا الرسام المستشرق وبلاد الجزائر وشعبها. فأصبح يقضي الصيف، ابتداء من عام 1904، في جنوب الجزائر حيث اكتشف معاني العقيدة والتصوف.



"نساء جزائريات داخل بيوتهن"، لوحة بمقاس 1,80X2,29 باريس، متحف اللوفر  
(عرضت في معرض 1834 بباريس)



مولاي عبد الرحمن، سلطان المغرب، عند خروجه من قصره في مكناس محاطا بحرسه وحاشيته  
لوحة بمقاس 3,84X3,43، تولوز، متحف قصر أوغسطين (عرضت بصالون تولوز في عام 1845)  
تعرض هذه اللوحة بدقة متناهية موكبا حضره الفنان في عام 1832 قام خلاله بإنجاز 9 رسوم أولية

وقد أسهم إنتاجه الفني، من لوحات ورسوم، في فهم أفضل للتقاليد والعادات الدينية وأنماط حياة الجزائريين في المدن والبوادي. وقد اعتنق الإسلام في عام 1913 وتسمى بناصر الدين. وفي عام 1918 زار مكة لأداء فريضة الحج، ورسم بهذه المناسبة لوحة تمثل "مشهدا ملكة" يظهر فيها المسجد بأقواسه ومآذنه والكعبة ومحيطها بمنازله ومناظر تلاله. صور ناصر الدين دينيه المشهد الحضري التاريخي للحرم المكي كما كان يبدو في القرنين السادس عشر والسابع

عشر عندما بادر سلاطين الدولة العثمانية، في الفترة ما بين 1553 و1629، إلى القيام بأشغال إصلاحية ثم ترميمية للمسجد، أُجري البعض منها تحت إشراف المهندس المعماري محمد آغا. وقد شكلت الأروقة الرشيقة ذات الصنع البديع «فضاء داخليا رائع الجمال».

تعتبر شهادة الرسام دينيه حول مدينة مكة التاريخية والمسجد الحرام هامة جدا، وتزداد أهميتها اليوم بعد سلسلة الأشغال التي قامت بها المملكة العربية السعودية والتي أدخلت تغييرات على المشهد الحضري التاريخي، ومن بينها:

1955 - 1964: التوسعة الأولى للمسجد الحرام: تم القيام بإصلاحات في الطابق السفلي، والطابق الأرضي والطابق العلوي للمسجد، وتسقيف منطقة السعي بين الصفا والمروة.

1982 - 1988: التوسعة الثانية للمسجد: بناء جناح جديد على الجانب الغربي من الحرم وباب جديد، وأربعة عشر بابا صغيرا ومداخل للطابق السفلي من المسجد، وثلاث قباب جديدة ومئذنتين. كما تم أيضا إدخال تغييرات على سقف المسجد وبناء خمسة مصاعد متحركة حول الحرم، وتهيئة منطقة مفتوحة للصلاة على الجانب الغربي وبناء خمسة أنفاق تربط بين المسجد الحرام ومنى.



مشهد للحرم المكي - لوحة رسمها ناصر الدين دينيه في عام 1918  
(COLLECTION PRIVÉE, ARCHIVES CHARMET/ BRIDGEMAN IMAGES)

1988 - 2005: التوسعة الثالثة لمحيط المسجد: بناء قصر وساعة ضخمة ومراكز تجارية<sup>31</sup>.

إن التحويلات التي أدخلت على المسجد الحرام ومدينة مكة التاريخية، والتي حظيت باهتمام كل من الأستاذ ضياء الدين سردار (Ziaudin Sardar) والمهندس المعماري سامي عنقاوي (Sami Angawi)، من وحدة أبحاث الحج بجامعة الملك عبد العزيز، كانت ذات وقع كبير مما يجعل العودة إلى الوراثة، أي إلى عام 1918، ومساءلة الشهادة المرئية للرسم ناصر الدين دينيه، ضرورة لفهم تطور هذا الموقع الديني ذي القيمة الثقافية الاستثنائية وإيلائه الأهمية التي يستحقها. ويعني هذا أنه يجدر بشعوب الدول العربية، لكي تتغلغل بعمق في ثقافتها الذاتية، أن تستفيد من نظرة الآخر إليها وتسعى إلى اكتشاف الاستشراق مثلما كان يتمنى إدوارد سعيد.

ويذكر في هذا السياق أن لين ثورنتن<sup>32</sup> (Lyne Thornton) أحصت، في الدراسة التي أنجزتها عن مدارس الفنون الجميلة بأوروبا وروسيا القيصرية والإمبراطورية العثمانية وأجزاء من أمريكا، حوالي مائة وخمسين رساما- رحالة غربيا من القرن التاسع عشر أسهموا في اكتشاف الشرق ومعرفة الثقافة العربية والحضارة المدنية للعالم الإسلامي. لقد أنجز هؤلاء أعمالا ذات قيمة هامة، وقدّموا، بالإضافة إلى إحساسهم الخاص، شهادات مرئية ذات طابع إثنولوجي وتاريخي عن المجتمعات العربية ما قبل فترة الاستعمار، حينما عرفت تلك المجتمعات تقلبات سياسية واقتصادية كانت حاسمة في تحديد مصيرها في القرن العشرين. لقد ساهم الرسامون- الرحالة برؤيتهم في إثراء منهجية المسوحات الميدانية التي اضطلع بها مهندسون معماريون لتوثيق القصور والمسكن والمعالم الأثرية بأسلوب تقني وعلمي. وباختصار، فقد ساهم الاستشراق في معرفة التراث المادي وغير المادي للمدن التاريخية والقرى الريفية والمشاهد الصحراوية أو شبه الصحراوية في العالم العربي، وفي وضع عملية المحافظة على التراث العمراني وإدارته في مسارها الصحيح.

## 2.5. التأثيرات الشرقية في العمارة الأوروبية

إن الاستشراق ليس في اتجاه واحد، فقد أثر في العديد من المهندسين المعماريين الذين أنجزوا أعمالا كبيرة في مختلف أنحاء العالم. ويعتبر الجناح الملكي في برايتون بإنكلترا الذي صممه جون ناش (John Nash)، في الفترة 1818-1821، المثل الأكثر إثارة، إذ يأخذ شكلا معماريا هنديا، بأقواسه وأقبيته وقبته المصنوعة من هيكل من الحديد المصبوب، مع تأثر زخرفته الداخلية بالفنون الصينية والهندية والإسلامية..

وقد كانت قضية الإنتاج المعماري المعبر عن التأثيرات المتبادلة موضوعا مطروحا منذ مطلع القرن

31 Ziaudin Sardar, Histoire de la Mecque - de la naissance d'Abraham au XXIème siècle, Bloomsbury, 2014. PAYOT 2015

32 Lynne Thonton, Les orientalistes peintres-voyageurs, 1828- 1908, ACR Editions, 1990

التاسع عشر. وتوجد بعض الأمثلة الأخرى التي تساعد على إدراك عملية التثاقف بين الحضارات التي تحدث عندما تتلاقى ثقافتان وتتفاعلان تأثراً وتأثيراً.

◆ رافئيل غي Raphael Guy، مهندس معماري، مؤلف لما يشبه البيان حول "العمارة الحديثة ذات الطراز العربي" 1910، شيد مبنى مركز البريد بتونس العاصمة (1912)، والذي يعتبر، رغم طابعه الوظيفي، فريداً من نوعه من حيث زخرفة واجهته التي أريد لها أن تكون جزءاً لا يتجزأ من المشهد الحضري لمدينة تونس. وتأكيداً لهذه الإرادة في الاندماج في المحيط الحضري، بادر إلى "تونس" بنايته الحديثة بتتويجها ببرج صغير على شكل مئذنة. وللأسف، هُدمت هذه التحفة الرائعة من فن العمارة العربية في عام 1978 تحت ذريعة المحافظة على الأصالة العربية الإسلامية.

◆ هنري سالادان Henri Saladin، مهندس معماري متخرج من الفنون الجميلة بباريس، ومؤلف دليل الفن الإسلامي (1907) Manuel d'art musulman الذي لا غنى عنه. وهو



فيلا فلسطين - المديرية الإقليمية للمعالم التاريخية بمرسيليا

DIRECTION RÉGIONALE DES MONUMENTS HISTORIQUES 60- MH : 16 NOV. 1993 INV

الذي صمم الجناح التونسي في المعرض العالمي (1889)، وقد تضمن، وفقا للشروط التي وضعتها اللجنة المنظمة، سوقا ومئذنة وشرفة ورواقا وبوابة ضخمة وقبة ونافورة، أي مفردات المكونات المعمارية التي تتشكل منها المدينة القديمة في العالم العربي.

♦ **فيلا فلسطين أو حلم الشرق:** عبّرت التأثيرات الاستشراقية البحر الأبيض المتوسط كما تدلّ على ذلك هذه الدار الرائعة ذات الطراز المعماري الحديث والتي تم تشييدها في مرسيليا بحي Estaque في عام 1900 من قبل شركة البناء المحلية Olive Frères. وقد تم تصميم فيلا فلسطين طبق مواصفات نموذج شوهده في المعرض العالمي. وتقول سيلفي دينانت Sylvie Denante: "تتكون الزخرفة من تشكيلة لعناصر مستعارة من ثقافات وأنماط معمارية مختلفة، جُمعت لتحقيق حلم شرقي"<sup>33</sup>.

ألا يجدر بنا، في هذا السياق، التأكيد على الدور الحاسم للمؤسسات العامة المعنية بالتراث؟ فهل ستنتقل الدراسة التي نشرتها هيئة مرسيليا المكلفة بالمحافظة على المعالم التاريخية عن "فيلا فلسطين" هذا الحلم الشرقي إلى القارئ المعاصر وتدعوه إلى تفهّم كنه هذا المزيج الرائع من الثقافات؟

#### 6. التنمية المستدامة على المحك: علامات عدم الاستدامة

تم تأكيد تعريف "التنمية المستدامة"، في مؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو عام 1992، بأنها "التنمية التي تلبّي احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها الخاصة". وقد أثارت هذه المرجعية الجديدة جدلا حادا وتيارا من الشكوك عبّرت عنه سجلات علمية وعملية، وذلك منذ صدور تقرير برونتلاند سنة 1987 المتضمّن لذلك التعريف. وفي عام 1989، أطلق برنامج الأمم المتحدة للبيئة خطة العمل من أجل المتوسط (PAM) لتأسيس "آفاق الخطة الزرقاء حول البيئة والتنمية من أجل المتوسط". ولم تستند منهجية هذه المقاربة إلى ردود فعل الأسواق أو إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المستقبلية وإنما إلى فرضية تفعيل سياسات إهمائية مستدامة، وبالتالي إلى فرضية طوعية تُراهن على الالتزام السياسي من طرف الدول المنخرطة في اتفاقية برشلونة (1995).

وقد تعزز هذا الالتزام بـ «الأهداف الإنمائية للألفية» (2000) التي اعتمدها الأمم المتحدة. ومن بين المؤشرات المنصوص عليها، نخص بالذكر المساعدات العامة للتنمية التي دُعيت الدول المتقدمة لتقديمها للبلدان النامية بغية مساعدتها على تحقيق هذه الأهداف، ولو بصورة جزئية إذا ما تعذر تحقيقها كليا...

33 "فيلا فلسطين" Sylvie Denante، المديرية الإقليمية للمعالم التاريخية بمرسيليا، مذكرة عرض بتاريخ 16 نوفمبر 1993.

وفي سبتمبر 2015، اعتمدت الأمم المتحدة بالإجماع مشروعاً جديداً للتنمية المستدامة لعام 2030 وعنوانه "أهداف التنمية المستدامة: 17 هدفاً لتحويل عالمنا"، إلا أن أوساط الخبرة العلمية والمهنية نسبت هذه المواقف المعيارية الاستثنائية التي اتخذتها المنظمة الدولية، حيث ذُكرت بأبرز علامات عدم الاستدامة، ومنها أن بعض الموارد الطبيعية مهددة بالنفاد أو هي تتدهور بفعل الإفراط في الاستهلاك أو التلوث أو نتيجة ظواهر التصحر وارتفاع درجة الحرارة وغيرها...

هكذا أصبحت الالتزامات المعلنة بشأن "التنمية المستدامة" موضع تساؤلات إن لم نقل انتقادات من قبل العديد من المفكرين في المجتمع المدني. يقول جان كلود أميسن Jean-Claude Ameisen في هذا الصدد: "إن العديد من الدراسات العلمية قد أظهرت إلى أي مدى ظل استخدام الموارد والتدهور البيئي يحدث على حساب أشد الناس فاقة في كوكبنا، وبما يعود بالنفع على البعض من سكان الدول الأكثر تصنيعاً. وعليه فإن نموذج التنمية الاقتصادية والاجتماعية في عالمنا ليس مستداماً للأجيال القادمة فحسب بل هو أيضاً غير عادل على نحو متزايد بالنسبة إلى الأجيال الحاضرة"<sup>34</sup>.

إن عدم استدامة التنمية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المجحفة المشار إليها آنفاً قد تم رصدها وتحديدها كميًا على صعيد المنطقة العربية. وعليه ينبغي أن تأخذ الاستراتيجية الثقافية للألكسو الخاصة بالتنمية الحضرية المستدامة في الاعتبار ظاهرة عدم الاستدامة التي تؤثر في المنطقة العربية. هل يمكن إيجاد "مدن مستدامة" في جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط على النحو المقترح من قبل مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالقاهرة (CEDEJ) في 2010-2012؟ إجابة عن هذا السؤال اعتبر بارثل P. A. Barthel وزكي L. Zaki أن مصطلح "التنمية المستدامة" يستدعي بعض الاحترازات إذا ما طُبّق على مدن هذه المنطقة"<sup>35</sup>.

وإنه لمن العقلانية مراعاة هذا الموقف الاحترازي، بحيث يصبح من المناسب دراسة موضوع "المدينة المستدامة" دراسة معمقة بالاشتراك مع:

- منظمة المدن العربية<sup>36</sup>،
- الأمانة الإقليمية لمنظمة مدن التراث العالمي لأفريقيا والشرق الأوسط،

34 جريدة لي موند الفرنسية 23 Le Monde - 24 أغسطس 2015: لقاء مع Jean Claude Ameisen، رئيس المجلس الاستشاري الوطني للأخلاقيات CCNE، الجمهورية الفرنسية.

35 Edition L'Aube, 2011 P. A. Barthel - L. Zaki, Expérimenter la ville durable au sud de la Méditerranée

36 منظمة المدن العربية - 1967، الكويت، مهمتها الحفاظ على هوية المدن العربية واستدامة تنميتها من خلال استراتيجية متكاملة طويلة المدى تشمل جميع الجوانب الإيمانية للبلاد العربية. وتتبعها الهيئات التالية:

المعهد العربي لإيماء المدن 1980، الرياض، المملكة العربية السعودية

مركز البيئة للمدن العربية، دبي، الإمارات العربية المتحدة 2006

مؤسسة التراث والمدن التاريخية العربية، تونس، 2007

المنتدى العربي لنظم المعلومات، عمان الأردن 2007

مؤسسة جائزة منظمة المدن العربية، الدوحة 1981

صندوق التنمية العربي للمدن العربية، الكويت 1979

ويمكن لهذه النقاشات المفتوحة، التي تشمل المنطقة العربية، أن تأخذ في الاعتبار التيارات الفكرية المتعلقة بمفهوم المدينة المعاصرة. فالهيئات الأكاديمية والمهنية الأوروبية قد توفقت إلى إنتاج دراسات مفصلة شملت الأبعاد التاريخية والثقافة الحضرية والعمارة والتخطيط الحضري، وذلك منذ أن طبعت الثورات الصناعية والبيئية وتكنولوجيا المعلومات ببصمتها البيئة والتنمية.

وهذا ما يؤكد التقرير الصادر عن الندوة الدولية التي نظمها "برنامج البحث الحضري من أجل التنمية"، برعاية وزارة الخارجية الفرنسية، في مايو 2004 بمقر اليونسكو، حول "إدارة مدن الجنوب: التحديات على المستوى البحثي والتطبيقي"<sup>37</sup>، بهدف:

- تنشيط بحوث التنمية الحضرية من خلال تجديد الطرح للإشكاليات والمواضيع التي تتناولها،
- إنتاج معرفة جديدة حول التحضر لإرشاد السياسة العامة للتعاون من أجل التنمية الحضرية،
- استعادة أو بدء علاقات الشراكة والتبادل بين الأوساط العلمية الفرنسية والأكاديميين المنتمين إلى مناطق التضامن ذات الأولوية.

## 7. نظرية الحفاظ على المناظر الحضرية التاريخية وإدارتها من منظور التنمية المستدامة

### 1.7. مفهوم المنظر الحضري التاريخي

اعتمدت الدول الأعضاء في اليونسكو خلال مؤتمرها العام المنعقد بتاريخ 10 نوفمبر 2011 (الدورة السادسة والثلاثون) التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية على أنها:

- مقارنة جديدة "للقيم الثقافية" (الجمالية والتاريخية والعلمية والاجتماعية والروحية للأجيال الماضية والحاضرة والمقبلة)، وهي تتجسد في الموقع ذاته وفي الممتلكات الثقافية (ميثاق بورا The Burra Charter، المجلس الدولي للمعالم والمواقع - ICOMOS).

- أداة معيارية جديدة تهدف إلى الارتقاء بمستوى "الحفاظ على المدن التاريخية وإدارتها"<sup>38</sup>. شملت التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية (الفقرة 8 إلى الفقرة 13) تعريفا للمصطلحات المتعلقة بالممتلكات الثقافية المادية وغير المادية الواقعة في "المناطق الحضرية التاريخية" (ميثاق واشنطن، ICOMOS 1987)<sup>39</sup>.

♦ وفي تقرير اليونسكو/الألكسو الذي سيعرض على مؤتمر الموئل الثالث المعني بدور الثقافة في

37 هذه الندوة نتاج 30 دراسة ساهم في إنجازها 250 باحثاً من دول الشمال والجنوب حول مدن من أفريقيا والعالم العربي وجنوب شرق آسيا والكاريبى. وقد استعرضت

38 اليونسكو، مذكرة إحاطة بشأن اجتماع العصف الذهني حول تنفيذ التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية، بعد عامين من صدورها.

39 "تشمل المناطق الحضرية التاريخية، الكبيرة والصغيرة منها، المدن الكبرى والصغرى والمراكز أو الأحياء التاريخية، هي وبيئاتها الطبيعية والتي صنعها الإنسان. وتجسد

هذه المناطق، فضلا عن دورها كوثائق تاريخية، قيم الثقافات الحضرية التقليدية".

التنمية الحضرية المستدامة، ينبغي تركيز الاهتمام على موضوعين رئيسيين تناولتهما التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية في فقرتين:

**الفقرة الثامنة:** "التراث الحضري التاريخي هو المنطقة الحضرية التي يعتبر أنها وجدت نتيجة لتراكم طبقات تاريخية من القيم والسمات الثقافية والطبيعية التي تتجاوز مفهوم "المركز التاريخي" أو "المجموعة التاريخية" فتشمل البيئة الحضرية العامة ومحيطها الجغرافي".

**الفقرة العاشرة:** "ويوفر هذا التعريف أساس النهج الشامل والمتكامل من أجل تحديد المناظر الحضرية التاريخية وتقييمها وصونها وإدارتها في إطار شامل للتنمية المستدامة".

وعليه، فإن تنفيذ هذه التوصية، التي تعكس تطورا كبيرا على الصعيدين النظري والتطبيقي، يتطلب تحديثا واسعا للمصطلحات المستخدمة في التخطيط العمراني لتراث المدن التي أصبحت "تخضع لضغوط التنمية وتحدياتها التي لم تكن قائمة عند اعتماد توصية اليونسكو بشأن المناطق التاريخية في عام 1976 (أي التوصية الخاصة بصون المناطق التاريخية ودورها في الحياة المعاصرة)"، كما ورد في ديباجة التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية. ومن هذا المنظور، يتعين على الدول الأعضاء وضع المعايير التي تأخذ بعين الاعتبار الواقع المعاصر، وخاصة:

- استبدال عبارتي الحماية والصيانة بالصون والإدارة، حيث إن الفقرة 3 من المقدمة تنصّ على أنه "نظرا إلى أن مستقبل البشرية يتمحور حول تخطيط الموارد وإدارتها بنجاحة، فإن الصون أصبح استراتيجيية تعتمد لتحقيق التوازن بين النمو الحضري ونوعية الحياة بصورة مستدامة".
- أنه لا يمكن تصور مصطلح "الثمين" إلا كنتيجة لاستراتيجيات صون التراث الحضري في إطار الأهداف العامة لتحقيق التنمية المستدامة، وذلك على نحو يوفر دعم المبادرات العامة والخاصة الرامية إلى الحفاظ على نوعية البيئة البشرية وتحسينها (الفقرة 5 من المقدمة).

وأخيرا، فإن مصطلحي الصون والإدارة قد أصبحا اليوم من ضمن الشروط المرجعية التي يتعين على الدول الأعضاء في اليونسكو اعتمادها في منهجية تخطيط المناظر الحضرية التاريخية.

وعليه، يتعين على دول المنطقة العربية الاهتمام بمسألة المصطلحات، ودعم توجه اليونسكو والألكسو إلى إعداد دليل يسمح للمهنيين بتوحيد المفردات التي يستخدمونها في صياغة الوثائق والاتفاقيات والتوصيات الدولية.

- ◆ إن مصطلح "المنظر" الذي يوصف تارة بأنه "طبيعي" وطورا بأنه "ثقافي" هو عبارة متعددة المعاني تختلف مدلولاتها حسب المتحدثين: رسامين أو علماء طبيعة أو أخصائيين بيئيين أو مهندسين أو معماريين أو مخططين حضريين، إلخ...

وتعبر اللغة العربية عن المعاني المتعددة لمصطلح مشهد/منظر بالرجوع إلى جذرين:

- أولهما (شهد) بمعنى حضر، لاحظ، رأى، ويشق منه كلمة مشهد التي تشير إلى بانوراما، **منظر طبيعي**، ومشهد، وعرض، وصورة، ورؤية.
- والجذر الثاني (نظر) يعني: رأى، أبصر، تصوّر، تأمل، تفحص، راقب، تفرّج، ويشق منه كلمة **منظر** التي تشير إلى مظهر، لمحة، بانوراما، **منظر طبيعي**، مشهد، موقع، صورة...

وقد تم استعمال كلمة منظر في أدبيات اليونسكو. لكن كلمة مشهد هي التي استخدمتها الإدارة العامة للتهيئة الترابية بتونس عند إعداد النسخة العربية لكتاب الأطلس الخاص بالمناظر الطبيعية في تونس والصادر عام 2009. ويمكن ترجمة عبارة "**Territoire urbain historique**" بالمنطقة العمرانية التاريخية. إلا أن هذه الترجمة تعبر عن تقسيم إداري أكثر مما تعكس إحساسا بالمشهد المرئي. ففي تونس تستخدم عبارة "بلاد" للإشارة إلى أراض تقطنها مجموعة معينة من السكان.

**ما هي البلاد؟** يعرف قاموس التخطيط الحضري والتهيئة العمرانية Le Dictionnaire de l'urbanisme et de l'aménagement (شواي وميرلين 1988 P Merlin, F Choay) "البلاد" بأنها "أراض ذات مساحة محدّدة" تتميز بسمات لها من الوضوح ما يجعل عامة الناس يطلقون عليها تسمية خاصة بها. وينطبق هذا التعريف بدقة في تونس على ما يسمى "بلاد باجة" على سبيل المثال. وعليه، فإن عبارتي البلاد/المشهد تشكلان مفهومين متداخلين، حيث إن المشهد هو جزء من البلاد. هكذا نلمس ترتيبا هرميا على الصعيد الجغرافي وشعورا بالتميّز من خلال الرؤية.

هذا ما يلخصه الجغرافي رينيه برونيه René Brunet في مقولته البليغة: "لا يمكن للمشاهد أن يكتسب معنى إلا من خلال إدراك المرء له" (les Mots de la Géographie, Dictionnaire Critique) (1992). وقد تم فعلا النظر في مسألة الإدراك هذه من خلال "التوصية بشأن المحافظة على جمال المناظر الطبيعية والمواقع وعلى الطابع المميّز لها" (اليونسكو 1962).

إن هذا الاعتراف المدهش بجمال وخصوصية ما تقدمه الطبيعة للبصر قد مهّد لوضع المبادئ التوجيهية لاتفاقية التراث العالمي التي أوردت في سياق تعريفها "للتراث الثقافي" بأن المواقع هي "أعمال الإنسان أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة". وهناك غموض بشأن هذا المفهوم الجديد نسبيا.

## 2.7. مفهوم الصون الحضري المتكامل

لم تعرّف التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية مصطلح "الصون" الذي ورد في سياقها من وجهة نظر أكاديمية.

◆ ما هو معنى الصون وفقا لقاموس التخطيط الحضري والتهيئة العمرانية (ميرلين وشواي 1988

?(Merlin et Choay

- هو "العمل على المحافظة على سلامة المبنى أو إبقائه على نفس الحالة"،
  - وهو أيضا "استخدام التقنيات والطرق العلمية من أجل الحفاظ على المباني وعدم المساس بسلامتها"، وفي سياق أوسع، تشير كلمة "الصون"، في مواطن عديدة، إلى الجهة الإدارية المسؤولة عن حماية التراث ويسمى مديروها "المحافظون" (المواقع الأثرية والمعالم التاريخية، المواقع الثقافية والطبيعية، المتاحف، إلخ..)
- ويستخدم المهنيون العاملون في مجال العمران والتنمية الحضرية عبارة **الصون المتكامل** بمعنى معالجة (ترميم، إعادة تأهيل....) المباني والمجمّعات القديمة لجعلها صالحة للاستعمال من قبل المجتمعات الحديثة، وإدماجها في خطط التنمية الحضرية والريفية، ويوضح مسرد التعريفات الملحق بالتوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية أن **الصون الحضري** "لا ينحصر في الحفاظ على المباني المنفردة. فهو ينظر إلى الجانب المعماري على أنه عنصر واحد متكامل من المحيط الحضري برمته، مما يجعله تخصصا معقدا ومتعدد الأوجه. لذلك فالصون الحضري يقع بطبيعته في صلب التخطيط الحضري".
- ولضمان تنفيذ التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية، تحتاج الدول العربية إلى اعتماد مصطلحات عربية متجانسة تعبر عن مختلف المفاهيم المتداولة دون الاكتفاء بمجرد نسخها من المصادر الإنجليزية أو الفرنسية.

### 3.7. مفاهيم التجديد، إعادة التأهيل، إعادة الهيكلة، إعادة التنشيط، إعادة التهيئة، الترميم، إعادة التوظيف

- يمكن لمشروع **الصون الحضري المتكامل** أن يستفيد من خبرات المخططين والمهندسين المعماريين في عمليات التجديد وإعادة التأهيل وإعادة الهيكلة وإعادة الإحياء وإعادة التهيئة والترميم وإعادة التوظيف، شريطة أن توضع المعوقات الفنية والإدارية في الحسبان، كما هو موضح أدناه:
- كان التجديد، الذي يقتضي هدم أحياء حضرية مساكنها متداعية وغير صحية، أو مساحات صناعية أو مرفئية مهجورة، الحلّ المحبّب لتحديث المدن، وقد استمر ذلك لفترات طويلة. لكن تبين أن عملية الهدم وإعادة البناء هذه مرهقة من المنظور المؤسسي والقانوني. فهيئات التخطيط التي يتم أحيانا إنشاؤها من الصفر لنقل المستأجرين وتعويض المالكين تصطدم بصعوبة تعبئة الموارد المالية الضرورية، لاسيما وأن اللجوء إلى المساعدات الحكومية قد أصبح يشكل عبئا على المجتمع والدولة. إن المثل الأكثر تعبيرا عن فشل التجديد هو مشروع حي "صقلية الصغرى" بمدينة تونس، أو مشروع حي المحطة في مدينة سوسة.

- إن إعادة التأهيل هو الإجراء الرامي إلى ترميم ممتلكات عتيقة خصوصا في المجمّعات التاريخية أو التقليدية. وهي عملية مرهقة، أيضا، من الناحية المؤسسية والقانونية والمالية، ولكن ميزتها تتمثل في حماية وصون الأشكال الحضرية ومطية السكن الذي يحمل قيمة تراثية ومعمارية ذات بعد ثقافي. وإن النجاح الذي حققه مشروع "الحفصية" في مدينة تونس يبرهن على ذلك. لكنّ محاولات تكرار هذا المشروع في المدن العتيقة الأخرى مثل سوسة والقيروان وفاقس قد منيت بالفشل. فما هي أسباب فشل تكرار مشروع الحفصية؟
  - تتيح إعادة الهيكلة، وهي عملية تخطيط عمراني أكثر مما هي عملية معمارية، إعادة تنظيم الطرق داخل النسيج الحضري لتوظيفها على نحو أفضل علاوة على توفير قطع أرض صالحة للبناء. وينطبق هذا على الأراضي المهملة المحيطة بالمستودعات المرفئية بشارع محمد الخامس بتونس، التي تمت إعادة هيكلتها لاستيعاب مباني إدارية ومصرفية.
  - إعادة التنشيط، هو إجراء يسمح بإعادة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأنشطة التجارية إلى مدينة تتداعى أوضاعها، سواء كانت قديمة أو حديثة.
  - إعادة التهيئة، هو إجراء يهدف إلى جعل أحياء سكنية قديمة تتطابق مع المعايير الحضرية المتبعة، وذلك حالة بحالة، في إطار مشروع صون متكامل.
  - الترميم، هو إجراء معماري يتصل بالتراث ويهدف إلى استخدام الوسائل التقنية المناسبة لإعادة تكامل جميع أجزاء مبنى أو مجموعة من المباني، وذلك بغية صون طابعها التاريخي والحفاظ عليه.
  - إعادة التوظيف، هو إجراء معماري يسمح لمبنى قديم أو مَعْلَم أثري بتقديم وظائف جديدة.
- تعتبر هذه الإجراءات السبعة، المتمثلة في التجديد، وإعادة التأهيل، وإعادة الهيكلة، وإعادة التنشيط، وإعادة التهيئة، والترميم، وإعادة التوظيف، ضرورة لتهيئة المدن التاريخية، حيث إن كلا منها يسمح بمعالجة موضوع قطاعي معين. لكنها تظل غير كافية في غياب رؤية شاملة للواقع الحضري. وتتطلب المدن التاريخية استجابة مدروسة وطوعية لوضع حد لتدهور التراث العمراني والثقافي وانتشار ظواهر الفقر والحرمان الاجتماعي والركود الاقتصادي وأخيرا التهميش الحضري.

#### 4.7. إعادة الإحياء الحضري

إن "إعادة الإحياء الحضري" هو تصور جديد للتهيئة العمرانية والتخطيط الحضري يحدد أهداف وأساليب تخطيط "المراكز التاريخية". ويشير المركز التاريخي إلى مفهوم المركزية التي تتصل بالتخطيط الفضائي على صعيد الحاضرة وكذلك إلى مفهوم الأقدمية المرتبطة بالتاريخ الحضري والمعماري.

وكان مصطلح "إعادة الإحياء الحضري" - urban regeneration - قد ظهر في أوائل الستينيات في أمريكا الشمالية لوصف التدخلات في "المدينة الداخلية" (Kennet - The inner city - Stephen) (1980).

إن عبارة "إعادة الإحياء" توحى بأن العملية التي ستجرى على المدينة تتمثل - على غرار ما يقوم به البيولوجي حينما يجدد أنسجة الجسم - في استرجاع السمات الحضرية أو المعمارية والقيم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تضي على المدينة، في سابق عهدها، شخصية سياسية وهوية ثقافية. ربما تعبر هذه الاستعارة البيولوجية عن كنه إرادة السلطات العمومية، وهي تواجه تحديات الحداثة وتحديات الوقت الراهن التي يجابهها أي "مركز حضري تاريخي" - historical city core - باعتباره النواة الأصلية لمدينة قديمة ذات طابع تطوري" (ميرلين وشواي 1988 Merlin et Choay). ومع ذلك، فإن مشروع إعادة الإحياء العمراني (شالين 1999 Chaline)، يقود إلى إثارة تساؤلات حول مفاهيم وطرق التخطيط الفضائي التي وضعتها اليونسكو والمجلس الدولي للمعالم والمواقع ICOMOS، والتي تضمنتها:

- "التوصية الخاصة بصون المناطق التاريخية ودورها في الحياة المعاصرة" (اليونسكو 1976)،
  - "ميثاق واشنطن بشأن الحفاظ على المدن والمناطق" (ICOMOS، واشنطن 1987)،
  - "التوصية الخاصة بالمناظر الحضرية التاريخية" (اليونسكو، 2011).
- إن إعادة الإحياء الحضري، التي تطمح إلى "إعادة بناء المدينة فوق المدينة" (شالين 1999 Chaline)، تهدف إلى تحقيق الإنعاش الاقتصادي، وأما غايتها النهائية فتتمثل في تحقيق الازدهار الاجتماعي: توفير مساكن بأسعار معقولة وإحداث فرص العمل. وهذان يشكلان معياري التنمية الحضرية المستدامة.
- تتمثل إعادة الإحياء الحضري في السعي إلى إعادة تكييف المراكز التاريخية والمحيط المجاور لها مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك مع متطلبات العوامة التي تستدعي تدخلات لا يقتصر نطاقها على الإجراءات التقليدية للتخطيط التنظيمي والإدارة البيروقراطية.
  - إن إعادة الإحياء الحضري هي إنعاش اقتصادي يهدف إلى إيجاد فرص عمل وضمان عائدات ضريبية للبلدية، على أن يكون لذلك وقع على الصعيد الاجتماعي.
  - إن إعادة الإحياء الحضري هي إعادة تهيئة فضائية تتصف بسمة الاستدامة وتهدف أولاً وبالذات إلى الحد من استخدام السيارات للتنقل داخل المدن، وتحسين ملحوظ في جودة السكن لغايات اجتماعية وحماية التراث الثقافي وصونه.

تعود سياسة إعادة الإحياء الحضري في بدايتها إلى ما بين عامي 1960 و1980 وذلك في بوسطن، وبيترسبرغ، وسان فرانسيسكو، ومونتريال. وعرفت نجاحات في لندن (لندن دوكلاندز)، وليفربول، ومانشستر. واعتباراً من سنة 1990، في ليل، وأمستردام، وهامبورج، وبرشلونة، ونابولي، وجنيف، وتورينو، ومرسيليا، ولشبونة، وإسطنبول. أما بلدان المغرب والمشرق فقد ظلت متمسكة بالتخطيط التنظيمي.

## 5.7. المشروع الحضري

إن المشروع الحضري هو نهج مفاهيمي يهدف إلى «إعادة النظر في الشكل الحضري» والانتقال من مسألة السكن إلى المسألة الحضرية (مانجان بانراي 1999 Mangin Panerai) بحيث ينبغي أن تكون عملية تقسيم الأراضي المعدة للبناء داخل المدينة مصدراً للإبداع، ولأنماط سكن ملائمة لتشكلات حضرية مبتكرة.

إن المشروع الحضري، الذي يهدف إلى "تخليص العمارة من الهواجس الشكلية وتحرير التخطيط الحضري من ثقل التكنولوجيا"، هو بمثابة مطلب سياسي ينادي به مهندسون في مجال الهندسة المعمارية والتخطيط العمراني، يريدون تجاوز حدود التكوين الأكاديمي الضيق، ويرون أنه "يمكن لاقتصاد الآثار أن يفيد من اقتصاد الوسائل للحيلولة دون تشبيح المدينة بشعارات جوفاء."

يعتبر الإحياء الحضري والمشروع الحضري، اللذان كانا يمارسان في الأمريكتين وفي أوروبا منذ الستينيات، من ضمن المقاربات المبتكرة في مجال إنتاج السكن والتخطيط الحضري، وذلك لأنهما يفتحان المجال أمام مشاركة السكان في التخطيط الحضري ويمكنان من الاستفادة من القدرات التشغيلية للمطورين العقاريين في القطاعين الخاص والعام.

## 6.7. اتفاقيات وتوصيات اليونسكو

يستند تقرير اليونسكو/الألكسو الخاص بدور الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة إلى التوصية الخاصة بالمنظر الحضري التاريخية لعام 2011، إلا أن الصكوك السابقة لليونسكو جديرة بالاهتمام هي الأخرى، وخاصة:

### ♦ اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي (اليونسكو، 1972)

تنص المادة 4 من هذه الاتفاقية على ما يلي: "تعترف كل دولة من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية بأن واجب القيام بتعيين التراث الثقافي والطبيعي.. الذي يوجد في إقليمها، وحمايته، والمحافظة عليه، وإصلاحه، ونقله إلى الأجيال المقبلة، يقع بالدرجة الأولى على عاتقها. وسوف تبذل كل دولة أقصى طاقتها لتحقيق هذا الغرض وتستعين عند الحاجة بالاعون والتعاون الدوليين اللذين يمكن أن تحظى بهما، خاصة على المستويات المالية، والفنية والعلمية، والتقنية".

كما تنص المادة 5 على ما يلي: "تعمل الدول الأطراف في هذه الاتفاقية، كل بحسب ظروفها، وفي حدود إمكانياتها، على.. اتخاذ سياسة عامة تستهدف جعل التراث الثقافي والطبيعي يؤدي وظيفة في حياة الجماعة، وإدماج حماية هذا التراث في مناهج التخطيط العام..".  
وهو جوب المادة 6، تعترف الدول الأطراف بأن التراث الثقافي والطبيعي كما هو محدد في الاتفاقية "يشكل تراثا عالميا، تستوجب حمايته التعاون بين أعضاء المجتمع الدولي كافة".

♦ التوصية بشأن صون المجمّعات التاريخية أو التقليدية ودورها في الحياة المعاصرة (اليونسكو 1976)

إن نظرية الصون العمراني، وفقا لما أوردته اليونسكو في توصيتها الصادرة عام 1976<sup>40</sup>، تسلّم بأن المجمّعات التاريخية أو التقليدية ومحيطها ينبغي اعتبارهما كلا متجانسا يتوقف توازنه وطابعه المميّز على تكامل العناصر المكونة له. وقد حددت التوصية "الصون" بأنه يعني تعيين المجمّعات ومحيطها وحمايتها والمحافظة عليها وترميمها وصيانتها وإحياءها. وهي تعتبر أن هذه المجمّعات ينبغي اعتبارها تراثا عالميا. وتدعو في فقرتها الخامسة المهندسين المعماريين والعمرانيين إلى الحرص على الدمج المتناسق<sup>41</sup> للمجمّعات التاريخية أو التقليدية في الحياة المعاصرة.

ولتحقيق هذا الغرض، فإن المهندسين المعماريين والعمرانيين مدعوون إلى مراعاة تنفيذ المبادئ التالية:

#### المبدأ الأول: الحفاظ على مورفولوجية النسيج الحضري

لا بد من السعي إلى الحفاظ على شكل المجمع التاريخي في تكامله، واحترام المسالك المخصصة للمارة. وعليه، فإنه لا يمكن السماح للسيارات بالمرور، إلا لأسباب تتصل بالخدمات أو الأمن، شريطة أن يسمح اتساع الطرق بذلك، كما يجب الحظر الكامل لتوسيع الطرق أو شقّ شوارع جديدة في النسيج الحضري.

#### المبدأ الثاني: احترام نمط السكن

إن احترام نمط السكن يفترض احترام التقسيم العقاري<sup>42</sup>، إذ لا يُسمح بتجميع الأراضي إلا لدواعٍ وظيفية. وعند إعادة بناء أي منزل منهار، يجب احترام نمط البيت التقليدي، وينبغي ألا يتجاوز طوله مستوى المنازل المجاورة.

40 اليونسكو، التوصية بشأن صون المجمّعات التاريخية أو التقليدية ودورها في الحياة المعاصرة التي اعتمدها المؤتمر العام في دورته التاسعة عشرة، نيروبي، 26 نوفمبر 1976.

41 لا ينبغي أن يؤخذ معيار التناسق الهادف إلى تحقيق التكامل كمجرد توفيق إلى المثال ولكن كمنهج للتخطيط المكاني. انظر Choay و Merlin، قاموس التخطيط الحضري والتهيئة الحضرية، 1988، ص 501.

42 Robert Ilbert، « l'Avenir de la vieille ville (le Caire) tient dans le maintien du parcellaire»، 1982، p 281

### المبدأ الثالث: صون الآثار التاريخية

إن الصون إجراء قانوني ملزم للأطراف الأخرى. وحيث إن المعلم التاريخي ليس قطعة أثرية معزولة، فإنه يتعين صونه داخل المحيط الحضري. وهذا يعني أن المناطق المجاورة هي جزء من هذا الإجراء.

### المبدأ الرابع: ترميم المعالم التاريخية

إن الغاية الأساسية من وراء ترميم المواقع التاريخية هي أولاً وبالذات نقل الذاكرة المرتبطة بتلك الأماكن ورسالتها الثقافية إلى الأجيال القادمة. أما الأغراض البيداغوجية التي تنطوي عليها هذه العملية فيمكن أن تشمل خدمة التنمية الاقتصادية من خلال التوظيف المناسب للتراث في السياحة.

### المبدأ الخامس: التخطيط لإدماج المدينة التاريخية في القاعدة الحضرية

على الرغم من المورفولوجيا الخاصة التي تتميز بها المدينة التاريخية، فإنه ينبغي أن تُدمج في القاعدة الحضرية. ويتطلب ذلك وضع تصور لتخطيط حضري يرمي إلى إزالة الحواجز بين المناطق وتجنب الفصل بين الأماكن.

ولهذا الغرض، ينبغي توسيع المساحات المخصصة للمارة، ما أمكن ذلك. كما ينبغي تخطيط الطرق وأماكن وقوف السيارات ومواقع وسائل النقل العامة والمنتزهات والحدائق وغيرها من الأماكن العامة والشبكات التقنية على نحو منتظم على مستوى القاعدة الحضرية، لضمان خدمات متكافئة تشمل السكان كافة.

### المبدأ السادس: تكييف الأحياء السكنية بما يتماشى مع نمط الحياة الحديثة

لا يُحَبَّذ على الإطلاق، إلا في حالات استثنائية، تحويل العمارة التقليدية إلى ما يشبه متحفاً لأنماط حياتية غابرة. وهذا يعني أنه يتعين على قوانين البناء أن تسمح، في حدود احترام المورفولوجيا الحضرية، بالتطور الطبيعي للبيت ذي الفناء وتأقلمه مع أنماط الحياة الأسرية كما نعيشها اليوم، وذلك وفقاً للمعايير التقنية الحديثة.

### المبدأ السابع: النهوض بمكانة المدينة التاريخية اجتماعياً واقتصادياً واجتنب تحويلها إلى ما يشبه المنعزل

لا يجوز اعتبار الفقر الذي يعاني منه السكان، إضافة إلى تقادم التراث العقاري، قدراً محتوماً على المدينة التاريخية. فمكافحة ظاهرة «التكويخ»، من جهة، وتوفير المساعدة القانونية والتقنية والمالية لتحسين السكن، من جهة أخرى، هما من العوامل الضرورية للنهوض بالأوضاع الاجتماعية في المدن التاريخية.

ويخطئ من يظن أن تردي الأوضاع المعيشية في المدينة التاريخية أو أن البؤس الاجتماعي السائد فيها أمر لا مفرّ منه. إن المدينة التاريخية قادرة على المشاركة مشاركة كاملة في الحياة الاقتصادية للقاعدة الحضرية. ولكي تتمكن من ذلك، ينبغي تكريم الحرفيين ومساعدتهم على إنجاز مشاريع مدرة للدخل وتيسير الوصول إلى الخدمات وتنظيم السياحة الثقافية واستقطاب الفنانين والأخصائيين في مجال العلوم والفنون والتكنولوجيا إلخ... وذلك يتطلب تشجيع الاستثمارات وتنظيم الشراكات بين القطاعين العام والخاص وتحفيز نظام الدعم والرعاية.

## فاتحة الفصل الأول

إن اتفاقيات اليونسكو وتوصياتها، ومواثيق المجلس الدولي للمعالم والمواقع، وإعلان شيان، ومذكرة فيينا، ومؤتمرات اليونسكو المنعقدة في كل من مكسيكو واستكهولم بشأن السياسات الثقافية، ومؤتمر هانغجو الذي أكد إعلانه أن الثقافة هي مفتاح التنمية المستدامة، وغير ذلك من الصكوك التي تمت صياغتها منذ 1962، تُشكل منصة فكرية ومهنية ثمينة وتعتبر التزاما سياسيا تجاه صون الممتلكات الثقافية والمعالم التاريخية وإدارتها لفائدة الأجيال في الماضي والحاضر والمستقبل. وباختصار فإن هذه الأدبيات تعكس شعورا بالمسؤولية تجاه المجتمع الإنساني، ولكن يتعين على الدول الأعضاء في اليونسكو السعي إلى تنفيذ التزاماتها وخاصة بشأن التوصية الخاصة بالمنظر الحضري التاريخية (2011)، لكي تتمكن خطة عمل الموئل الثالث من بلورة الدور الذي تضطلع به الثقافة في التنمية الحضرية المستدامة على مختلف الأصعدة المؤسسية والاقتصادية والاجتماعية ومختلف المستويات المحلية والوطنية والإقليمية والدولية.

لقد تضمن الميثاق الأوروبي للتراث المعماري لعام 1975 (إعلان أمستردام) أفكارا حول أهمية التراث المعماري ومبررات الحفاظ عليه تستحق الذكر، فقد اعتبر أن التراث المعماري، بما يمثله كشاهد من الماضي، يشكل بيئة ضرورية لتوازن الإنسان ورفقيه، وأنه رأس مال روحي وثقافي واقتصادي واجتماعي ذو قيمة لا يمكن تعويضها، وأن المجمّعات التاريخية تسهم في التوازن المتناسق للمجتمعات، كما أن للتراث المعماري قيمة تربوية أساسية وحاسمة.

وفعلا فإنه لا بد من التسليم بضرورة الحفاظ على الاستمرارية التاريخية في البيئة التي تحيط بنا إذا ما أردنا الحفاظ على إطار معيشي يمكّن الأفراد من ترسيخ هويتهم والشعور بالأمان، على الرغم من التغيرات الاجتماعية الحادة التي تعترضهم.

إننا نشاهد ظهور نوع جديد من التخطيط الحضري يسعى إلى استعادة الأماكن المغلقة وبعث أبعادها الإنسانية وضمان تداخل الوظائف والتنوع الاجتماعي والثقافي، وهي سمات كانت تميز النسيج الحضري للمدن القديمة. كما نشهد تنامي الوعي بأن الحفاظ على المباني القديمة من شأنه أن يساعد على ترشيد استهلاك الموارد والحد من التبذير، وهي من بين المسائل المهمة التي يواجهها

مجتمعنا اليوم. فقد بات من المؤكد أنه بالإمكان توظيف المباني التاريخية توظيفاً جديداً يتماشى مع احتياجات الحياة المعاصرة. علاوة على ذلك، تحتاج عملية الصون إلى فنانين وحرفيين مؤهلين تأهيلاً عالياً ولديهم مهارات ومعارف ينبغي علينا الاستفادة منها ونقلها إلى الأجيال القادمة. وأخيراً، فإن إعادة تأهيل السكن الحالي يساعد على الحد من تآكل الأراضي الزراعية وتفادي النزوح السكاني، أو التقليل منه بشكل ملحوظ، مما يمثل ميزة عظيمة لسياسة المحافظة على التراث.

إن الدول العربية مدعوة، كما فعلت أوروبا في عام 1975، إلى وضع خطة عمل خاصة بها في أقرب الآجال لبناء الأطر المؤسسية والقانونية والمالية اللازمة لتنفيذ سياسة جماعية في مجال صون التراث وتثمينه. وفي هذا الصدد بادرت الألكسو إلى اتخاذ خطوة أولى هامة تتمثل في إنشاء "مرصد التراث المعماري والعمراي في البلدان العربية".

إن الاستيعاب الصحيح لمدلول المعلم التاريخي وأهمية صونه لا يمكن أن يتم بمعزل عن سياق فكري محدّد ورؤية ملائمة للذات وللعالَم وللمقتضيات تحقيق التنمية المستدامة التي تعتبر الثقافة مفتاحها.

## الفصل الثاني

# القضايا والإشكاليات المتعلقة بالتخطيط العمراني والموكمة [دراسات حالة لبعض المدن العربية]

## المغرب العربي - مدينة فاس



(باحة جامع القرويين . المصدر: بوابة جامعة القرويين)

### 1. الدعم السياسي وإنشاء الجهاز الإداري والتنظيمي للحفاظ على التراث العمراني في المغرب تحت الحماية الفرنسية

يعود الفضل في الاهتمام بالفضاء التاريخي في المغرب كتراث ثقافي، في عهد الحماية الفرنسية، إلى المارشال هوبير ليوطي Louis Hubert Gonzalve Lyautey أول مقيم عام بالمغرب من 1912 إلى 1925، الذي أوجد الآليات الإدارية والتنظيمية للحفاظ على التراث المادي وغير المادي خلال فترة الاستعمار.

## 1.1. "نظرية ليوطي"

يرى ليوطي Lyautey أنه لا يمكن اعتبار التحضر الذي ولّده الاستعمار "استمرارية وتوصلا للفضاء التاريخي القائم، أي المدينة العتيقة. إذ يتعين على الأشكال العمرانية الجديدة أن تستجيب لمنطق التجاور أي الفصل بين نظامين فضائيين يعبران عن علاقات اجتماعية غير متطابقة (مسافة ثقافية، ومسافة مادية)"<sup>43</sup>. وعليه، فإن المقاربة التراثية التي وضعها Lyautey تسلم بمبدأ "فصل المدينة الأصلية عن المدينة الأوروبية الجديدة".

تبلورت هذه النظرية في مجال الصون، من الناحية الإدارية والتنظيمية، من خلال الظهير الشريف بتاريخ 26 نوفمبر 1912 بشأن المحافظة على الآثار التاريخية والتسجيل، والقرار الذي أصدرته "المقامية العامة" في 28 نوفمبر 1912 حول تأسيس مكتب الآثار والفنون الجميلة والأبنية التاريخية، وتعيين المهندس المعماري موريس دلونل Maurice Tranchant de Lunel على رأسه. وقد تم استكمال هذا الظهير وتحديد مضمونه بالظهير الصادر في 13 فبراير 1914، والذي يعتبر أول نص يعنى بصون التراث التاريخي في المغرب،<sup>44</sup> كما تم إنشاء هيئة التخطيط الحضري في عام 1914 تحت إشراف المهندس المعماري هنري بروست Henri Prost.

و بموجب هذا الظهير الملكي تقوم الإدارة باتخاذ تدابير صون وتصنيف المعالم التاريخية وتسجيلها في قائمة الجرد، مما يمكن الأجهزة الفنية والإدارية المعنية من إصدار القرارات التي تحدد الالتزامات الخاصة بحماية الفن والهندسة المعمارية والتقاليد والتاريخ.

تشمل الواجبات القانونية المذكورة في الظهير ما يلي:

- حظر التغيير أو التجديد أو البناء في محيط المعالم التاريخية.
- احترام حجم وارتفاع المباني لحماية النسيج الحضري المحيط بها.
- احترام العمارة التقليدية والعناصر الزخرفية الموجودة في الواجهة والسقوف.
- استخدام مواد البناء المستعملة محليا للحفاظ على الأنماط المعمارية الأصيلة.
- مراقبة اللوحات الإعلانية في الفضاء التقليدي أو منعها.

وقد تكفل ليوطي Lyautey بتوفير الدعم السياسي لحماية التراث بعزيمة نادرة وخبرة فائقة في المسائل الإدارية. ودعا مكتب الآثار والفنون الجميلة والأبنية التاريخية إلى التعاون مع هيئة التخطيط الحضري و"النظر إلى الحي بأكمله كمعلم تاريخي لا تُنتهك حرمة في شكله أو ماضيه".

Abdelmajid Arrif: « Le paradoxe de la construction du fait patrimonial en situation coloniale, le cas du Maroc ».In Figures de l'orientalisme en architecture. 43 RMMM 1994

44 عبد الرحيم قاسو، المغرب: ترسانة قانونية في تطور. ( الشابكة)

وأخيرا تعززت نظرية ليوطي Lyautey بالظهير الصادر في يوليو 1945، والذي يحل محل ظهير 1914. وبموجبه أصبحت "المدن القديمة والعمارة الجهوية" مشمولة بالإجراءات التنظيمية المتعلقة بالحماية، وأصبح بذلك المعلم التاريخي مُندمجا في النسيج الحضري. هذه الدعوة إلى اعتبار المنطقة التاريخية منطقة صون متكاملة، تذكّرنا بما يسمى اليوم بالمنظر الحضري التاريخية على النحو المشار إليه في توصية منظمة اليونسكو الصادرة في عام 2011.

## 2.1. نظرية Ecochard

كانت نظرية ليوطي Lyautey التي تفترض الفصل بين المدينة العتيقة والمدينة الأوروبية، والتي أُعلن عنها في عام 1912، والنظم القانونية التي تم سنّها للصون المتكامل للمدينة وطرزها المعماري، موضع توافق في الآراء بين المهندسين المعماريين والمخططين والإدارات إلى غاية 1940<sup>45</sup>. إن نجاح الدعم السياسي، الذي يجب أن تقاس فاعليته الإدارية بأثر رجعي، لم يصمد في عام 1943 أمام نظريات التخطيط الجديدة المبيّنة في ميثاق أثينا. ففي الاجتماع الذي عقدته اللجنة الاستشارية لحماية المدن العتيقة والمناطق المصنفة في 26 نوفمبر 1949، اختلف المهندس المعماري والمخطط الحضري ومدير إدارة التخطيط ميشيل إيكوشار Ecochard مع مفتش الأبنية التاريخية هنري ترّاس Terrasse حول تحديد صلاحياتهما. وبالإضافة إلى هذا النزاع حول الصلاحيات كان إيكوشار Ecochard يندد بالمفهوم التراثي لدائرة الآثار والفنون الجميلة والأبنية التاريخية، مطالبا بتحويل إدارته صلاحية "القيام بفتح منافذ داخل المدينة العتيقة لحركة المرور، وتطبيق معايير جديدة للبناء والنظافة، والقطع مع الطراز المعماري المغربي (من خلال فرض فتحات كبيرة على الواجهات)"<sup>46</sup>. وقد ولّد هذا الخلاف بين إيكوشار M.Ecochard الذي يمثّل الحداثة كما صورها ميثاق أثينا، وبين ترّاس H.Terrasse المدافع على التقاليد والصون التاريخي جدلا حادا حول مدلول التخطيط الفضائي ودور السلطات السياسية.

وهكذا تمت بلورة رؤية جديدة للتقاليد والمنظر التاريخية...

## 2. الدعم السياسي في عهد المغرب المستقل

بحلول الاستقلال، كان الدعم السياسي للحفاظ على التراث المعماري يخضع لظروف كيفتها ظاهرة تسارع وتيرة التحضر ومسارات النمو والتنمية الاقتصادية. ويمكّن التذكير بالأوضاع السابقة من تقدير حجم التحولات المسجلة خلال الفترة الانتقالية بين المغرب ما قبل الحماية، والمغرب تحت الحماية، والمغرب المستقل.

Abdelmajid Arrif, Ibid 45  
Abdelmajid Arrif, Ibid, pages 161-163 46

2. 1. كان المغرب في فترة ما قبل الحماية، بلد التقاليد الريفية المجتمعية، يضم إحدى وثلاثين مدينة عتيقة<sup>47</sup> تمارس فيها الأوساط السياسية والدينية نفوذها، وتتنظم في كنفها الأنشطة الحرفية والحياة التجارية، وتزدهر فيها الفنون والآداب والعلوم. وقد كانت هيمنة المدن على الريف تُمارس من خلال العواصم الثلاث التي يشهد التاريخ بأهميتها: مراكش وفاس ومكناس، بالنسبة إلى المناطق الداخلية كافة، والمدنيتين الساحليتين: طنجة وتطوان، بالنسبة إلى الولايات والمناطق الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

2. 2. كرس انتصاب الحماية الفرنسية في عام 1912 التحويلات المجالية التي بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر بفعل تحوّل وجهه الأنشطة الاقتصادية نحو ساحل المحيط الأطلسي. إن التطور المستمر للمحور الحضري والساحلي، الدار البيضاء - القنيطرة (ميناء ليوطي Lyautey) قد أحدث تغييرا جذريا في أوضاع المناطق الداخلية، فقد تم استبدال شبكة السكك الحديدية التي كانت تتجمع باتجاه فاس ومراكش بمحور حضري جديد يربط بين الدار البيضاء والقنيطرة التي سوف تشهد نموًا متواصلًا إلى غاية مطلع القرن الحادي والعشرين.

3. 2. تسبب النمو السكاني المستمر منذ عام 1950 في تحول عميق ومتواصل لفائدة المدن. ومن المتوقع أن يستمر معدل التحضر في الزيادة بشكل ملحوظ بسبب النمو السكاني الداخلي والهجرة من الريف إلى المدن بين عامي 2015 و2025.

#### 4. 2. مصير المدن التاريخية في المرحلة الانتقالية ما بعد فترة الحماية

خلال هذه الفترة، تكفلت وزارة الثقافة بالإشراف على الدعم السياسي للتراث التاريخي. وقد لاحظ عبد الرحيم قاسو، في دراسة الحالة التي أعدها عن فاس، أن الوزارة تشكو من ضعف الموارد البشرية، وتتعرض للمنافسة من قبل السلطات الجهوية والمحلية، وتُلاقى معارضة من قبل أرباب البيوت في المدن العتيقة وأصحاب المصالح الخاصة.

وبالإضافة إلى ذلك، كان على وزارة الثقافة أن تأخذ في الاعتبار تعدد المتدخلين في مجالات التراث والعمارة، الذي يحدّ من قدرتها على السيطرة على سير الأمور في مجال تخصصها. وفي هذا السياق، يلاحظ عبد الرحيم قاسو أن الوالي يقوم بدور مهم بسبب تعيينه من قبل الملك.

ونظرا لمبدأ السلطة الهرمية، فإن الوالي، وخاصة الجيل الجديد من الولاة الذين تخرجوا من المؤسسات التعليمية العليا، هم الذين يدعمون، على أرض الواقع، مشاريع التنمية المحلية مثل العمليات التي أنجزت في الرباط وطنجة والدار البيضاء.

47 هي: مراكش والدار البيضاء وفاس ومكناس وسلا وتطوان وتارودانت والرباط ووجدة وتزنيت والصويرة (موكادور) وبنو ملال وأسفي ووزان وطنجة وشفشاون وصفرو وتازة والعرائش وخنيفرة ومول اي إدريس زرهون وأبو الجعد وفكيك وقصبة تادلة وأزمور والقصر الكبير ودبدو والجديدة (مازاغان) والبهليل وأصيلة ودمنات.

وغداة الاستقلال، أصبحت الإدارة الحضرية من مشمولات البلدية، ويخضع قرار رئيستها لرأي الوكالة الحضرية الجهوية المختصة، وهي التي تتكفل بالإدارة الفنية الحقيقية. وطبقا لهذا الإجراء البلدي والفني والإداري، فإن خطة التهيئة تعتني بالمدن القديمة والمدن الجديدة التي أنشأتها الحماية، مع إيلاء اهتمام خاص بالمواقع التي فيها معلم تاريخي مسجل/ مصنّف.

وفي نهاية المطاف، فإن القطاع الثقافي يعتمد على الاهتمام الذي يخصصه به العاهل المغربي.

### 3. الحوكمة المؤسسية

#### 1.3. وزارة الثقافة

في عام 1985، أحدثت وزارة الثقافة مديرية التراث الثقافي، التي تضم ثلاثة أقسام للدراسات والتدخلات التقنية، وجرد وتوثيق التراث، والمتاحف. وفي عام 1994، أعاد وزير الثقافة تنظيم هذه الإدارة، وذلك من خلال الفصل بين المستويين الوطني والجهوي. فعلى المستوى الجهوي، لا بد من المرور عبر المصالح الجهوية للثقافة والمفتشيات الجهوية للمباني التاريخية والمواقع. ويوجد إلى جانب المصالح والمفتشيات الجهوية مراكز دراسات وبحوث متخصصة في مواضيع محددة، مثل الدراسات العكويّة، والرسوم الصخرية، والعلاقات المغربية - البرتغالية، والعمارة الأطلسية، بالإضافة إلى مركز للتراث غير المادي وخمسة عشر متحفا عاما أنشئت في معظمها فيما بين 1920 و1930. كما تم في الآونة الأخيرة فتح متاحف خاصة في كل من الدار البيضاء والرباط ومراكش. ونظرا للصعوبات التي ظهرت على صعيدي إدارة المتاحف والمعارض العامة، فقد تقرر إنشاء جهاز وطني مستقل للمتاحف.

#### 3.2. وزارة التعمير وإعداد التراب الوطني

تمارس وزارة التعمير وإعداد التراب الوطني صلاحياتها:

- على الصعيد الوطني من خلال مديرية التعمير في الرباط والتي تتكفل بوضع مخططات التهيئة ووضع أنظمتها القانونية.
- وعلى المستوى الجهوي عن طريق الوكالات الحضرية، وهي مؤسسات عمومية مستقلة لديها صلاحيات النظر في طلبات الحصول على تصاريح البناء والهدم نيابة عن الولاية والبلدية.

تضطلع هذه البنية التقنية والإدارية بمسؤولية حماية التراث المعماري في إطار مخططات التهيئة ومجال اختصاصاتها. فالوكالات الحضرية مكلفة بالتخطيط العمراني سواء فيما يتعلق بالدراسات اللازمة لإعداد المخططات التوجيهية الخاصة بالتهيئة الحضرية أو إعداد وثائق التعمير ومتابعة التنفيذ.

### 3.3. وزارة الداخلية

يعطي الميثاق الجماعي صلاحيات واسعة للجماعات المحلية، مع شرط خضوعها المبدئي للمراقبة الفنية من قبل الوكالات الحضرية بخصوص الإجراءات الخاصة بالبناء.

ويرى عبد الرحيم قاسو أن هذه اللامركزية في صنع القرار، التي تم بفضلها إحراز تقدم ديمقراطي في إدارة الأراضي الجماعية، قد ولدت اضطرابا بسبب كثرة الأطراف المتدخلة وهشاشة تحالفات الأحزاب السياسية.

وفي هذا السياق، فإن "المبادرات التي تقوم بها الحكومة المركزية، وخاصة تلك التي تأتي من القصر، يكون مرحبا بها لأنها تضمن الفاعلية".

♦ تتولى وكالات التنمية الإقليمية، التي أنشئت مؤخرا في المناطق الثلاث الشمالية والجنوبية والشرقية، وهي مناطق ذات نمو بطيء، الإشراف على إدارة المشاريع (البنية التحتية والمعدات)، وتوفير الدعم للمجتمعات المحلية والتدريب. وهي تتمتع بحرية كبيرة للعمل نظرا لموازنتها المستقلة.

#### ♦ شركات التنمية المحلية

يسمح الميثاق الجماعي بإنشاء شركات للتنمية المحلية. وهي مؤسسات تجارية تمارس نشاطها كشركات ذات مسؤولية محدودة، تملك رأسمالها جمعية محلية واحدة أو أكثر. ويعتبر عبد الرحيم قاسو هذا التطور "مبتكرا" لأنه سيمكن من "إدارة أكثر مهنية في إطار أحكام القانون الخاصة بالشركات ذات المسؤولية المحدودة". وهو ما يوفر مرونة كبيرة في التصرف، ما دامت الجماعات المحلية هي المساهم الرئيسي في تلك الشركات، بالإضافة إلى أن رواتب الموظفين فيها لا تخضع لسلم مرتبات الوظيفة العمومية.

وعلى سبيل المثال فقد مكنت شركة الدار البيضاء للتراث، من حشد الشركاء من القطاعين العام والخاص وإطلاق مبادرات تهدف إلى حماية الفضاءات التاريخية وتثمينها.

### 3.4. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

تشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على المؤسسة الوقفية التي تدير الأحباس، وهي مؤسسة تاريخية تتولى الإشراف على تراث ذي بال في المدن التاريخية وتملك موارد مالية هامة. ولكن عبد

الرحيم قاسو يرى أن مشاركة هذه المؤسسة في عمليات صون المدن التاريخية ينبغي أن تكون أكثر من المستوى الحالي.

### 5.3. المؤسسات غير الحكومية

مكّن التطور الذي شهدته الحوكمة الحضرية من بروز جمعيات المجتمع المدني التي تنشط بجدارة على المستوى المحلي. فقد أسست في الدار البيضاء جمعية "ذاكرة الدار البيضاء"، وفي طنجة جمعية "البوغاز"، وفي تطوان جمعية "دار الهندسة المعمارية"، وفي مكناس "جمعية إنقاذ المدينة والمآثر التاريخية بمكناس".

### 4. الجهاز التشريعي والقانوني والتنظيمي

إن الترسنة القانونية للصون والتخطيط تمرّ حالياً بمرحلة انتقالية حيث تجري مراجعات للقوانين واللوائح.

#### 1.4. القانون 22.80 الصادر في 25 ديسمبر 1980 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية

#### والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات

يمكّن هذا القانون من تسجيل المعالم التاريخية، غير أنه لا يحدّد آثار هذا الإجراء في المناطق المتاخمة لها، أي النسيج العمراني الذي يحيط بالمعالم التاريخية. ويرى المهنيون أن هذا القانون قد تجاوزه الزمن، لذلك فقد تم وضع مشروع قانون إصلاحي يشمل:

- مشروع ميثاق وطني حول الصون والحماية والتثمين...
- إنشاء مناطق محمية تضم المجمعات التاريخية والتقليدية والمناظر الطبيعية الثقافية...

#### 2.4. القانون 12.90 الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم 1.92.31 بتاريخ 17 يونيو 1992

#### المتعلق بالتعمير

ينظم هذا القانون التخطيط الفضائي والتخطيط الحضري. ويكمّله القانون 25.90 الصادر بتنفيذه الظهير الشريف رقم 1.92.7 المؤرخ في 17 يونيو 1992 المتعلق بالتجزئات العقارية والمجموعات السكنية وتقسيم العقارات.

وفي هذا الإطار القانوني، تخول المادة 19 من القانون 12.90 ترسيم حدود المناطق التي لها قيمة

تراثية، أي "الأحياء والآثار والمواقع التاريخية أو الأثرية والمواقع والمناطق الطبيعية كالمناطق الخضراء العامة أو الخاصة الواجب حمايتها أو إبراز قيمتها لأغراض جمالية أو تاريخية أو ثقافية وكذلك القواعد المطبقة عليها إن اقتضى الأمر ذلك".

إن ترسيم حدود المناطق التي لها قيمة تراثية في مخططات التهيئة، وتفصيل الترتيبات التنظيمية المحددة بشأنها، يعتبران دون شك تطوراً إيجابياً في مجال التخطيط الإداري لممتلكات التراث. كما أنه لا أحد ينكر أن الزيادة في الميزانية المخصصة للدراسات قد مكنت من تحسين عملية التخطيط.

## 5. الجهاز المالي

تمثل ميزانية وزارة الثقافة (حوالي 60 مليون يورو) 0.3% من الميزانية العامة للدولة. وللتوضيح أفاد عبد الرحيم قاسو أن تكلفة المسرح الكبير في الدار البيضاء، الذي هو قيد الإنشاء، تمثل ضعف الميزانية السنوية للوزارة. وفي هذا السياق، كانت وزارة الثقافة قد بادرت بتحديد المشاريع الخاصة بكل منطقة، والميزانيات والشركاء المحتملين. وهي مبادرة مثيرة للاهتمام من شأنها أن تؤدي إلى تخصيص ميزانيات هامة للسنوات القادمة. ويجدر التنويه بصندوق الحسن الثاني الممول من خلال خصخصة المؤسسات العامة لإعادة تأهيل المدينة القديمة في الدار البيضاء...

لقد تم حشد الفاعلين الخواص والصناديق الأجنبية الموجودة في المغرب في إطار مشاريع التنمية الجهوية التي يتابعها جلالة الملك عن كثب. وقد مكّن ذلك من إطلاق دراسات إعادة تأهيل استهدفت المجمّعات المحلية.

ويرجو عبد الرحيم قاسو أن تقرر الوزارات المسؤولة عن الاقتصاد والمالية في المغرب، في إطار اعتبار التراث عنصراً هاماً من عناصر التنمية، الإعفاء من الرسوم والضرائب (أو تخفيضها) لفائدة مشاريع التراث، على غرار ما هو معمول به بالنسبة إلى السكن الاقتصادي و النشاط الزراعي على سبيل المثال.

لا شك أن كل هذه المساعي الرامية إلى التعبئة المالية لفائدة التراث تستحق الإشادة والتقدير، علماً بأن عبد الرحيم قاسو لاحظ أن هذه العملية تفتقر أحياناً إلى توافق سياسي لإطلاق مشاريع واسعة النطاق. وبالتالي، فإن مشاركة الإدارات المحلية غالباً ما تقتصر على صيانة المباني التي تستعملها.

## 6. مشروع التراث المتعلق بإعادة تأهيل السكن القديم والتجديد الحضري

منذ إنشاء مكتب الآثار والفنون الجميلة والأبنية التاريخية في عام 1912، وإحداث مديرية التراث الثقافي بوزارة الثقافة في عام 1985، برهنت السلطات الحكومية على وعيها بأهمية المعالم التاريخية والتعبيرات الثقافية في المملكة المغربية. وقد تم، خلال قرن من الزمن، تنفيذ العديد من المشاريع الخاصة بالصون والترميم والتثمين كللت بالنجاح. ويرى قاسو أنه آن الأوان لتجاوز العمليات الظرفية، التي يتم تنفيذها هنا أو هناك، إلى مشروع متكامل لإعادة تأهيل السكن القديم، أو لإعادة الإحياء الحضري للمدن التاريخية، يُنفذ في إطار مؤسسي وقانوني ومالي متماسك للتعمير والتهيئة الترابية.

## 7. خطة العمل

### 1.7. مسألة السكن

لم يتم التوصل إلى حلول مرضية لإعادة تأهيل السكن القديم وإعادة تهيئة الأحياء وترميم المباني المتداعية، ويرجع ذلك أساساً إلى ما طرحه الملكية العقارية من مشاكل قانونية، تتفادى السلطات التدخل فيها.

ومع ذلك، فإن السلطات قد أثبتت قدرتها على التدخل لإعادة تهيئة الطرقات والبنية التحتية وإعادة تأهيل المرافق العامة وترميم المعالم الأثرية.

وتجدر الإشارة إلى تجربة وكالة التنمية ورد الاعتبار لمدينة فاس التي وضعت منهجية عملية لمعالجة مسألة المباني المتداعية، حيث بادرت بتوخي مقاربة ذات شقين:

- اجتناب خطر سقوط المباني بدعم هياكلها القائمة.
- تقديم المساعدة الفنية لأصحاب المنازل أو المأجرين للقيام بالإصلاحات الضرورية وتزويدهم عند الاقتضاء بمواد البناء.

ومع الأسف، لم يتم تعميم هذه التجربة، التي أجريت في فاس منذ ربيع قرن، على سائر المدن التاريخية المغربية.

وعليه، فإن تنفيذ خطط العمل المتعلقة بالسكن القديم يفترض إيجاد حل لمسألة الملكية العقارية.

## 2.7. الطرقات ومختلف الشبكات والفضاءات العامة

إن إعادة تأهيل الطرقات ومختلف الشبكات الأخرى وتهيئة الأماكن العامة (الميادين والساحات والحدائق) لا يسبب أية مشاكل، ما دامت التمويلات والخبرة متاحة. وقد أشار عبد الرحيم قاسو إلى أن تبليط شارع للمترجلين، أو توفير الإضاءة للشوارع، أو بناء حديقة على سفح جدار، لها آثار مرئية تستأثر باهتمام السلطات المحلية. ومع ذلك، فإن إعادة تهيئة الطرقات ومختلف الشبكات الأخرى والأماكن العامة لا تشكل، في الوقت الراهن، خطة عمل تنفذ على مستوى وطني، ولم تتم إلا في بعض المدن العتيقة، مثل الدار البيضاء وطنجة وفكيك.

## 3.7. المعالم التاريخية والأنسجة الحضرية

لقد تم القيام بتدخلات كانت ناجحة نسبيا في مجال حماية معالم تاريخية مدنية ودينية، عامة وخاصة، وصونها وترميمها من قبل وزارة الثقافة ووزارة الأوقاف اللتين استثمرتا في المقام الأول في المدن التاريخية الكبيرة، كالرباط وفاس وتارودانت، حيث أطلق جلالة الملك مشروع إعادة ترميم وتأهيل واسعة استهدف ثمانية وعشرين مبنى.

كما استثمرت المؤسسات الخاصة (بن جلون، كريم العمراني، "أونا") في إعادة تأهيل وتثمين بعض المتاحف والمحلات الحرفية والفنادق، مستفيدة من التشجيع الذي تلاقيه الأعمال الخيرية. ويعتبر هذا النوع من التدخل واعداء سواء من قبل الجمهور أو من طرف الأوساط السياسية.

## 4.7. الأسواق والبازارات

تشهد الأسواق والبازارات في المدن التاريخية انتعاشا اقتصاديا نتيجة الطلب الناتج عن السياحة و/أو انكماشاً على صعيد الأنشطة التجارية والخدمات التي يحتاجها السكان في حياتهم اليومية. في المدن السياحية الكبرى، كمراكش وفاس والرباط، تسبب الانتعاش في تجميل الأسواق والبازارات بشكل يعتبره عبد الرحيم قاسو "مفرطاً في الجمالية على نحو متباه بعنوان أصالة سطحية". ونظراً للنجاح الذي حققته عملية الإنعاش الاقتصادي هذه، فقد بادر أصحاب البازارات إلى شراء المنازل المجاورة وتحويل الطابق الأرضي إلى محلات تجارية جديدة. وفي هذه الحالة يتعرض النسيج الحضري لخطر "تحول المدن القديمة إلى سوق" «soukalisation»، مما يحدث فيها تغييرات عميقة، من بينها إجبار السكان على المغادرة من جراء السياحة المفرطة.

في المدن التاريخية التي لم تشتهر بنشاطها السياحي، مثل الدار البيضاء أو تطوان، تعرض الأسواق مجموعة مختلفة من المنتجات كالملابس الجاهزة ومحافظ اليد والحقائب والآلات الموسيقية وغيرها... إن هذا التطور الذي شهدته أسواق المدن العتيقة لم يخضع لأية ترتيبات يحددها مخطط للهيئة العمرانية وصون التراث. وهو ما يثير موضوع المسؤولية المؤسسية عن صون التراث العمراني. ومع ذلك فقد اضطلعت السلطات بمسؤولياتها في حالات محددة، مثل شارع القنصل في الرباط، وساحة لالة يدونة في فاس. كما سمح برنامج "رواج"، الذي أشرفت وزارة التجارة على تنفيذه في كافة المدن، بتعبئة التجار لتحسين واجهات محلاتهم نظير مساعدة تقنية ومالية.

#### 5.7. المرافق الاجتماعية والثقافية والتعليمية والصحية

خلال فترة الحماية، تم إنشاء مرافق في المدن التاريخية في مبانٍ قديمة تم تحويلها أو الزيادة في ارتفاعها، إذ لم يكن بالإمكان الحصول على أراضٍ شاغرة، أو مبانٍ متداعية، لبناء مرافق جديدة، خاصة وأن اللجوء إلى المصادر لم يكن يتم إلا في حالات نادرة جدا.

#### 6.7. مرور السيارات ومواقفها

تم طرح إشكالية دخول السيارات إلى المدن التاريخية منذ عام 1950 من قبل M.Ecochard، ولم يتم التوصل إلى أية حلول مرضية في إطار التخطيط الحضري، بل تم تسجيل بعض الانتكاسات خاصة في فاس عندما تمت تغطية الوادي الذي يمثل الطريق النهري الذي سمح بتطوير هذه المدينة الحداثكية الفريدة من نوعها.

ولقد تبين الآن أنه يجب التسليم بأن السيارات لا يمكنها الوصول إلى كافة الأماكن في المدينة القديمة. وهذا يفترض أن يتضمن مخطط الهيئة العمرانية للمجمعات التاريخية الحدّ من استخدام السيارات داخل المناطق الحضرية، وتأمين مسالك للمارة، وتخصيص مواقع محدّدة لوسائل النقل العام ومواقف للسيارات يسهل الوصول إليها.

إن التخطيط لتوفير إمكانية الوصول إلى المدن التاريخية يتطلب تشاورا فعالا بين الوزارات المسؤولة عن التخطيط العمراني والإسكان والثقافة. وحيث إنه قد تم مؤخرا تحقيق إنجازات هامة (مواقع خاصة للترامواي والحافلات) حسنت الأوضاع المعيشية في الدار البيضاء والرباط وأغادير، فمن المؤمل أن ينسج المخططون، مستقبلا، على هذا المنوال في بقية مراكز المدن التاريخية المغربية.

## 8. البعد الاجتماعي للفضاء التاريخي

### 1.8. التخطيط التشاركي

شجع دستور 2011 مشاركة المواطنين في الحياة السياسية لمدنهم. وقد أصبح إشراك الجمعيات قاعدة ملزمة بالنسبة إلى جميع المشاريع العامة. ولكن دور المجتمع المدني يختلف من حالة إلى أخرى حسب قدرته على التعبئة والإقناع بالمقترحات التي يقدمها. ففي بعض المدن، كالدار البيضاء وطنجة وآسفي، لوحظ أن نشاط الجمعيات غالباً ما يكون أكثر من نشاط السلطات المسؤولة عن التراث.

- أصبح دور الوسيط، الذي كان يقوم به الوجهاء المحليون، من مشمولات الجمعيات التي أصبحت بمثابة قناة اتصال بين السلطات والسكان، والتي يعتبر قاسو أنها تتمتع بمصدقية أكثر من الأحزاب السياسية على المستوى المحلي.

- في عام 2005، انطلقت المبادرة الوطنية للتنمية البشرية بعد الخطاب الملكي في 18 مايو 2005، وهي مشروع تنموي يهدف إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للفئات الفقيرة، ويرتكز على ثلاثة محاور أساسية:

• التصدي للعجز الاجتماعي بالأحياء الحضرية الفقيرة والجماعات القروية الأشدّ خصاصة.

• تشجيع الأنشطة المدرة للدخل القارّ والمتيحة لفرص الشغل.

• العمل على الاستجابة للحاجيات الضرورية للأشخاص الذين هم في وضعية صعبة.

وبفضل هذه المبادرة تم تحقيق العديد من مشاريع البنية التحتية والمرافق المحلية القريبة من السكان في المدن التاريخية. وقد أفرزت هذه المبادرة مشاركة متدخلين تمكنوا بفضل فاعلية أنشطتهم من تحريك المسؤولين المحليين لتحقيق غايات محددة.

- يقوم أمناء التعاونيات المهنية والحرفية بدور مهم في مختلف القطاعات الحرفية والتجارية في أسواق المدن التاريخية، إلا أن قاسو يعتبر أن عضويتهم في الغرف المهنية غالباً ما تؤدي إلى الزجّ بهم في المجالات السياسة أو الحزبية، الأمر الذي يحدّ من قدرتهم على الاضطلاع بمهامهم النقابية.

- إن الوداديات السكنية وأمناء المباني ليسوا منظمين بما فيه الكفاية لفرض أنفسهم كأطراف لها تأثيرها في المشاريع الحضرية.

## 2.8. تطور التمازج المجتمعي

كانت قصور ومساكن المدن القديمة، المتداخلة في بعضها البعض، تدعم التمازج الاجتماعي، لأن التشكل العمراني للمجمعات التاريخية في المغرب لم يكن يؤدي إلى الفصل الفضائي تبعاً لتفاوت مستويات الدخل.

- وقد بدأت ظاهرة "تكوّخ" المدن القديمة في المغرب منذ عام 1970 عندما بدأت البرجوازية التقليدية تغادر مساكن الأجداد للانتقال إلى منازل في المدينة الجديدة. وهكذا وصلت مرحلة التمازج الاجتماعي إلى نهايتها وأصبح سكن المدينة القديمة يتسم بالفقر والهشاشة والتدهور.

إن الوقوف على هذا التطور الأخير لا يمنعنا من أن نلاحظ، مع عبد الرحيم قاسو، أن المدينة العتيقة لا تزال تشكل "فضاء يوفر للمرء مأوى ومعيشة بتكاليف منخفضة للغاية، وأنها تواصل إيواء طبقة شبه عمالية تعمل بالمياومة في القطاع غير الرسمي وفي التجارة بجميع أشكالها".

- تشكل ظاهرة الاستطباق الحضري مصدراً آخر لفقدان صفة التمازج الاجتماعي. فقد تحولت المدن العتيقة، في مراكش وأصيلة وأزمور، إلى فضاءات تستقطب مقيمين غرباء جدد، غالباً ما يكونون في سن التقاعد. وهكذا يتحول السكن التقليدي إلى إقامات ثانوية أو بيوت ضيافة، متسبباً، كما يلاحظ عبد الرحيم قاسو، في ظهور جيوب ثرية في مدن تاريخية يكتسحها الفقر.

وفي مواجهة هذا التطور ذي الوجهين: التكوّخ/ الاستطباق، كيف يمكن إعادة بناء التمازج الاجتماعي؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه عبد الرحيم قاسو الذي يرى أن مشروع التراث، على النحو الذي هو عليه حالياً، لا يعالج بصورة ملائمة التطورات الاقتصادية والاجتماعية.

## 3.8. تطور العمارة التقليدية والتجديدات التقنية

إن خبرة حرفيي المغرب معترف بها على نطاق واسع من قبل المهندسين المعماريين الذين يُشيدون باستخدام أصناف الحرف والمهن التقليدية في هذا البلد. ويمكننا الاطلاع في هذا الشأن على الكتاب الممتع الذي أنجزه أندري باكار (André Paccard) بعنوان **Le Maroc et l'artisanat traditionnel islamique dans l'architecture** (المغرب والصناعة التقليدية الإسلامية في الهندسة المعمارية)، (1983).

ومع ذلك يشير عبد الرحيم قاسو إلى أن الابتكارات التقنية تنافس هذه الخبرات وتضعها في موقع حرج يهددها بالانقراض بسبب أساليب البناء غير الخاضعة لترتيبات منظمة في المدن التاريخية، حيث إنه يمكن التجديد باستعمال مواد الإسمنت والعارضات الحديدية بدلا من إعادة التأهيل باستخدام مواد البناء التقليدية.

فميزان القوى بين الحرفية التقليدية والحداثة التقنية التي تركز عليها الشركات ليس في صالح الهندسة المعمارية التقليدية، أو حتى العمارة العامية، التي قد تفقد أهليتها إذا لم تحظ أساليب بناء الحرفيين بالتشجيع في خطة العمل التراثية.

## 9. نشر ثقافة التراث

لو أخذنا تاريخ العمارة والعمران في الاعتبار، لوجدنا أن المغرب هو، في آنٍ واحد، مهد للفنون التقليدية ومختبر للهندسة المعمارية الحديثة. ممّا يجعلنا نتساءل هل تم الاعتراف بالمعارف والخبرات من قبل أنظمة التعليم العالي في المغرب الحديث؟ وكيف تم نشر ثقافة التراث في المجتمعات المغربية؟ وكذلك هل تم نقل الخبرة المهنية المنسوبة إلى المهندسين المعماريين ومخططي المدن القادمين من الغرب، سواء من مارسوا مهنتهم خلال فترة الحماية أو الذين لا يزالون يمارسونها حاليا من خلال الشركات الدولية، إلى الأجيال الجديدة؟

### 1.9. تدريس الهندسة المعمارية

استعرض عبد الرحيم قاسو أوضاع تدريس الهندسة المعمارية والعمران في المغرب مشيرا إلى أن إضفاء الطابع المؤسسي العام أو الخاص كان حديث العهد نسبيا:

1980: إنشاء المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية بالرباط، وهي مؤسسة عمومية افتتحت مؤخرا فروعها لها في كل من تطوان وفاس ومراكش. وتتضمن البرامج الدراسية بعض القضايا المتعلقة بالتراث، كما يُمكن للمهنيين الشبان الالتحاق بماجستير التراث الذي يتمُّ بالشراكة مع مدرسة شايبو بباريس (L'Ecole de Chaillot Paris).

2000: إنشاء المدرسة العليا للهندسة المعمارية بالرباط، وهي مؤسسة خاصة تتضمن برامجها وحدة إلزامية حول التراث.

2012: إنشاء مدرسة للهندسة المعمارية في الجامعة الدولية بالرباط- سلا، وهي مؤسسة خاصة، وبها وحدة إجبارية حول التراث تُدرّس منذ المرحلة الأولى.

### 2.9. التدريب على مهن التراث

1985: إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، وهو مؤسسة عامة تابعة لوزارة الثقافة، مهمتها تكوين الأطر المقبلة على العمل في مجال التراث الثقافي، ويتم الانتساب إليه عبر امتحان لحاملي البكالوريا، أو وفق شروط محددة بالنسبة إلى موظفي وزارة الثقافة.

### 3.9. تدريس التخطيط العمراني

- التعليم الأكاديمي في أقسام الجغرافيا في الجامعة.
- المعهد الوطني للتهيئة والتعمير في الرباط، والذي ينشط تحت إشراف وزارة التعمير وإعداد التراب الوطني، ويدرب موظفي القطاع العام.

### 4.9. مدارس المهندسين

تفتقد مدارس المهندسين لوحدة متخصصة في المشاكل الفنية المرتبطة بالترميم أو إعادة التأهيل، باستثناء بعض الدروس المحددة حول أمراض المواد (les pathologies des matériaux).

في نهاية هذا التحليل، يلاحظ عبد الرحيم قاسو تشتت الفروع التعليمية المعنية بالعمارة، والتخطيط الحضري، والهندسة، وأنظمة التدريب على مهارات التراث، مشيراً أيضاً إلى ندرة التبادل الأكاديمي بين المناطق والأقاليم المغربية وكذلك مع البلدان الأخرى في المغرب والمشرق، كما يعتبر أن تشرذم المؤسسات العامة والخاصة ذاتها لا يشجع على النبوغ الفكري والارتقاء الأكاديمي، مما يعيق نشر ثقافة التراث.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن ممارسة مهن المهندس المعماري والمخطط الحضري للحائزين على شهادة جامعية من شعبة التراث لا تلاقي تشجيعاً في القطاع الخاص، إذ مهما كانت طبيعة الشهادة، يظل الراتب على حاله.

### 10. مسألة الإبداع الثقافي

يعتبر عبد الرحيم قاسو أن الإبداع الثقافي لا بد له من توفر عدة شروط أهمها على الإطلاق حرية التعبير، ولذلك ينبغي لأية سياسة ثقافية متماسكة تدعمها مؤسسات عامة أن تسعى إلى الارتقاء بظروف الابتكار والإبداع من خلال ضمان التمويل للمشاريع ذات المدى المتوسط أو الطويل. وفي عام 2013، أطلقت "جمعية جذور" للثقافة والتنمية وترويج الصناعات الإبداعية" عملية تقويمية شاملة للثقافة في المغرب. وقد مكّن التقويم التشخيصي لثمان عشرة شعبة فنية وخمسة حقول عرضية، من صياغة توصيات محددة تهدف إلى تشجيع الإبداع الثقافي.

## 11. أبعاد الدعم السياسي والحوكمة الحضرية وحدودها

يخلص عبد الرحيم قاسو إلى الاستنتاجات والتوصيات التالية:

- تندرج حماية المدن التاريخية المغربية والحفاظ عليها ضمن منهجية ذات طابع فني وإداري أثبتت فاعليتها على مدى القرن العشرين. لكن يتعين تكييف الترتيبات المؤسسية والترسانة القانونية والتنظيمية واللوائح المالية مع الواقع الحضري الذي يقع تحت ضغوطات التحضر المتسارع والتنمية العالمية. "ويصبح هذا التكيف ممكنا إذا توفرت إرادة كافية للقيام بذلك"، مما يؤكد ضرورة الدعم السياسي.
- تستوجب الحوكمة الحضرية إعادة تقييم ومراجعة جوهرية، حيث إن مردودها يضعف بسبب تعدد الأطراف المتدخلة وافتقارها إلى مهارات محددة وصلاحيات واضحة المعالم. ومن الأفضل أن تُمنح سلطة اتخاذ القرار على الصعيد المحلي إلى مؤسسة واحدة: فبإمكان شركة التنمية المحلية أن تضطلع بمسؤولية التنسيق الفني والإداري وأخذ القرار السياسي.
- لا بد من تحديث الترسنة القانونية والتنظيمية لمواكبة المستجدات. وفي هذا الإطار ينبغي إعادة النظر في القانون 22.80 الخاص بحماية التراث، الذي يركز في المقام الأول على المعالم التاريخية، ليعكس البعد العمراني للتراث في المدن التاريخية. ويوصى أيضا بوضع الإطار القانوني والتنظيمي لمخططات الحفظ والتثمين (PSMV) لتأسيس مشروعية للقرارات التي يتم اتخاذها في إطار الصون المتكامل.
- إن إعطاء دفع جديد للبحوث في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية لتطوير المعارف اللازمة للحفاظ على الموروث الحضري والثقافي، وتشجيع نظم تدريب الكفاءات لتدارك النقص في الخبرات، سواء كانت مهنية أو إدارية، هو من بين الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوفر في أي سياسة تروم إعادة تأهيل السكن القديم والتجديد الحضري بالمدن التاريخية.

## 12. إعادة تأهيل الأحياء السكنية، أولويات الحفاظ العمراني

### 1.12 . مدينة فاس العتيقة: الهجرة، النزوح، التريف، الفصل، التدهور،

1955:

- هجرة جماعية للمستعمرين عند انتهاء الحماية نتج عنها شغور مساكن بأحياء المدن الجديدة،
- هجرة السكان الأصليين من المدينة العتيقة نحو المساكن الشاغرة بمدينة فاس الجديدة، وذلك بحثا عن الرفاه و/أو المكانة الاجتماعية،
- هجرة السكان الفقراء من المناطق الريفية إلى أحياء سكنية ذات كلفة زهيدة بالمدينة القديمة.

النتيجة: تريفيف السكن التقليدي، والحط من القيمة العقارية لمدينة فاس التاريخية.

:1982

- قَدَّر عدد سكان مدينة فاس بـ 174000 نسمة، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف عددهم عام 1926 (65000 نسمة).
- تسبب تسارع نسق النمو السكاني على مدى نصف قرن، والهجرة الريفية ما بعد فترة الاستعمار، في التكتيف السكاني بمدينة فاس.

:1995

- أدَّت ظاهرتا التريفيف والتكتيف السكاني إلى إفقار مدينة فاس:
- أصبحت نسبة انتشار الفقر في مدينة فاس أعلى بكثير مما هي عليه في المناطق الحضرية في المغرب. فقد أدت مغادرة ميسوري الحال المدينة العتيقة إلى تكريس حالة الفقر، ذلك أن "الفقراء يطردون الميسورين أو من هم غير فقراء. فعندما تصبح نسبة الفقراء كبيرة في حي ما، تغادره الفئات غير الفقيرة". ويذكر أن ثلثي سكان مدينة فاس يعتبرون فقراء. وبالتالي أصبحت التشكيلة الاجتماعية للأحياء تتجه نحو التجانس في الفقر لأن الفقر يتمدّد مكانيا "كبقعة زيت"،
  - إن أشكال الفصل الاجتماعي والفضائي تتزايد بسبب تقاسم المساكن من قبل أسر عديدة، والحجم المفرط للمتجولين في الشوارع والأزقة.
  - 60 % من سكان مدينة فاس يتقاسمون منازلهم مع ثلاث أسر أو أكثر، ممّا أدّى إلى "تكويخ" السكن التقليدي وتفكيك هيكل المدينة التاريخية.
  - 49 % من مجموع المساكن في حالة جيدة أو متوسطة، 41 % حالتها سيئة، 10 % مهددة بالسقوط أو هي في حالة خراب.
  - 50 % من الأسر تسكن بالإيجار، بينما يملك النصف الآخر بيوتهم، بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها رب الأسرة، علما بأن أهل فاس معروفون بالتعلق بملكية السكن.

2.12. مدينة فاس: أزمة الصناعة الحرفية في الأماكن المكشوفة، ما بين الانتعاش الاقتصادي

والاجتماعي والتجديد الحضري

لا تزال الصناعات التقليدية، في بداية القرن الحادي والعشرين، تمثل نشاطا اقتصاديا رئيسيا يضيف على مدينة فاس شيئا من الدينامية التجارية والحيوية الاجتماعية التي تركز على المهن الفنية والحرفية والمهن في مجال الخدمات. ومع ذلك، فإن الحديث عن حيوية قطاع الصناعة التقليدية يستدعي بعض التوضيح، حيث إن العديد من الحرف تنقرض بسبب منافسة المنتجات المصنّعة والمستوردة.

وفي عام 1996 كان عدد الحرفيين داخل المدينة القديمة 1276 حرفيا، وفقا للمسح الذي قامت به اليونسكو ووكالة التنمية ورد الاعتبار لمدينة فاس. وحسب المديرية الجهوية للصناعة التقليدية في مدينة فاس، تضم المدينة القديمة الجزء الأكبر من الصناعات التقليدية، التي هي مصدر دخل 75 ٪ من سكان المدينة العتيقة و33 ٪ من إجمالي سكان المدينة.

- كان الحرفيون المهرة صغار السن نسبيا (24-46 سنة)، وكان معظمهم من الأميين، ونشاطهم أقرب إلى القطاع غير النظامي حيث إن 61 ٪ منهم لا يملكون تراخيص.

- تم تحديد 43 مهنة أهمها : الصغارون، الصاغة، النساجون، الخرازون (صانعو النعال)، النجارون.

- إن صناعة "البروكار" وصناعة السروج والنقش على الخشب مهددة بالانقراض، على عكس صناعة المجوهرات والأثاث التي هي في توسع.

- 99 ٪ من ورشات العمل الحرفية بالمدينة القديمة يسيرها ذكور، و1 ٪ فقط تديرها نساء.

- يشغل العمل المنزلي النسوي 15 امرأة في كل وحدة للصناعة التقليدية، مقابل 3 نساء في كل وحدة في الأسواق والخانات.

- تتلقى النساء نظير عملهن بالبيت مبالغ ضئيلة مقارنة بالعمل في الورشة. وهو شكل مقنع من أشكال العمل بأجر زهيد، على أن عمل النساء داخل البيت يشكل مصدرا إضافيا للأسر.

- يبلغ عدد الأطفال الذين يشتغلون في مدينة فاس 6000 طفل، ويعمل هؤلاء تحت غطاء تعلم الصنعة، إلا أنهم في الواقع عمال يتقاضون أجورا أقل من الأجور العادية.

◆ تشكل مدينة فاس القديمة مصنعا مكشوفيا يجمع بين الأنشطة النظامية وغير النظامية، والعمل داخل البيت. فمن منظور فضائي، تشكل هذه الأنشطة كلاً قابلاً للتجزئة. إنه نظام إنتاج محلي، تتفاعل في إطاره علاقات الإنتاج والتسويق والتزويد، وذلك في جو اجتماعي مغلق موروث عن التجمعات المهنية.

ووفقا لمسوحات البنك الدولي وتقاريره (1996) التي استشهدت بها نعيمة لهبيل "إن الكل يجمع على أن مدينة فاس تمثل فضاء مناسباً لممارسة أنشطة ذات مردود اقتصادي، إذ لا تجد فيها أي صاحب مهنة ينوي مغادرتها إلى وجهة أخرى".

◆ وعلى الرغم من هذا الإقرار بمزايا التموقع المكاني للصناعة التقليدية بمدينة فاس العتيقة، فإن المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية تظهر بعض الإشكاليات، مثل انخفاض الطلب وعدم انتظامه، وقلة ملاءمة المنتجات، وضعف التمويل، وتقادم المعدات، وانخفاض الإنتاجية، ويد عاملة غير مؤهلة ومنخفضة الأجر.

ويُنظر إلى حرف الصناعة التقليدية نظرة سلبية من الزاوية الاقتصادية، إذ يتحدث تقرير اليونسكو حول الإنتاج الحرفي (اليونسكو ووكالة التنمية ورد الاعتبار لمدينة فاس 1996) عن حلقة مفرغة حيث إن "ضغط العرض يحدث انخفاضا في الجودة، وعدم تجديد المعدات، وعدم البحث عن أساليب جديدة للإبداع... ويعني ذلك ركودا في السمات الحرفية".

♦ إن النشاط الحرفي موسمي وغير منتظم بسبب مشاكل التسويق ومشاكل التزويد. كما لا يمكن للحرفيين تخطيط أنشطتهم بسبب نقص السيولة النقدية وتقلب أسعار السلع الأساسية. ونتيجة لذلك، فإن الحرفيين يخضعون للأسعار التي تحددها السوق، وهم مجبرون على بيع منتجاتهم مهما كان الأمر بسبب قلة السيولة المتوفرة لديهم.

- إن الحرفي لا يلجأ إلى الاقتراض بسبب عدم انتظام بيع منتوجه وانخفاض قيمة الأرباح التي يجنيها من نشاطه.

- إن الصناعة التقليدية، وهي نشاط يدوي بالأساس، لديها طاقة تشغيلية محدودة وأجورها متدنية لا تبلغ الأجر الأدنى المهني المضمون.

- إن المشتغلين بالصناعات التقليدية ينظرون إلى عملهم نظرة سلبية ويعتبرونه حلا مؤقتا لا غير.

♦ استأثرت مدينة فاس القديمة ومحيطها، عام 2007، بأول مخطط جهوي لتنمية الصناعة التقليدية بهدف جعل هذه المنطقة قاطرة لتنمية الصناعة التقليدية على مستوى المغرب، وجعل فاس "عاصمة الفنون التقليدية". وقد مكّن هذا المخطط من تعزيز قدرة الإنتاج وتسويق منتجات الصانع الأفراد، وذلك بتمويل من ممولين وطنيين.

♦ تحسن المشهد الحضري التاريخي لمدينة فاس من خلال تنفيذ مشاريع التهيئة المتكاملة (ساحة لالة يدونة وشواري)، وإعادة تأهيل أو تجديد عشرة خانات، ولاسيما من خلال نقل الأنشطة الملوثة خارج الأسوار.

♦ إلى غاية انتهاء فترة الحماية، كان تنظيم أنشطة الصناعات التقليدية وممارسة المهن الحرفية يتم في إطار تعاونيات يرأس كلا منها أمين الحرفة، وكان يشرف على هذه العملية المحتسب، وهو بمثابة عون الأمن المرتبط مباشرة بالقاضي. وقد شهدت هذه الآلية المؤسسية والقانونية (كما هو الحال في أماكن أخرى بالمغرب العربي) تلاشيا، جعل السلطات تحاول، في عام 1982، إعادة إحياء هذا النظام. ويبدو أن كثيرا من الحرفيين أصبحوا يعملون وفقا لآليات الإنتاج والتسويق الحديثة، بما في ذلك:

## - التعاونيات

يوجد بمدينة فاس 17 تعاونية كانت، في عام 2002، تضم 1345 عضوا ينتمون إلى 5 قطاعات (الجلود، والنسيج، والفخار، والصناعات النحاسية، والصناعات الخشبية).

## - غرف الصناعة التقليدية

إن غرفة الصناعة التقليدية هيكل منتخب يتألف من خمسين عضوا، وهي تقع تحت إشراف الوزارة المكلفة بالاقتصاد الاجتماعي، ويتمثل دورها في تسجيل الحرفيين وإعطائهم البطاقات المهنية، كما تقوم بالتكوين المهني وتشجيع الصادرات.

## - المندوبية الجهوية للصناعة التقليدية

هي مؤسسة إدارتها لامركزية وتقع تحت إشراف الوزارة المكلفة بالصناعة التقليدية. وتتمثل مهامها في تشجيع الاستثمار وتوفير التأطير المصرفي للصناع التقليديين والتجمعات الحرفية.

على الرغم من أن الصناعة التقليدية تتعرض منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى أزمات متتالية، بسبب الأزمات الجديدة للحماية والتسويق التي فرضتها الرأسمالية، فإنها لا تزال قائمة الذات في المغرب (كما هو الحال بالنسبة إلى البلدان الأخرى في المشرق والمغرب العربي). ولكن مصيرها يظل هشاً بسبب ظروف العولمة الاقتصادية. ففي مدينة فاس، لا تزال الصناعة التقليدية تحتل، في مطلع هذا القرن الحادي والعشرين، مكانة اجتماعية واقتصادية لا يُستهان بها، باعتبارها عماد التنظيم الاجتماعي والمكاني للمناظر الحضرية التاريخية.

## 13. مدينة فاس تبحث عن تمويل لتحويل التنمية

تعرضت مدينة فاس طيلة القرن العشرين إلى التهميش في عمليات التمويل العامة لمشاريع الصون المتكامل والتجديد الحضري. وإزاء ضعف اهتمام السلطات العمومية بمدينة فاس العتيقة في الماضي، تخلى أصحاب الممتلكات العقارية عن مدينتهم بسبب عجزهم عن إيجاد حل للعقم العقاري وتدهور حالة السكن. أما الحرفيون والتجار، فقد بقوا في النسيج الحضري مستغلين إياه دون الاستثمار في تحسينه. وأما بالنسبة إلى المستثمرين الوطنيين والدوليين، فإنهم فقدوا الاهتمام بمدينة تاريخية تتجه نحو مزيد من الفقر...

وسيتغير الوضع في عام 1980، عندما وجه المدير العام لليونسكو نداء عالميا لحماية فاس، سجلت إثره المدينة، في عام 1981، في قائمة التراث العالمي، حيث تسبب ذلك في انفراج الوضع. وقد أثبت الفاسيون مرة أخرى مدى تشبثهم بمدينتهم، حيث إن هذا الاهتمام الذي لمسوه لدى الآخرين، ولاسيما لدى خبراء اليونسكو، بثمين تراث مدينتهم الثقافي كان حاسما بالنسبة إليهم.

### 1.13. المقاربة المفاهيمية للتنمية وتدفق التمويلات

إن التقارير التي أعدتها كل من اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي والبنك الدولي للحكومة المغربية بشأن صون مدينة فاس القديمة، قد مكّنت من تقييم المشاكل المطروحة والبحث عن الحلول المناسبة في ضوء الدروس المستخلصة من التجربة. وجاءت مقاربات هذه المؤسسات الدولية على النحو التالي تباعاً:

#### ◆ المقاربة العامة التي توختها اليونسكو (1985)

تعتبر اليونسكو أن المشاكل التي تولّد تفاقم ظاهرة الفقر وتردي الأوضاع المعيشية بمدينة فاس تتفاعل مع بعضها البعض، ولذلك فإن إشكالية صون المدينة تحتم معالجة الأسباب الرئيسية لكي يتم وضع حد لدوامة الانحطاط الاقتصادي، والتمكن من اعتماد منهاج تنمية حضرية مهيكّل. وقد توقفت عملية تنفيذ هذه المقاربة الشاملة نظراً لضخامة حجم الاستثمار اللازم (542 مليون دولار)، حيث إن المانحين قد اعتذروا عن التمويل.

#### ◆ المقاربة التدريجية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (1992)

توخّى برنامج الأمم المتحدة الإنمائي نفس التوجه الفكري الذي اعتمده اليونسكو، حيث التزم بتنفيذ مشروع متكامل يعالج العديد من المستويات، ولكن على نطاق منطقة محدودة فضائياً، مما سمح بضبط الميزانية وتقليصها إلى 64 مليون دولار في مرحلة أولى، ثم توسيع نطاقها ليشمل المشروع مناطق أخرى، وهكذا إلى أن تتم تغطية المساحة بأكملها.

#### ◆ مقارنة التدخلات المحددة للبنك الدولي (1995-2005)

خفض البنك الدولي موازنة الاستثمار على نحو ملحوظ حيث إنها لم تتجاوز 27 مليون دولار، مقلصاً بذلك من طموحات الصون العمراني الذي اقتصر على عمليات محددة. وقد مكنت هذه المقاربة من الإنجاز الفعلي لهذه العمليات المحددة.

لا شك أن الواقعية التي تميز بها هذا المنهاج الاختباري تستحق التنويه والإشادة، لاسيما بالنسبة إلى تقديم المساعدة من أجل الحصول على سكن، حيث إن هذه المبادرة كانت الأولى من نوعها في المغرب. والسؤال هو ما إذا كان يمكن تكرار هذه المقاربة وأن تؤدي إلى آثار امتدادية. ومقارنة مع عملية "الوكايل" بمدينة تونس (الصندوق العربي للإئماء الاقتصادي والاجتماعي 1990)، يمكن استخلاص الدرس التالي: إن المشاريع الظرفية نادراً ما يتم استنساخها.

وهكذا نستنتج أن اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي قد تبنا مقاربة مماثلة لمعالجة تعقيد قضية الصون والحماية، ولكن هذه المقاربة، بشكليها الشامل والتدريجي، لم تحظ بقبول الجهات المانحة. فهل إن "مشاريع الرفوف" لمنظمة اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي قد أسهمت في تطوير منهجية الصون والتجديد الحضري أم إنها مجرد طوباوية تتناولها التقارير الدولية؟ ثم، هل نتجت عن "المشروع الواقعي" من النوع الذي اعتمده البنك الدولي آثار امتدادية تشمل الإشكالية المطروحة من كافة جوانبها؟

تلك هي الأسئلة التي تفرض نفسها من مشرق العالم العربي إلى مغربه. وهي تفتقر عادة إلى إجابات بسبب غياب المعنيين الرئيسيين أي السكان الذين لا يتم إشراكهم في المشروع. وهو ما يشير إليه كريم إبراهيم في حالة مدينة القاهرة التاريخية، مشددا على أهمية وجود منهجية تشاركية أكثر ملاءمة.

### 2.13. منجزات رمزية بفضل تمويلات ظرفية

◆ ترميم وإعادة تأهيل دار عديل، وهو قصر شيد بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويمثل نموذجا للعمارة المرينية والسعدية.

إنه مثال رائع للتعاون الثلاثي تم إنجازه بفضل:

- خبرة قدمتها اليونسكو،

- منحة من الحكومة الإيطالية قدرها 740506 دولارات للقيام بالأشغال،

- تمويل المعدات من قبل الحكومة المغربية.

وقد أصبح هذا القصر يحتضن معهدا موسيقيا مخصصا للتعليم الأكاديمي للموسيقى الأندلسية والملحون. كما يستعمل في إطار مهرجان الموسيقى الروحية العالمية بفاس.

### ◆ إعادة تأهيل دار النجارين

- تم تحويل المبنى إلى متحف خاص،

- وقامت بالتمويل مؤسسة مغربية خاصة.

### 3.13. تنمية المجتمع المحلي وتمويل السكن الاجتماعي

تحظى تنمية المجتمع المحلي بالأولوية في مشروع إعادة تأهيل مدينة فاس القديمة (البنك الدولي 1995-2000)، الذي يقع تحت رعاية وزارة الداخلية، المشرفة على الجماعات المحلية. ولتحقيق هذه الغاية، يسعى المشروع إلى توفير وسائل تعزيز الإطار المؤسسي.

تتمثل إعادة التأهيل، من منظور هذا المشروع، في عمليات متكاملة تشمل الإسكان والبنية التحتية والتراث والسياحة والبيئة الحضرية. وتشترك الإدارات المركزية وبلديات فاس في تمويل المشروع. ويبين تحليل الكشوفات المالية أنه تم تخصيص 50 % من الميزانية للبنية التحتية.

- يلاحظ أن حصة تمويل السكن متواضعة، ولكن المنهاج المتبع مبتكر: تقديم المساعدة لتدعيم المساكن العادية والتدخل لإنقاذ المباني المهتدة بالسقوط.
- توجيه المساعدة المخصصة لتدعيم المساكن ومنع تسرب المياه من السقوف إلى الأسر الأشد فاقة، أي فقراء المدينة القديمة الذين ليسوا مؤهلين للحصول على التمويلات التي تخصصها الدولة المغربية لتدخلاتها الخاصة بأحياء الصفيح.
- يلاحظ أن عدد المساكن الآيلة للسقوط يزداد يوما بعد يوم في مدينة فاس، ومعه عمليات إزالة أنقاض هذه المباني من أجل تجنب المخاطر الصحية والاجتماعية والأمنية. وبعد ذلك تواجه البلدية إشكالية تعمير الأراضي، الأمر الذي يطرح مسألة حل مشاكل الملكية العقارية، حيث إنه يصعب جمع أصحاب الحقوق لتحقيق ذلك.

#### 14. مدينة فاس القديمة، الاستثمار الخاص كعامل للتنمية

كان الاستثمار الخاص لأغراض ربحية في الفنادق والسياحة عاملا من عوامل التنمية، حيث مكّن مدينة فاس من احتلال المرتبة الخامسة في مجال السياحة في المغرب بعد مراكش وأغادير والدار البيضاء وطنجة. وفي عام 2006، استفادت مدينة فاس من خطة التنمية الجهوية للسياحة التي مولتها الحكومة بعد حصولها على قرض من البنك الدولي. وقد سمحت هذه الخطة بتطوير المسالك السياحية، وتحسين المنظر الحضري التاريخي، وإطلاق صيغة "السياحة عند المواطن".

ففي عام 2013، استضافت مدينة فاس الجديدة 370000 زائر وبلغ عدد ليالي المبيت 770000 ليلة. كما حظيت مدينة فاس القديمة بزيارة 44000 زائر وبلغ عدد ليالي المبيت 106000 ليلة. وفي عام 2014، بلغ عدد بيوت الضيافة في المدينة القديمة حوالي 100 بيت.

إن هذا التطور السياحي الأخير (يعود أول بيت ضيافة إلى عام 1998) قد ساعد بلا شك على ضخ سيولة إضافية في اقتصاد مدينة فاس، مما أسهم في إنعاش الأنشطة الحرفية والتجارية. ولكن، كما لاحظت نعيمة لهبيل، يجب أن نكون يقظين لأنه بإمكان السياحة أن تكون، كما قالت شواي Choay، «صديقا زائفا» إذ بإمكانها أن تشوه البعد التراثي للمدينة التاريخية. كما أنها تتطلب، من الناحية المالية، تمويلات عامة، وتدفع إلى التداين الذي يتأثر تسديده بأية أزمة سياسية.

## 15. مدينة فاس، التظاهرات الثقافية كحافز للتنمية

شكل مهرجان الموسيقى الروحية العالمية، الذي أنشئ في عام 1994، حافزا إثمائيا سواء في المجالات الثقافية أو فيما يخص السياحة. ومع ذلك، فقد بينت عمليات المسح والتقييم أن الآثار المباشرة وغير المباشرة على الصناعة التقليدية والسياحة لم تكن في مستوى التطلعات.

# مدينة الجزائر



( الجامع الكبير )

## 1. جدلية التنمية والتحضر وصحوة الوعي بالهوية الوطنية وأهمية التراث

1943 - 1962: أحياء الصفيح وبوادر التحضر المعاصر

كان ثلاثة أرباع سكان الجزائر غداة الحرب العالمية الثانية يعيشون في دواوير وقرى تقع في مناطق ريفية تحت سيطرة مزارعين أوروبيين معظمهم من سكان المدينة. فقد حول هؤلاء الأوروبيون الجزائر في ظرف قرن ونيف من الاستعمار إلى محطة زراعية للتصدير (الخمور والحبوب والحمضيات وزيت الزيتون). وتوجد إلى جانب هذه المناطق الاستيطانية، التي كانت تمثل جيوب حداثة، أراضي القبائل، وهي كيانات فضائية واجتماعية ذات نمط ما قبل رأسمالي، في وضع هش. وكانت تلك الأراضي تأوي فئة من المزارعين يواصلون استغلال بعض الأراضي والتخوم باعتماد النمط التقليدي.

ومنذ خمسينيات القرن الماضي، ولدت هذه الثنائية الاقتصادية والترابية آثارها فيما يخص الهجرة: فقد استنزفت المناطق الريفية من سكانها الفلاحين (بسبب البطالة المقنّعة، والجفاف والمجاعة والحرب)، فيما ظهرت أحياء الصفيح في المناطق الساحلية<sup>48</sup>، وشهدت القصة في الجزائر العاصمة تدهورا سريعا بسبب الكثافة السكانية المفرطة.

## 1962 - 1966: التحضر بالاستبدال

عند استقلال البلاد في عام 1962 تسببت مغادرة ما يقرب من مليون أوروبي في شغور نحو 300000 مسكن، ساهمت في إعطاء زخم كبير لحركة النزوح إلى الجزائر العاصمة، بالدرجة الأولى، ثم إلى وهران وعنابة وقسنطينة، بالدرجة الثانية. ونظرا إلى هذا النزوح الجماعي، تحولت تلك المدن الأربع، التي كانت تعتبر من بين المدن التي يتجاوز عدد سكانها 100000 نسمة في عام 1960، إلى إطار استوعب السكان المهاجرين. ففي وقت قياسي، استقبلت تلك المدن أكثر من 900000 شخص بالنسب التالية:

الزيادة	1966	1960		المدن
	العدد الإجمالي للسكان	عدد السكان الجزائريين	العدد الإجمالي للسكان	
+551 433	963 551	412 118	746 070	الجزائر
+184 037	327 807	143 770	360 184	وهران
+112 596	245 621	133 025	171 481	قسنطينة
+75 587	162 483	86 896	137 716	عنابة
<b>923 653</b>	<b>1 699 462</b>	<b>775 809</b>	<b>1 415 451</b>	

وتشير هذه الأرقام، التي لا تحتاج إلى تفسير، إلى استيلاء السكان القادمين من داخل البلاد على المساكن الشاغرة. هذا التحضر الناتج عن استبدال سكان بسكان آخرين دفع بالعاصمة والمدن الرئيسية الثلاث الأخرى إلى أن تكون على رأس هيكل حضري يتميز أساسا بعدم التوازن.

## 1967 - 1977: تمركز الهجرات وانتشار التحضر أو الإصلاح الزراعي

عرف هذا العقد الذي اتسم بـ"التحول إلى الاشتراكية"، استمرار موجة التحضر، على أنها أصبحت تتشكل بواسطة استراتيجية التنمية الوطنية المرتكزة على "الصناعة التصنيعية"، ويتم تطبيقها في إطار نظام تخطيطي مركزي لاقتصاد البلاد، فيما حُدّد بعدها السياسي بـ"الثورة الزراعية" التي أُطلقت في عام 1971.

إن الدولة، المشرف الوحيد على الاستثمارات والمُشغل الوحيد من خلال الشركات الوطنية، قد أوجدت، من العدم، جهازا صناعيا قويا في مجال البتروكيمياويات والمعادن والصلب والهندسة الميكانيكية. وتركزت المجمععات الصناعية في المدن الساحلية الكبرى والمناطق المجاورة لها (وهران، أرزيو، الجزائر العاصمة، سكيكدة، عنابة، قسنطينة)، وهي تستقطب جماهير العمال والموظفين الإداريين والتقنيين، الذين اضطروا، نظرا لعدم تمكنهم من البقاء في الأنسجة الحضرية القديمة المشبعة فعلا، إلى إنتاج أو إيجاد من ينتج لهم أشكالا جديدة من السكن تتراوح بين أحياء الصفيح إلى المجمع السكني الضخم، مروراً بتقسيمات الفيلات المتجاورة جنبا إلى جنب على نحو غير منتظم إما في المحيط المتاخم للمدن أو في الأراضي الزراعية. هذا يعطينا فكرة عن المدى الذي أسهم من خلاله هذا التصنيع في تمركز الهجرات في المناطق الساحلية وتوسيع رقعة التحضر في المدن دون أن يساعد، مع ذلك، في عملية التهيئة الترابية أو تنظيم المدن.

وعندما أدركت الدولة عدم التوازن الفضائي الناجم عن التصنيع السريع للمدن الساحلية (وهران والجزائر العاصمة وعنابة)، بادرت بإعادة ترتيب أولوياتها بالتركيز على مدن المناطق الداخلية (تلمسان، سيدي بلعباس، تيزي وزو، بجاية، قلمة) من خلال إنشاء صناعات تحويلية واستبدالية هناك. وقد كان "من المتوقع أن يسمح المعمل بتثبيت السكان في مواطنهم والحد من التكاثر السكاني في المناطق الساحلية المصنعة"<sup>49</sup>. غير أنه، لا التصنيع ولا "الثورة الزراعية"، التي كانت تهدف إلى تطوير المناطق الريفية، تمكنت من الوصول إلى تحقيق هذا "التوازن الإقليمي" الذي أعرب عنه الميثاق الوطني بوضوح في عام 1976. وقد تم وضع برامج خاصة بالولايات لمعالجة هذه الفوارق. فالإرادة السياسية الرامية إلى "القضاء على التفاوت بين الجهات"<sup>50</sup> قد حدت بالسلطات إلى التركيز على العمل من خلال البلدية والولاية، حيث أوكلت إليهما مسؤولية تحقيق التنمية، وذلك من خلال وضع الخطط الإنمائية.

### 1978 - 1987: "التحضر الإداري"

لم تتمكن السياسة الصناعية والثورة الزراعية من تقليص الفوارق الإقليمية، بالقدر الذي كانت تهدف إليه مختلف المواثيق الوطنية.

وقد كان محور النقاش الأكثر حدة يحوم حول أزمة السكن، حيث تم توجيه نقد لاذع إلى "فوضى المدن"، الناتجة عن عدم الخضوع للتهيئة الترابية والتخطيط العمراني.

وعليه تمت إعادة توجيه الاستثمار، الذي كان حكرا على المراكز الصناعية، إلى صناعة الخدمات

Georges Mutin : L'industrialisation, un phénomène général aux effets diversifiés. In J.F. Troin : Le Maghreb, Hommes et espaces. Colin, Paris 1985 49

نص الميثاق الوطني لعام 1976 على أن غاية الثورة الجزائرية تتمثل في النهوض بالأوضاع المعيشية، وتحقيق المساواة بين جميع المواطنين، وأن تحقيق هذه الغاية ليس ممكنا إلا من خلال إزالة الفوارق بين الفوارق المتاحة للجزائريين، وذلك بغض النظر عن المنطقة التي يعيشون فيها، حيث إن سياسة التوازن الجهوي تهدف إلى توجيه أكبر الجهود التنموية إلى المناطق المحرومة.

التي تولد فرصا للعمل وإلى الاستهلاك، وذلك من أجل ضمان "ظروف عيش أفضل". وتأكيذا على هذا التوجّه الجديد، بادرت الدولة بجدية إلى تعزيز التغطية الإدارية للأقاليم: فقد ازداد عدد مراكز الجهات، والبلديات والولايات والدوائر على نحو ملحوظ في عام 1984، مما فتح المجال لإحداث فرص لوظائف لم تكن آنذاك متوفرة في المدن المتوسطة والصغيرة. هذا "التحضر الإداري"، مكن من وضع حد للتدفقات السكانية الكبيرة نحو المدن (باستثناء منطقة الجزائر العاصمة) والمجمّعات الصناعية في منطقة التل، إلا أن تلك التدفقات استُبدلت بهجرة ريفية محلية أسهمت في الاستنزاف السكاني الذي ما زالت تعاني منه المناطق الريفية، وفي تعميم ظاهرة التحضر العشوائي على نطاق واسع شمل كامل البلاد.

وهكذا أصبح الوضع في عام 1988، يمثل قضية في غاية الحساسية، ألا وهي إدارة المدن، حيث اتضحت حدود تطوير التهيئة العمرانية في إطار اقتصادي يقرر ويخطط مركزيا.

### 1988 - 1997: زيادة الاهتمام بالمسألة الحضرية

في مطلع التسعينيات، لم تعد إشكالية التهيئة الترابية، كما تصورها ميثاقا 1964 و1976، تستأثر باهتمام مركزي، ذلك أنه تبين أن الفوارق الجهوية التي كانت الدولة المخططة تروم تداركها أقل إثارة للقلق من الفوضى الحضرية. إن نظرة المؤرخ إلى الوراثة على مدى العقدين السابقين (1970 - 1990) تُمكن من إدراك مدى زيادة الاهتمام بالمسألة الحضرية، "فقد تضافرت عملية التصنيع والنمو السكاني المرتفع جدا على إعطاء المدينة وزنا كبيرا في التوازنات الاقتصادية والاجتماعية وكذلك السياسية"<sup>51</sup>.

### 1998 - 2015: الاستجابة للاحتياجات السكنية، مشاريع البنى التحتية الرئيسية والمعدات،

### والنمو الحضري غير المنظم، والتوسع الحضري العشوائي

تتميز هذه الفترة بإنجاز مشاريع ضخمة في مجال البنية التحتية وبرامج مهمة في مجال الإسكان كان لها أثر مباشر في التهيئة العمرانية.

وإذا كانت مشاريع البنية التحتية الرئيسية<sup>52</sup> تتلاءم مع المخطط الوطني للتهيئة العمرانية في أفق 2025، فإن التدخلات التي أجريت على مستوى المدن (باستثناء مشاريع المترو بالجزائر العاصمة والترامواي في المدن الإقليمية) لا تبدو منبثقة من رؤية حضرية شاملة، بل تظهر أحيانا مخالفة لاتجاهات المخطط الوطني للتهيئة العمرانية.

وجدير بالذكر أن المخططات الوطنية والجهوية للتنمية العمرانية والمخططات الولائية للتهيئة

51 Daho Djerbal : « Les élections législatives du 5 juin 1977 en Algérie, enjeux politiques, logiques et acteurs ». Maghreb-Machrek N° 157, 1997. La Documentation Française

52 الطريق السريع الرابطة بين الشرق والغرب، السودان، محطة تحلية مياه البحر، محطات توليد الكهرباء، محطات معالجة مياه الصرف الصحي، بنى تحتية للموانئ والمطارات، وبدرجة أقل، السكك الحديدية..

كانت قد وُضعت اعتباراً من الثمانينيات كوسيلة للحد من التوجهات نحو تركز السكان في المناطق الساحلية، ومن استقطاب المدن الكبيرة للنظام الحضري. وبالتالي فقد كانت تلك المخططات مُطالباً بتحديد مواصفات تنمية المدن.

ويلاحظ أن برامج الإسكان والتجهيز التي تدعمها الدولة أدت إلى وجود "التجمعات السكنية" أو "المدن الجديدة"<sup>53</sup>، وهي أحياء يتم إنشاؤها خارج حدود المخططات التوجيهية للتهيئة والتعمير.

يلاحظ في نهاية المطاف أن المدن ومناطق التل قد استقطبت معظم مشاريع البنية التحتية العامة واستأثرت بالجانب الأوفر من استثمارات القطاع الخاص. وفي ظل اعتماد تدابير جديدة، في إطار قانون المالية لعام 2016، لتشجيع الاستثمار في المرتفعات والجنوب، فإن الأولوية تتمثل في إنعاش "المنتجات المصنوعة في الجزائر".

ومن المرجح أن يستمر المستثمرون في توجيههم إلى الأماكن التي تتوفر فيها البنى التحتية والعمالة الماهرة والقرب من الأسواق وموانئ التوريد والتصدير التي تستأثر بدعم الدولة وتشجيعها، على غرار مصنع رينو للسيارات في وهران. وبالتالي فمن المتوقع أن تواصل المناطق الساحلية ومدنها استقطاب السكان والأنشطة الاقتصادية والمداخل، ربما مع اتساع طفيف نحو السهول المرتفعة شرقي الجزائر (بالقرب من المحور الصناعي سطيف، برج بوعريرج).

## 2. الإطار القانوني والجهاز المؤسسي

### 1.2. الإطار القانوني

واصلت الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية غداة استقلالها التزامها بالنظام التشريعي الفرنسي. وفي عام 1998، كما يقول حليم فايدي، برزت "إرادة سياسية لبلوغ مستوى أرقى من الوعي بالتراث الثقافي، عبر بناء وترميم وتدعيم تعابير الهوية الوطنية". ففي 15 يونيو 1998 صدر القانون رقم 04-98 المتعلق بحماية التراث الثقافي، وهو يهدف إلى "التعريف بالتراث الثقافي للأمة، و سن القواعد العامة لحمايته والمحافظة عليه وتثمينه، ويضبط شروط تطبيق ذلك". وفي مفهوم هذا القانون "يعد تراثاً ثقافياً للأمة جميع الممتلكات الثقافية العقارية، والعقارات بالتخصيص، والمنقولة، الموجودة على أرض عقارات الأملاك الوطنية وفي داخلها، المملوكة لأشخاص طبيعيين أو معنويين تابعين للقانون الخاص، والموجودة كذلك في الطبقات الجوفية للمياه الداخلية والإقليمية الوطنية الموروثة عن مختلف

53 ينبغي التمييز بين "المدن الجديدة" التي أنشئت من قبل الولايات خارج حدود المخططات التوجيهية للتهيئة والتعمير، و"المدن الجديدة" التي تم تطويرها في البداية من قبل وزارة التهيئة العمرانية والبيئة، قبل أن تلحق بوزارة السكن والعمران / وزارة "المدينة".

الحضارات المتعاقبة منذ عصر ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا. وتعد جزءا من التراث الثقافي للأمة أيضا الممتلكات الثقافية غير المادية الناتجة عن تفاعلات اجتماعية وإبداعات الأفراد والجماعات عبر العصور والتي لا تزال تعرب عن نفسها منذ الأزمنة الغابرة إلى يومنا هذا". وهكذا أصبح الإطار التشريعي، بعد أن كان يركز على البقايا الأثرية والمعالم التاريخية، يتجه نحو اعتماد مفهوم جديد للتراث الثقافي ببعده المزدوج الذي يشمل الهوية والبعث المعماري، كما يقول حليم فايدي.

## 2.2. الجهاز المؤسسي

1.2.2. تحظى وزارة الثقافة بدعم سياسي صريح، كما يقول حليم فايدي، وقد شهدت الفترة 2002-2014 إعادة تنظيم قطاع التراث الثقافي. وينصّ المرسوم التنفيذي رقم 05-80 المؤرخ في 26 فبراير 2005 بشأن تنظيم الإدارة المركزية في وزارة الثقافة على إنشاء:

- مديرية الحماية القانونية للممتلكات الثقافية وتثمين التراث الثقافي التي لديها اليد العليا في البت في جميع طلبات الحصول على التراخيص القانونية والإدارية.
  - مديرية حفظ التراث الثقافي وترميمه وهي مسؤولة عن البحث العلمي وإدارة المخزون وقواعد البيانات وبنوك المعلومات وملفات التصنيف، الخ ... وهي مسؤولة أيضا عن صون التراث الثقافي وترميمه.
- يضاف إلى ذلك الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية، وهو مؤسسة تحت وصاية الوزارة، مسؤولة عن المحافظة على التراث الثقافي وتثمينه وإحيائه.
- وتشمل مهام الديوان الوطني لتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية قضايا تتعلق بالملكية العقارية، والتخفيف من حدة الكثافة السكانية، وإيواء الفئات السكاني في أحياء سكنية خارج المناطق المكتظة، وترميم المباني المتداعية، ومعالجة مياه الصرف الصحي ومياه الأمطار، ورفع القمامة المنزلية.
- يتمّ التشاور بين مختلف الأطراف الفاعلة عن طريق لجنة فنية مشتركة أنشئت لهذا الغرض، تتولى فيها وزارة الثقافة/الولاية مهمة التنسيق الوظيفي بين مختلف الفاعلين وفقا للهيكل التنظيمي التالي:

<ul style="list-style-type: none"> <li>• مديرية حفظ التراث الثقافي وترميمه</li> <li>• مديرية الحماية القانونية للممتلكات الثقافية وتثمين التراث الثقافي</li> <li>• اللجنة المشتركة (وزارة الثقافة / الولاية)</li> </ul>	وزارة الثقافة
<ul style="list-style-type: none"> <li>• ولاية الجزائر</li> <li>• المجلس الشعبي الولائي (الجزائر)</li> <li>• الأمن الوطني</li> <li>• المجلس الشعبي البلدي (الجزائر الوسطى - القصبة - باب الوادي)</li> </ul>	وزارة الداخلية والجماعات المحلية
<ul style="list-style-type: none"> <li>• المديرية العامة للسكن</li> <li>• المديرية العامة للمدينة</li> <li>• المديرية العامة للتعمير والهندسة المعمارية</li> <li>• المديرية العامة للتجهيزات العمومية</li> </ul>	وزارة السكن والعمران والمدينة
	وزارة التضامن الوطني والأسرة وقضايا المرأة
<ul style="list-style-type: none"> <li>• مديرية مسح الأراضي</li> <li>• مديرية أملاك الدولة</li> <li>• مديرية الحفظ العقاري</li> </ul>	وزارة المالية
الأملاك الوقفية - الأحباس	وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
	وزارة العدل
	وزارة الموارد المائية والبيئة
مديرية الأشغال العمومية	وزارة النقل والأشغال العمومية
مديرية النقل ميٹرو الجزائر	
سونلغاز	وزارة الطاقة
	وزارة التهيئة العمرانية والسياحة والصناعات التقليدية
	وزارة الدفاع الوطني

يرجو حليم فايدي أن يتم التوصل إلى معالجة التضارب في الصلاحيات والمسؤوليات، ويتسع التشاور والتنسيق بين الأطراف المعنية بقضايا صون التراث، وأن تُوحّد جهود المجتمع المدني المعني به، ويحسم الجدل بشأنه لفائدة النظرة التي تعتبره أكثر من قضية ذات طابع فني بحت تهم المهندسين المعماريين المتخصصين في التراث.

### 2.2.2. الولاية

- تعتبر الولاية الذراع التنفيذية للإدارات المركزية المسؤولة عن الثقافة والعمارة والسكن.
- تمثل مديرية الثقافة للولاية وزارة الثقافة التي تضع تصورات المشاريع المتعلقة بالتراث، وهي تحت سلطة الوالي الذي يتولى مسؤولية تنفيذ هذه المشاريع.
  - تشارك مديرية التعمير، التي تتولى أيضا مسؤولية البناء والقضاء على السكن الهش، في الأنشطة المعنية بالتراث العمراني، حيث تراقب التخطيط الحضري، بتفويض من وزارة المدينة.

### 3.2.2. البلدية

يتولى المجلس الشعبي البلدي استقبال شكاوى المواطنين ويحيلها إلى الوالي الذي ينسق مع الإدارات المركزية.

### 3. عملية تخطيط وإدارة مدينة الجزائر

تم وضع مخطط استراتيجي لمدينة الجزائر في أفق 2029 وهو مشروع يهدف إلى إعادة الاعتبار للمدينة في أفق 2029 وتحويلها إلى "جوهرة المتوسط"، ويتضمن تهيئة خليجها وواجهتها البحرية. وقد وضعت الخطة تحت إشراف الوالي، بينما وُضع برنامج ترميم قصبة الجزائر تحت سلطة وزارة الثقافة.

### 1.3. يهدف المخطط الاستراتيجي لمدينة الجزائر في أفق 2029 إلى توسيع المحيط الحضري

#### للعاصمة وحديثها

وقد مكنت شبكة النقل العمومي (المترو والترامواي والحافلات والتليفريك) من إعادة هيكلة قلب المدينة وربطها مع القصبة السفلى. ويخضع مشروع الاختراق عبر الجزء الشرقي من القصبة، من أعلاه إلى أسفله، للدرس بهدف ربط المدينة القديمة بالمدينة الجديدة.

في إطار هذا المخطط الاستراتيجي، تم اعتماد إدماج القصبة في القاعدة الحضرية وإعادة تأهيل السكن فيها كواحد من بين المشاريع العشرة ذات الأولوية.

### 2.3. المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة

في إطار تنفيذ القانون رقم 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي، صدر المرسوم التنفيذي رقم 03-324 بتاريخ 5 أكتوبر 2003 متضمنا "كيفية إعداد المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة"، وهو "يحدد، في إطار احترام الأحكام المتعلقة بالمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير، بالنسبة للمجموعات العقارية الحضرية أو الريفية المنشأة في شكل قطاعات محفوظة، القواعد العامة وارتفاقات استخدام الأرض التي يجب أن تتضمن الإشارة إلى العقارات التي لا تكون محل هدم أو تعديل أو التي فرض عليها الهدم أو التعديل، كما يحدد الشروط المعمارية التي يتم علي أساسها المحافظة علي العقارات والإطار الحضري. وينص علي إجراءات خاصة للحماية، لاسيما المتعلقة بالملكيات الثقافية العقارية المسجلة في قائمة الجرد الإضافي، أو في انتظار التصنيف، أو المصنفة والموجودة داخل القطاع المحفوظ".

### 4. الدروس المستخلصة والآفاق المستقبلية

يرى حليم فايدي أن القصبة تحتاج إلى مشروع جديد يكون تحت "سلطة إشراف على أعلى المستويات، أي رئاسة الجمهورية أو رئاسة الحكومة" لقيادة "المعركة الجديدة لمدينة القصبة"، وينطلق من رؤية واضحة لحشد السكان وإدماج ممارسات الصون في عملية التجديد الحضري، حيث إن القصبة تمثل المركز التاريخي لمدينة الجزائر وهي تشكل في الوقت نفسه مستودعا مركزيا للذاكرة الوطنية. ويتطلب تصميم هذا المشروع التسليم أولا بضرورة:

- إدراج المنطقة المحمية في الخطة الاستراتيجية للجزائر في أفق 2029، حيث إن صون/تجديد التراث العمراني التاريخي هو واحد من بين أهم عناصر التهيئة العمرانية للعاصمة،
- تحديد مخطط عمراني لوسط المدينة يشمل الأشكال الحضرية المختلفة،
- نقل ثلثي السكان الحاليين إلى الضواحي القريبة التي لا تبعد عن القصبة أكثر من 15 كلم، وذلك حتى لا يشعروا بالغبرة،
- إعادة تأهيل السكن ليؤوي 20000 ساكنٍ وُلدوا في القصبة إضافة إلى 10000 شخص من النازحين، بحيث يكون عدد سكان القصبة في نهاية العملية 30000 شخص.

- إنشاء شركات عامة أوخاصة على أساس ميثاق للمحافظة يرفع قيمة الممتلكات العقارية ويجعل الاستثمار فيها آمنا.

ويحمل حليم فايدى الهيئات الدولية جزءا من المسؤولية عما سماه "التدهور الاستثنائي للقصة"، حيث إنها اكتفت بإعداد التقارير والتشخيصات الأحادية التي لا تلزم إلا أصحابها.

وأعرب حليم فايدى عن الأمل في أن تستأثر قضايا صون التراث الثقافي وتثمينه باهتمام مجتمعات البلدان العربية التي تواجه عالما في طور إعادة التشكل، لا في المجال الاقتصادي فحسب بل كذلك فيما يتعلق بالهوية والثقافة، وذلك حتى تدرك تلك المجتمعات ما لقضايا التراث من أهمية في تحقيق السلم الاجتماعي الذي يعتبر محركا لدفع التنمية الحضرية المتناغمة.

# تونس

## فطحة المضاظ على المدينة القديمة وتثمينها: الموكمة الجمعيائية والبلدية على مذك الزمن



(جامع الزيتونة)

### 1. تسارع نسق التحضر، وتهميش المدن التاريخية وعجز في الموكمة الحضرية

كانت البلاد التونسية في عام 1956، عند انتهاء الحماية الفرنسية، لا تزال بلدا ريفيا إلى حد بعيد، حيث إن أكثر من 60 ٪ من السكان كانوا يعيشون في الريف. وخلال الفترة ما بين 1960 و1980 ولدت أزمة النظام الزراعي، وانطلاق عملية التصنيع في العاصمة، وهو السياحة في المناطق الساحلية، والزيادة الملحوظة في النمو السكاني، مسار تحضر ذا وتيرة متسارعة انجرت عنه هجرات متواترة باتجاه العاصمة والمناطق الساحلية.

ففي عام 2015، ارتفعت نسبة السكان في المناطق الحضرية إلى ما يقارب 70 ٪، فيما انتشر بقية سكان المناطق الريفية في الجهات الداخلية التي تشكو من تدني مستويات التنمية فيها. ووفقا لنتائج التعداد السكاني الرسمي للمعهد الوطني للإحصاء الذي أجري في تونس عام 2014، فإن حوالي 3.5 مليون ساكن، من أصل 11.5 مليون نسمة هم سكان البلاد التونسية، لم يكونوا مسجلين في قوائم الدوائر البلدية.

وقد اتبعت تونس منذ الاستقلال سياسة التهيئة العمرانية ووضع الخطط التنموية لفائدة الدوائر البلدية. وفي عام 1985، نشرت وزارة التجهيز والإسكان أول استراتيجية وطنية للتهيئة العمرانية، واطاعة السلطات أمام خيارين:

- "القبول بازدياد الكثافة السكانية في المناطق الحضرية الساحلية حيث يوجد نسيج اقتصادي متكامل، علما بأن هذا الاختيار سيؤدي إلى زيادة حادة في التفاوت بين المناطق وتواصل الهجرة على نسق متواتر، أو تهيئة الظروف لانتشار أنشطة القطاع الثانوي وصناعات الخدمات في جميع المناطق من خلال تشجيع اللامركزية في التخطيط الحضري".

هذان السيناريوهان - واحد يرمي إلى تحقيق التوازن بين الجهات، والآخر يقبل بالكثافة السكانية- أثارا مناقشات سياسية حادة بين عامي 1990 و2010 أنذرت بالحاجة إلى حوكمة ديمقراطية تسمح باعتماد اللامركزية وتوزيع المصالح الإدارية على الولايات والدوائر في مختلف جهات البلاد.

إن هذا السياق السياسي والمؤسسي يوفر الإطار المناسب لطرح القضايا والإشكاليات المتعلقة بتخطيط المدن التاريخية، التي تشكل النسيج العمراني للبلاد التونسية.

وتعالج الحكومة التونسية إعادة تأهيل المساكن القديمة وتجديد التراث العمراني في أفق عام 2030، وذلك لوقف تدهور نسيج التراث العمراني، ومكافحة البؤس الاجتماعي في المدن القديمة، وتشجيع إنتاج السكن الاجتماعي، وإحياء الأنشطة الحرفية، والتصدي لتهديب السلع والتجارة الموازية.

## 2. الخطوات الرئيسية لعملية التخطيط/البرمجة/إعداد التصاميم

### 1968 - 1971: المنهج العلمي

تم إجراء مسح معماري لـ 15.000 مسكن بالمدينة القديمة واستقصاءات ديموغرافية واجتماعية واقتصادية شملت السكان والحرفيين والتجار.

### 1970 - 1972: منهاج العمارة الوظيفية

وقع ترميم دار الأصرم وتحويلها إلى مقر جمعية صيانة المدينة.

وكان الهدف، علاوة على الحفاظ على هذا القصر الذي أنشئ في القرن الثامن عشر، إثبات قدرة الفضاء التاريخي على استضافة برامج معاصرة.

## 1970 - 1974: عملية التخطيط العمراني

### اعتماد خطة الحفاظ على مدينة تونس واثمينها:

- إحالة الخطة من قبل وزارة الشؤون الثقافية على اليونسكو التي أقرت المشروع ودعت إلى تطبيقه.
- دراسة المشروع من قبل الأمانة العامة للحكومة التي لم تبادر إلى اتخاذ إجراءات الموافقة على المشروع لعدم وجود إطار قانوني ولوائح تنظيمية مناسبة.

## 1975 - 1980: تحول الجمعية إلى أداة تنفيذية

تم تحويل جمعية الصيانة إلى وكالة هندسة معمارية وتخطيط عمراني تحت إشراف بلدي. فقد أصبحت تلك الجمعية الذراع اليمنى للبلدية فيما يتعلق بالعمل الميداني، وأصبحت تدخلاتها تشمل المدينة العتيقة والمدينة الجديدة اللتين تشكلان قلب مدينة تونس. وعلى الرغم من اعتبار جمعية صيانة المدينة شريكا رئيسيا بفضل خبرتها، فإن الأسلوب الجديد الذي توخته في أدائها لوظيفتها الميدانية لم يسلم من انتقاد الدوائر الحكومية (التعمير، الثقافة) وكذلك المصالح البلدية.

## 1979 تسجيل مدينة تونس على قائمة اليونسكو للتراث العالمي

### 1985: إصدار التشريعات العمرانية للمدينة العتيقة كملحق لمخطط التهيئة العمرانية لدوائر بلدية تونس.

وتشكيل لجنة ثلاثية تتكون من البلدية، ووزارة الشؤون الثقافية، وجمعية صيانة مدينة تونس للنظر في تصاريح البناء.

## 1972 - 1995: منهج التجديد المعماري

تم تنفيذ مشروع التجديد الحضري لحي الحفصية، الذي كان في حالة متقدمة من التدهور والخراب، تحت إشراف بلدية تونس بوصفها صاحبة المشروع، وتكفلت جمعية صيانة مدينة تونس بإدارة المشروع بالتعاون مع هيئات حكومية (الشركة الوطنية العقارية للبلاد التونسية ووكالة التهذيب والتجديد العمراني). وقد أحرزت هذه العملية التي غطت حوالي 13 هكتارا، جائزة أغا خان للعمارة عن كل مرحلة من مرحلتها.

## 1980 - 1990: منهجية إعادة الهيكلة الحضرية

تمثّل مشروع إعادة هيكلة حي باب سويقة-الحلفاوين في إنشاء نفق لتيسير حركة المرور. وقد نتجت عنه العديد من عمليات الهدم التي شوّهت، نوعاً ما، المشهد الحضري التاريخي.

## 1992 - 1994: منهجية التدريب: وزارة الثقافة، المعهد الوطني للآثار والفنون

تقرر إقامة دورات تدريبية للمهندسين المعماريين المختصين في التراث، بعنوان "دورة تونس التدريبية".

- 1993: تم اختيار "دورة تونس" لتصبح "دورة تدريبية مغربية لفائدة المهندسين المعماريين في مجال الحفاظ على المعالم والمواقع الأثرية" من قبل الوزارات المعنية بالشؤون الثقافية في بلدان المغرب العربي (الدورة الثانية للمجلس المغربي لوزراء الثقافة والإعلام، تونس 7-8 يونيو 1993).

- 1994: 12 نوفمبر هو تاريخ انطلاق الدورة الأولى "لدورة تونس التدريبية"، وقد تميزت بالمحاضرة الافتتاحية حول "خصوصية التراث المغربي" التي قدمها السيد منير بوشناق، مدير إدارة التراث الثقافي في اليونسكو.

## - المنهجية المؤسسية:

1993: تحويل المعهد الوطني للآثار والفنون إلى المعهد الوطني للتراث (المرسوم 93-1609 المؤرخ في 26 يوليو 1993)، وهو مؤسسة عمومية ذات صبغة إدارية تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي ويخضع لإشراف وزارة الشؤون الثقافية.

1994:

- إصدار مجلة حماية التراث الأثري والتاريخي والفنون التقليدية (القانون 35 لسنة 94 المؤرخ في 24 فيفري 1994)،

- أصدرت وزارة التجهيز والإسكان والتخطيط العمراني مجلة التهيئة الترابية والتعمير (القانون 122 لسنة 94 المؤرخ في 28 نوفمبر 1994).

## 1992 - 2007: منهجية التصدي للسكن غير الصحي

مكّن مشروع "الوكايل"، وهي مساكن "مكوّخة" ومباني متداعية إلى السقوط، من إنجاز مشروع ضخم للسكن الاجتماعي، إلا أنه مع الأسف لم يتواصل.

يعتبر مشروع إعادة تأهيل وإعادة توطين وتجديد "الوكايل" في المدينة القديمة بتونس أول عملية ذات طابع اجتماعي في بيئة حضرية تاريخية. ولذلك فهو إنجاز فريد من نوعه في مجال سياسة السكن الاجتماعي.

### 2008 - 2010: منهجية التجميل

ساعد مشروع تجميل مسلك حضري (ساحة التريونال - ساحة القصبه) بهدف تنمية السياحة على تطوير طرقا وشبكات مختلفة وترميم واجهات المباني المجاورة.

### 3. تقويم الحوكمة

إن صيانة مدينة تونس من خلال العمل المشترك بين السلطات العامة والنسيج الجمعياتي، وفقا لمنهجية تروم اتباع الطرق السليمة (بحوث/تخطيط/وضع المشاريع)، تعتبر عملية إحياء حضري رائدة وسابقة لوقتها، حيث تم استخدام المدينة التاريخية كمختبر لتجربة إجراءات مؤسسية وقانونية ومالية وتشغيلية جديدة.

وتحسبا لإطلاق سياسة سكنية جديدة في المراكز التاريخية، من المفيد توجيه الاهتمام إلى الموضوعات الآتية:

- ◆ الالتزام السياسي من قبل المجتمع المحلي: إن الالتزام الأخلاقي والفكري للرئيس المؤسس لجمعية صيانة المدينة، قد تواصل مع رؤساء البلدية الذين خلفوه.
- ◆ اهتمام المنظمات الدولية: إن الاهتمام الذي أولته كل من منظمة اليونسكو، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، والبنك الدولي، والصندوق العربي للإئماء الاقتصادي والاجتماعي، قد ساعد على بناء تعاون مثمر إلى أبعد الحدود، وقد كان هذا التعاون ضروريا لضمان مستوى مهني جيد عند إطلاق ورشة عمل التخطيط الحضري لجمعية صيانة مدينة تونس.
- ◆ إن إطلاق إجراءات خصوصية للتمويل قد مكن من فتح الحساب الخاص بتأهيل الممتلكات التراثية التي يملكها الخواص.
- ◆ إن الممارسة الجيدة للعلاقات بين مختلف الإدارات قد أدت إلى أن يقوم كل طرف بمهامه على أحسن وجه، فنهضت البلدية بدورها بصفقتها صاحب المشروع، وقامت جمعية صيانة المدينة بمهامها كمدير للمشروع.
- ◆ إن التقدم المحرز في مجال قوانين المحافظة على التراث قد سمح بتوفير إجابات قانونية وتنظيمية بشأن التخطيط الحضري والحصول على تصاريح البناء في المدن التاريخية.

♦ إن مردود إدارة تصاريح البناء قد تحسن في إطار اللجنة الثلاثية المتكونة من البلدية والمعهد الوطني للتراث وجمعية صيانة المدينة.

#### 4. الدروس المستخلصة وآفاق المستقبل

إن التجربة المبتكرة التي قامت بها بلدية تونس وجمعية صيانة المدينة قد مكنت من تجاوز عدد من العقبات المؤسسية والقانونية والمالية التي كانت تعرقل عملية إعادة تأهيل/تجديد السكن والإجراءات - الخاصة والمحدّدة- المتعلقة بتخطيط المدينة التاريخية بالعاصمة.

لكن يبدو من الواضح أنه لم يقع تطبيق هذه التجربة الفريدة من نوعها على نطاق أوسع. وعلى الرغم من أن العديد من المدن القديمة الأخرى في البلاد التونسية قد أسست جمعيات مماثلة، فإنها لم تتمكن من تطبيق إجراءات شبيهة في مجال صون التراث المعماري وحمایته. فما هي أسباب عدم التمكن من استنساخ تجربة مدينة تونس؟ هل يعود ذلك إلى عدم وجود التزام سياسي من قبل السلطات المحلية في المدن الأخرى؟ هل هو قصور في مشاركة المجتمع المدني في الدفاع عن ممتلكاته المعمارية وتراثه الثقافي؟ أم هو الاعتماد المفرط على هياكل الإدارة المركزية بخصوص إنتاج السكن والتخطيط الحضري؟ أو هو مجرد ضعف الموارد المالية؟

## مفاقس



### 1. إنتاج المناظر الحضرية التاريخية

#### 1.1. المدينة التاريخية للإيالة

تأسست هذه المدينة وأسوارها وجامعها الكبير في العهد الأغلبي في منتصف القرن التاسع الميلادي (235 هـ / 849 م). وكانت صيانة الأسوار تتم، عادة، من مداخيل الأوقاف. و إلى منتصف القرن الثامن عشر كانت المدينة تشع على مجال شاسع شبه قاحل تكثر فيه الأشجار المثمرة (الزيتون واللوز والخوخ) ويمتد على سواحل بحرية ملائمة للملاحة والصيد البحري.

وكانت المدينة، في عهد ما قبل الثورة الصناعية، وما قبل الاستعمار، وما قبل الرأسمالية، تتميز بنسيج عمراي متجانس على نحو خاص، يتكون من مساكن ذات فناء صغير الحجم، تتوارثها الأسر جيلا بعد جيل، وأسواق مزدهرة في مجالي التجارة والصناعات التقليدية.

هذه الصورة لبلدة هادئة يقطنها مجتمع تقليدي متشبث إلى أبعد حد بأحكام الشريعة الإسلامية تفرض نفسها على المشهد السياسي المعاصر كشهادة ثقافية لنظام فضائي واجتماعي تاريخي، وكتعبير عن الهوية.

## 2.1. المدينة الجديدة

عند بداية التوسع الحضري على المجال الواقع بين البحر والمدينة العتيقة، تحول الحي الإفرنجي الذي يعود إلى القرن الثامن عشر إلى مدينة حديثة، صُممت طبق نموذج التوزيع الكلاسيكي، حيث يُوصَل مسلكه المحوري إلى الباب الرئيسي للمدينة.



Sfax en 1903, source Archives nationales de Tunisie



هذه المدينة الجديدة، التي سُيّدت في كنف التمسك باصطفاف المباني وارتفاعاتها، تخفي كنوزا للحدائثة المعمارية (الفن الحديث، الأرت ديكو، الفن المعماري في المغرب العربي (Arabisance)، الخ ..) ما زال البعض منها قائما بالرغم من حملات الهدم والتدمير. لقد كانت مدينة صفاقس العتيقة ومدينتها الجديدة، المتجاورتان جنبا إلى جنب، تشكلان في أوائل القرن العشرين مجمعا حضريا مهيكلا ترتبط عناصره المورفولوجية ارتباطا وثيقا بعضها ببعض.

وكانت بمكوّنيها، التقليدي والحديث، مدينة يطيب فيها العيش، كما يشهد على ذلك الصحفي P. Jacquemont عام 1918 بقوله: "صفاقس بالفعل واحدة من أجمل المدن في شمال أفريقيا، وذلك بفضل البلدية التي أدركت أن جمال مدينة مُتسعة هو في المقام الأول نتيجة جهد مشترك". فمجرد إلقاء نظرة على بطاقة بريدية تمثل مبنى البلدية (مقدمة الصورة)، وقصر بن رمضان والمسرح يكفي للتأكد من الجمال الحضري والمعماري المُشار إليه أعلاه.

هذه الصورة التي تمثل الأيام الخوالي، عندما كانت صفاقس تُدار بشكل جيد من قبل البلدية ويطيب العيش فيها، تغيرت، إن لم نقل انقلبت رأسا على عقب، من جراء القصف الذي تعرضت له المدينة في الحرب العالمية الثانية والذي دمر المسرح وأتلف وسط المدينة خلال عامي 1942 - 1943.

### 3.1. إعادة إعمار وسط المدينة في مرحلة ما بعد الحرب

بين عامي 1945 و1955، تولى المهندس المعماري Bernard Zehrfuss، الذي أحرز جائزة روما

الكبرى، تخطيط إعادة إعمار المدينة، فصمم مُجمَّعا حضريا ومعماريا رائعا وفقا للأشكال الأكثر إتقانا الواردة في ميثاق أثينا (CIAM 1933).

إن ما يسترعي الانتباه في عملية إعادة الإعمار هذه هو نوعية التنظيم الفضائي الرامية إلى تحقيق أهداف التجديد الحضري لمدينة صفاقس. إن هذا المجمع المعماري المجدد بالكامل يرتق النسيج الحضري القائم، كما ترتق الخياطة القماش الممزق: فهو يعيد نسج شبكة الربط بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة.

ولا تزال عملية إعادة التركيب الحضري المستنير هذه، المصممة من قبل المهندس المعماري Zehrfuss وفريق المهندسين المعماريين الذين كانوا معه، في فترة استثنائية من التحول السياسي والإداري، تفرض رؤيتها على جميع المناهج التخطيطية مهما كانت إلى يومنا هذا. فلا يمكن لأي مخطط تهيئة يشمل المناطق الحضرية للمدينة، ولا يمكن لأي تصميم حضري على المستوى البلدي، التغافل عن مسألة إعادة المركزية للمشهد الحضري التاريخي.

## 2. المنظر الحضري التاريخي في مواجهة التحضر الحديث

### المدينة العتيقة في انحطاط

#### 1.1.2. نزوح السكان

في عام 1956، كانت مدينة صفاقس العتيقة صغيرة الحجم، لا تتجاوز مساحتها 24 هكتارا، وكان عدد سكانها حوالي 11000 نسمة. وفي عام 2015 أصبح عدد سكان المدينة التاريخية يتراوح بين 2000 و2500 ساكن فقط (تقديرات جمعية صيانة المدينة).

وهكذا أفرغت مدينة صفاقس القديمة من سكانها في ظرف ستين عاما وخسرت وظيفتها السكنية.

#### 2.1.2. إعادة توظيف المساكن الشاغرة

ما فتئ عدد المساكن الشاغرة يزداد نتيجة نزوح السكان. وقد تمت إعادة توظيف هذه المساكن كمحلات تجارية للملابس المستعملة، أو كورشات لصناعة الأحذية، أو مستودعات لتخزين السلع. وساهم استخدام الطابق الأرضي للمنازل السكنية لأغراض تجارية في تحويل المدينة العتيقة إلى سوق "Soukalisation". و كان لهذا التحول، الذي جاء بصورة عفوية تقريبا، وخارج سيطرة البلدية، آثار مدمرة على المورفولوجيا الحضرية.

فقدت مدينة صفاقس العتيقة وظيفتها السكنية لفائدة أنشطة التصنيع والمناولة والتجارة الموازية. وهكذا تم تحويلها إلى سوق.

### 3.1.2. النسيج الحضري في حالة تدهور

تشكل المباني المهتدة بالسقوط خطرا على الأمن العام، كما يسبب هدمها ثغرات كبيرة في النسيج الحضري يصعب التعامل معها.

إن هذه المساحات الخالية وسط المباني يتم استخدامها كمصب للقمامة، كما يسهل عبرها الوصول إلى المنازل المجاورة لنهبها، علما بأن ما كان في المباني المهتومة من عناصر الزخرفة المعمارية يتم بيعه في السوق الموازية.

تفقد مدينة صفاقس القديمة، يوما بعد يوم، التجانس الفضائي على إيقاع التهديدات بالخراب وتكاثر الفجوات في النسيج الحضري بحكم هدم المباني الآيلة للسقوط .

### 4.1.2. أضرار إعادة البناء المفرطة

إن إعادة البناء بعد هدم المباني المتداعية إلى السقوط لا تحترم التصنيف السكني أو التشكّل العمراني لمدينة صفاقس. فالمباني الجديدة (التي بُنيت بتصريح أو بدون تصريح) لا تراعي التقسيم العقاري ولا ارتفاعات المباني المُجاورة ولا أشكال المنافذ... ممّا يتسبب في آثار مدمرة، تجعل مدينة صفاقس القديمة تفقد منظرها الحضري التاريخي وهويتها الثقافية.

### 5.1.2. تسارع ارتفاع معدلات الفقر

إن مزاحمة الأحذية الصينية التي تزايد استيرادها مؤخرا أصبحت تهدد المنتج المحلي. وقد لجأ صانعو الأحذية في صفاقس، في محاولتهم مقاومة هذه المنافسة، إلى حرفيات يتقاضين أجورا زهيدة، وهو ما جعل هذه المدينة تشهد تسارعا في معدلات الفقر من خلال تأنيث العمل في هذا المجال.

### 2.2. الفوضى البلدية والارتباك الجهوي

#### 1.2.2. الإخلال بهيكلية وسط المدينة

شهدت منطقة "باب بحر" ضغوطات متزايدة ناجمة عن المضاربات العقارية التي لم تتمكن

المصالح البلدية من تنظيمها، كما أن مخطط تهينة الدائرة الرئيسية لمدينة صفاقس سمح بزيادة ارتفاع المباني من طابق أرضي + 2 إلى طابق أرضي + 8.

ولم يرافق هذا التطور في الحق في البناء تصميم مشروع حضري كان يمكن أن يسمح بالسيطرة على حركة المرور وإيجاد حلول للمشاكل المتعلقة بمواقف السيارات. ومن باب المقارنة، يمكننا القول إنه لم تتم الاستفادة من أي درس مستنبط من مشروع إعادة إعمار باب بحر الذي نفذه B. Zehrfuss. ذلك أن السماح بالزيادة في ارتفاع المباني دون تنظيم الوظائف الحضرية يعني غياب سياسة صون متكامل للتراث العمراني وتجديد المناطق الحضرية.

أصبحت المدينة الجديدة لباب بحر في الثمانينيات من القرن الماضي "منطقة مركزية" تفتقر إلى أي تنظيم فضائي أو وظيفي.

## 2.2.2. محاولة إعادة التنشيط

قامت هذه العملية على إزاحة مقبرة كبيرة تبلغ مساحتها 60 هكتارا، كانت توجد بين أسوار المدينة و"الرُّبَطُ"، لبناء "صفاقس الجديدة"، وهو مجمّع عقاري ومركّب تجاري "أريد له أن يكون حديثاً". وكانت الغاية من ذلك إعادة تنشيط مدينة صفاقس، واستقطاب نخبها من الأكاديميين والصناعيين والتجار للاستثمار محليا، حيث كان الكثير منهم يستثمر في الأحياء الجديدة بتونس العاصمة التي تُوفر مستوى أعلى من الرفاه.

كانت النية في البداية تتجه إلى تصوّر "صفاقس الجديدة"، التي تقع في موقع استراتيجي عند مدخل الطريق المؤدية إلى تونس، كفضاء حضري انتقالي، وبعبارة أخرى كنوع من منتزه طبيعي يقصده السكان للترويح عن النفس، مع أن هذا الفضاء كان يضم أيضا مباني عالية. وقد كان من المفترض ألاّ تتسبب هذه المنطقة الطبيعية والحضرية ذات الكثافة السكانية المنخفضة في تعقيد سير حركة المرور بالمدينة (الفريق 8، 1977). غير أن السعي وراء تحقيق الأرباح، تحت ضغط المضاربات العقارية المعروفة لدى الجميع، أدى إلى أن تكون النتيجة مخالفة تماما لما كان متوقعا، إذ تحولت صفاقس الجديدة إلى منطقة حضرية مغلقة تعيق الوصول إلى المدينة.

كانت العملية العقارية مكثفة حيث إن المباني التي تم تشييدها يزيد ارتفاع بعضها عن بعض، وهي متراسة الواحدة حذو الأخرى، مما جعل المساحات المخصصة لمواقف السيارات محدودة. علاوة على ذلك، فإن سعة الطرقات الموصلة إلى هذه المباني لا تستجيب للمعايير المعتمدة، بحيث إنها لا تسمح في معظم الحالات بوقوف السيارات على جوانبها.

إن الانتكاسة التي عرفها هذا المشروع الحضري قد أدت بين عامي 1990 و2000 إلى تطوير قطاع الخدمات على نحو ملحوظ والاستخدام المنتظم للطوابق الأرضية لأغراض تجارية، على حساب توفير السكن في هذا الحي الجديد الذي واجه، حاملاً اكتملت أشغاله، مشاكل توظيفية.

هل إن صفاقس الجديدة مجرد عملية فاشلة كما يرى فاخر الخراط، أم "كارثة حضرية"، حسب

تعبير تييري باكو<sup>54</sup> Thierry Pacquot؟

### 3.2. السكن غير المنظم كحل مسموح به

#### 1.3.2. التحضر العشوائي للبيئات الحضرية

كانت صفاقس محاطة بمساحات شاسعة مغطاة بالأشجار وزراعة الخضروات تتخللها مسالك ريفية، تشمل "الجنان"، وهي بيئات البرجوازية التقليدية بالمدينة القديمة، حيث كانت تلك الأسر تلتجئ إليها حينما تشتد الحرارة في فصل الصيف.

عَرَفَ هذا النمط المتميز من المعيشة نهايته في مطلع الستينات، عندما تحولت "الجنان"، من خلال تجزئة الأراضي وتوزيعها، إلى أحياء مهيأة لبناء الفيلات. لقد كان بإمكان هذا النمط الحضري الخاص أن ينتج نوعاً من المدن الحدائقية المريحة لو كانت العملية العمرانية هذه خاضعة لتخطيط منظم. وهو ما لم يحصل.

وتعتبر تجزئة الأراضي، من الناحية القانونية، مجرد تقسيم بسيط للملكية العقارية، فهي لا تمثل تهيئة عمرانية مجهزة ببنية تحتية وطرق ومرافق أساسية تخضع للترخيص. كما أن هذا السكن غير الرسمي الذي ينجز بدون التقيد بمعايير، وبدون رقابة، يتسبب في إخلالات خطيرة: عدم ربط المباني بشبكة الصرف الصحي، والاكتفاء، عوضاً عن ذلك، ببناء خزانات للصرف الصحي تتسبب مياهها المستعملة في تلوث جسيم للمياه الجوفية. هذا إضافة إلى تحول الفيلات إلى عمارات عندما يزداد عدد أفراد العائلات، وإلى الاستخدام المكثف للسيارات مما يتسبب في تدهور حالة الطرق الريفية.

#### 2.3.2. التحضر العشوائي في الأراضي غير الصالحة للبناء

يلجأ السكان النازحون من ضعاف الحال والعاطلون عن العمل والعاجزون عن الحصول على السكن الشعبي الرسمي إلى تعمير مناطق غير معدة للبناء كالطرق التي لم تعد مستعملة، والمساحات

الصناعية المهجورة، ومصبات النفايات المنزلية، والمناطق التي يمنع فيها البناء، والأماكن العقارية غير المقسمة الخ...

ويتميز الساحل الجنوبي لصفاقس، الواقع بين الطريق الوطنية والملاحات- التي هي منطقة كثيرا ما تتعرض إلى للقيضانات- بسرعة وتيرة التحضر، لاسيما وأن ضغوط الهجرة من المناطق الداخلية (القرين وسيدي بوزيد) ما فتئت تتزايد منذ بداية سنوات 2000.

### 3. المشاريع العمرانية

#### 1.3. إعادة تهيئة المناطق الصناعية الساحلية

أنتجت المناطق الصناعية الواقعة على الشواطئ الشمالية والجنوبية لساحل صفاقس، والمعدة لمعالجة الفسفاط المجلوب من قفصة، ترسبات هائلة من الفوسفوجيبس تسببت في تلوث خطير للشواطئ التي يرتادها المواطنون وتهدد بوقف استغلال الملاحات.

وقد مكنت عملية القضاء على التلوث في الساحل الشمالي من تطهير أراض تغطي مساحتها 450 هكتارا على الواجهة البحرية، مخصصة لإنجاز مشروع تبرورة العقاري. ويستهدف موقع تبرورة أهالي صفاقس وكذلك الشركات والمضاربين العقاريين. وهنا أيضا، ينبغي السعي إلى تصميم مشروع حضري ينصهر ضمن عملية تخطيط استراتيجي، وذلك لمعالجة الإشكاليات المطروحة المتعلقة بالتنظيم الفضائي، بما في ذلك كيفية إدماج خط السكك الحديدية ومحطة القطار والميناء التجاري وميناء تصدير المواد المعدنية والطريق السريعة المخترقة التي تربط بين الشمال والجنوب والمنطقة الصناعية المجاورة، إلخ ...

وقد واكبت تصميم هذا المشروع الحضري (والذي لا ينبغي أن يعيد أخطاء صفاقس الجديدة) نقاشات سياسية ومهنية مكثفة، شاركت فيها إسبانيا (إقليم برشلونة)، في إطار اتفاقية للتعاون الثنائي، والجهات المانحة (الوكالة الفرنسية للتنمية وبنك الاستثمار الأوروبي) إلخ ...

تخضع الاستراتيجية التخطيطية الرامية إلى إعادة هيكلة كامل المجمع الإقليمي المكون من المدينة القديمة ووسط المدينة ومنطقة تبرورة الساحلية إلى مراجعة مستمرة. ولكن عدم إمكانية مناقشة الخيارات القطاعية للإدارات المركزية المسؤولة عن الأشغال العامة والسكك الحديدية ومحطة القطار والجسور، يجعل السلطات المحلية والجهوية بصفاقس غير قادرة على تنفيذ تجديد المنظر الحضري التاريخي.

إن تطهير الساحل الجنوبي من التلوث يتوقف على إغلاق المجمع الكيميائي (SIAPE) الذي يستمر في إنتاج شوائب الفوسفوجيبس التي تتراكم بكميات هائلة في المنطقة الساحلية. وقد تم إقرار مبدأ إغلاق المجمع منذ عام 1996، لكن لم يتم نقل المصنع إلى يومنا هذا.

يعتمد مستقبل صفاقس الكبرى (التي كان يسكنها 600000 نسمة في الدوائر البلدية و1000000 نسمة بالمناطق الجهوية في عام 2014) على إعادة النظر في وضعها الصناعي المتعلق بصناعة الفسفاط، وإزالة التلوث البري والبحري لإعادة إحياء النظم الإيكولوجية المتدهورة، وهي شروط ضرورية لتحقيق التنمية الحضرية المستدامة.

### 2.3. إعادة تأهيل طريق للمتجلين وتهيئة البنية التحتية الأساسية في المدينة القديمة

استئناسا بالتجربة التي تمت في مدينة تونس القديمة لتهيئة طريق للمتجلين، بادرت البلدية ووكالة التهذيب والتجديد العمراني، في إطار التعاون مع وكالة التنمية الفرنسية، إلى تنفيذ مشروع مماثل في مدينة صفاقس العتيقة في عام 2013.

ويعتبر ما تم إنجازه لإعادة تهيئة البنية التحتية الأساسية (المجاري ومياه الشرب والكهرباء والغاز والهاتف) مثالا للتهذيب العمراني يجدر تعميمه على المدينة القديمة كلها. ومع ذلك، فقد اقتصر عمل تهذيب المنازل التقليدية على تحسين واجهاتها، وهو ما لا يمكن اعتباره إعادة تأهيل لأن إعادة التأهيل تتطلب اتخاذ إجراءات تقنية ومالية أوسع نطاقا.

## 4. الحوكمة المؤسسية

### 1.4. وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

تمثل وزارة الثقافة والمحافظة على التراث السلطة الحكومية المسؤولة عن تطبيق مجلة حماية التراث الأثري والتاريخي والفنون التقليدية (1994). وتعمل الوزارة من خلال المعهد الوطني للتراث الذي يضم التفقدية الجهوية بصفاقس وهي المسؤولة عن المحافظة على التراث المادي وغير المادي في كامل الساحل الجنوبي للبلاد التونسية. و نظرا لهذا الامتداد الجغرافي الهائل لمجال عمل هذه التفقدية الجهوية، فإنها تحتاج إلى مزيد من الموارد البشرية والمادية لكي تكون قادرة على أداء مهامها. وللأسباب نفسها، تلاقى التفقدية الجهوية صعوبات جمة في حماية المعالم التاريخية لمدينتي صفاقس القديمة والجديدة وتسيير عمليات إعادة التأهيل أو الترميم اللازمة، وتطوير خطة للحفاظ على مدينة صفاقس وإعادة تهيئتها وفقا لما تنص عليه مجلة حماية التراث.

## 2.4. وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية

إن وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية هي الجهة المسؤولة عن تطبيق مجلة التهيئة الترابية والتعمير (1994). وهي تعمل من خلال الإدارة الجهوية للتجهيز التي تتمثل مهامها، بموجب الأوامر والمراسيم، في الآتي:

- إعداد المخططات المديرية للتهيئة الترابية وخطط التهيئة العمرانية لبلديات صفاقس،
  - النظر في طلبات الحصول على تصاريح البناء وتقسيم الأراضي،
- وهي أيضا سلطة الإشراف على شركة الدراسات وتهيئة السواحل الشمالية لمدينة صفاقس المشرفة على مشروع تبرورة.

## 3.4. وزارة الداخلية، الإدارة العامة للجماعات المحلية

إن الإدارة العامة للجماعات المحلية هي السلطة المسؤولة عن تطبيق القانون الأساسي للبلديات لعام 2006.

- وهي سلطة الإشراف الإداري والمالي لبلديات صفاقس الكبرى السبع.
- تقوم المصالح البلدية، بالتنسيق مع الإدارة الجهوية للتجهيز، بمراقبة تنفيذ مخططات تأهيل البلديات وإصدار تصاريح البناء وتقسيمات الأراضي.

4.4 • تتكفل جمعية صيانة المدينة، التي تم إنشاؤها في عام 1981 (أي بعد أربعة عشر عاما من إنشاء جمعية صيانة مدينة تونس)، والتي يرأسها رئيس بلدية صفاقس، بتقديم المساعدة للمصالح الفنية التابعة للدوائر البلدية في جميع المسائل المتعلقة بالتراث.

- قامت هذه الجمعية، التي تتلقى المساعدة من وكالة التهذيب والتجديد العمراني، بالدراسات التي استرعت اهتمام السلطات المحلية والمركزية إلى قضايا التراث المطروحة في صفاقس. إلا أن عدم توفر الموارد المالية والبشرية الكافية لهذه الجمعية قد تسبب في اختفائها تقريبا عن الساحة التقنية.

- وقد بادرت اللجنة المشتركة لبلديات صفاقس الكبرى، برئاسة رئيس بلدية صفاقس، إلى إطلاق استراتيجية تنمية صفاقس الكبرى، وهي دراسة بالغة الأهمية مكنت من تعبئة المسؤولين المنتخبين والإدارات المركزية والمؤسسات العامة وتجار الخدمات والهيئات المهنية والأكاديمية والمجتمع المدني.

إن استراتيجية تنمية صفاقس الكبرى، التي أشبعت بحثا ونقاشا، تستحق كل العناية والاهتمام من قبل السلطات السياسية.

## 5. بروز المجتمع المدني على الساحة

منذ عام 2011، اكتسب المجتمع المدني الصفاقي حرية التعبير، فافرض وجوده على الساحة. فقد أصبح يطالب السلطات بمشاركة السكان في صون التراث العمراني التاريخي لمدينة صفاقس. وهكذا أصبحت الحوكمة المؤسسية مطلباً ملحا للعديد من الجمعيات والتعاونيات والهيئات المجتمعية.

◆ لم تتمكن جمعية صيانة مدينة صفاقس، التي تم إنشاؤها في عام 1981، من إثبات وجودها لعدم توفر القدرات المهنية والموارد المالية لديها، وخاصة بسبب غياب دعم سياسي فعال، خلافا لجمعية صيانة مدينة تونس التي شاركت منذ نشأتها في عام 1967، بطلب من رئيس البلدية، في التخطيط العمراني للعاصمة.

◆ تم في 2011 إنشاء "جمعية صفاقس المزبانية" وهي حركة مدنية نظمت مسيرة من صفاقس إلى تونس (في عام 2013)، وعرضا في الهواء الطلق في باب الديوان، وسلسلة بشرية من 2500 شاب حول أسوار المدينة (في عام 2015)،

◆ تواصل جمعية "نهاوند" تشجيع الفنانين الشباب وتنظيم المهرجانات الموسيقية.

◆ أطلقت جمعية "أصدقاء المدينة العتيقة" مسابقة حول إعادة تأهيل شارع الشيخ التيجاني من خلال تعبئة الموارد المالية من تونس ومن خارجها من أجل إنجاز هذا المشروع،

◆ نظمت جمعية أصدقاء الفنون التشكيلية مسابقة حول إعادة تهيئة أبراج صفاقس،

◆ بادر عدد من الجمعيات إلى تعبئة أهالي صفاقس لتهيئة شاطئ الكازينو المدمج في الميناء التجاري،

◆ بادرت إحدى الشركات إلى شراء بيوت تقليدية في المدينة القديمة لإعادة تأهيلها لأغراض التنشيط الثقافي وخدمات الضيافة والسياحة.

إن بروز المجتمع المدني على الساحة في عام 2011 وتكوينه نسيجا مجتمعيًا رائعًا في صفاقس، يعبر عن العزم على دفع السلطات إلى إشراك المواطنين في صون المناظر الحضرية التاريخية، وذلك طبقًا للتوصية الصادرة عن اليونسكو في عام 2011، وبحثًا عن تحقيق التنمية المستدامة والملتزمة.

## 6. الدعم السياسي

تسبب التوسع العمراني العشوائي في السنوات الخمسين الماضية في تحولات عميقة في مدينة صفاقس، وخاصة في تشكيلتها الحضرية، مما أدى، في نهاية الأمر، إلى الحطّ من منزلة هذه المدينة التي كانت تتطلع إلى مصير أفضل.

فلماذا هذه الفجوة بين المعطيات والحقائق التي وردت في المثال التوجيهي لتهيئة التراب الوطني وبين رد فعل السلطات الوطنية والإقليمية والمحلية؟

قامت جهات عديدة بتوجيه أصابع الاتهام إلى الدعم السياسي، حيث اعتبر البعض أن الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال لم تمنح صفاقس الأهمية التي تستحقها<sup>55</sup>.

ويتراوح شعور أهالي صفاقس اليوم تجاه مدينتهم بين حنين إلى روعة الماضي الذي كانت تفخر به مدينتهم وطوباوية التجديد الحضري الذي من شأنه أن يمنحها مكانة الحاضرة التي تشعّ على جميع أنحاء البلاد التونسية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط...

وأمام هذا الحنين إلى الماضي المجيد والطوباوية السياسية، يسعى المجتمع المدني، منذ عام 2012، من أجل تسجيل صفاقس على قائمة التراث العالمي (اليونسكو)، كما نجح في إقناع الألكسو بإعلان صفاقس عاصمة للثقافة العربية لعام 2016.

## 7. الدروس المستخلصة

1. يعتبر فاخر الخراط أن مدينة صفاقس، هذه العاصمة الجهوية التي تشهد تحولات اقتصادية واجتماعية منذ أواخر الستينيات، تفتقر إلى آفاق تنظيم فضائي واضحة المعالم أو استراتيجية تنموية حضرية مستدامة تتولى السلطات العامة مسؤولية تنفيذها بدون أي لبس، لتكون قادرة على المحافظة على تراثها العمراني التاريخي، المهدد بشكل خطير، وعلى إعادة إحيائه.
2. ينبغي أن تستأثر المناظر الحضرية التاريخية لصفاقس بمزيد الاهتمام من قبل الوزارات المسؤولة عن الثقافة والتعمير والإسكان حتى تسلم من تبعات التمدّد الحضري المعاصر غير المنظم.
3. يحتاج الإطار المؤسسي بصفاقس، لكي ينهض بمسؤولية حماية المعالم الأثرية وترميمها، إلى مزيد من الموارد البشرية المؤهلة والتمويل العام والآليات التقنية والمالية لتأهيل السكن القديم لأغراض اجتماعية.
4. وفي هذا السياق يقول فاخر الخراط: إن "سرعة تدهور حالة المدينة القديمة تحمل في طياتها مخاطر قد تؤدي إلى إفراغها من سكانها واختفاء المدينة الأوروبية من خلال الهدم وإعادة الإعمار".

## 8. الآفاق المستقبلية

يعتبر فاخر الخراط أن "الإمكانات الهائلة التي يمثلها الشعور بالهوية وباستعادة التملك الاجتماعي والثقافي لصفاقس العتيقة" تفتح المجال لعقد كل الآمال على مستقبل صفاقس، شريطة الإعلان عن مشروع طوعي في مجال المحافظة على التراث العمراني.

إن دينامية المجتمع المدني والأمل في بلورة حوكمة محلية وجهوية، وفقا لما أذن به الدستور الجديد للجمهورية التونسية الصادر في 27 يناير 2014، تفتح آفاقا مستقبلية جديدة. ذلك أن السلطة المحلية المفصلة مهامها في الباب السابع من الدستور توفر إطارا لمواطني صفاقس للمحافظة على تراثهم العمراني التاريخي وإعادة إحيائه وفقا لما ورد في توصية منظمة اليونسكو لعام 2011 بشأن المناظر الحضرية التاريخية.

# وادي النيل

## القاهرة التاريخية



(الجامع الأزهر، المصدر: موقع الأزهر)

### 1. الوضعيات الديموغرافية في القاهرة التاريخية والقاهرة الكبرى

- عدد سكان القاهرة التاريخية قليل للغاية (440.000 ساكن) مقارنة بمدينة القاهرة الكبرى (16 مليون نسمة) في سنة 2015.
- بالنسبة إلى الكثافة السكانية، تعد القاهرة التاريخية 32.600 نسمة/كم<sup>2</sup> في مساحة تعادل 13.5 كم<sup>2</sup>، مقابل 59.300 ساكن/كم<sup>2</sup> بالنسبة إلى القاهرة الكبرى .
- شهد عدد سكان القاهرة التاريخية تزايدا بين 1882 و1950، بينما شهد تناقضا متواصلا بين 1950 و2006.

### 2. التوسع العمراني في القاهرة التاريخية: أهم التواريخ:

1171-969: الفترة الفاطمية

- تأسيس مدينة القاهرة في 6 يوليو 969م

## 1171-1249: الفترة الأيوبية

- تطور القاهرة في ضاحيتها الجنوبية وتأسيس مركز المدينة.
- بناء السور وسور القلعة

## 1250-1517: فترة المماليك

- تأكيد مكانة القاهرة كعاصمة سياسية واقتصادية وثقافية
- التطور العمراني والمعماري الذي أنتج تراثا ثقافيا ثريا ومتنوعا ما لا تزال بعض شواهدة قائمة.

## 1517-1918: الفترة العثمانية

ابتداء من سنة 1517، عرفت القاهرة، كعاصمة إيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية، تنظيما عمرانيا وتجاريا واضحا، ولكن دون الاهتمام بالزينة المعمارية، ودون توسع فضائي ملحوظ.

1805 - 1848: تضمنت إصلاحات محمد علي باشا تحديث الفضاءات بحسب التقنيات الغربية. فقام، على سبيل المثال، بمد شبكة من الطرقات، واختط الشوارع الحضرية التي استوجبت تصفيف المباني.

1863 - 1879: أطلق الخديوي إسماعيل باشا والمهندس علي مبارك وزير الأشغال العامة، مخطط توسيع القاهرة حسب النموذج الذي اتبعه هوسمان Haussmann لتحديث مدينة باريس. ويقوم هذا المخطط على اختراق القاهرة التاريخية من أجل تسهيل حركة السيارات وإنشاء حدائق عمومية.

1880-1918: في نهاية القرن التاسع عشر أصبحت القاهرة مدينتين في مدينة واحدة: المدينة الجديدة بمحاذاة المدينة العتيقة. وأصبح التراث الحضري التاريخي والمعمار السكني التقليدي تحت ضغط إرادة التحديث، من جهة، ومُغريات المضاربات العقارية، من جهة ثانية.

لقد حرك هذا التجاذب بين نزعة المحافظة على التراث ونزعة التخطيط الحديث كلا من السلطات والمواطنين. وفيما يلي بعض التواريخ الهامة:

1881: تأسيس لجنة حفظ الآثار العربية في عهد الخديوي توفيق.

1930: اعتبار القاهرة القروسطية بمعاملها كمجموعة متجانسة متكاملة يجب صونها (المهندس المعماري إدmond بوتى Edmond Pauty).

1952: اشتداد التجاذب بين التقاليد والحداثة: أشكال جديدة للتمدن تحاصر القاهرة التاريخية،

1955: وضع المخطط الهيكلي للقاهرة،

1960: وضع المخطط الخاص بالقاهرة الفاطمية،

1969: وضع مخطط لتحديث القاهرة القروسطية: إنشاء شوارع لحركة السيارات، وإعطاء الأولوية للاعتبارات الوظيفية،

1979: تسجيل القاهرة التاريخية على قائمة التراث العالمي لليونسكو،

1980-2010: استفحال الضغط العمراني على المركز التاريخي، وتضاعف الأنشطة التجارية والصناعية على حساب السكن التقليدي.

2015 : حصيلة مشاكل التخطيط التي ينبغي حلها في منطقة القاهرة الكبرى:

- أ. توسع عمراني تصعب السيطرة عليه،
- ب. مساكن عشوائية مشيدة على الأراضي الزراعية لوادي النيل وفي الصحراء،
- ج. بنية تحتية أساسية ومرافق عمومية غير كافية،
- د. تلوث (فضلات منزلية ومياه مستعملة)، وإضرار بالبيئة،
- هـ. نزاعات عقارية تعرقل إعادة تأهيل القطاع السكني والإحياء العمراني،
- و. فصل اجتماعي وفضائي بين "الأحياء الراقية" وأحياء الصفيح،
- ز. ضرورة مزيد من الحوكمة المؤسسية بتحديد اختصاص ودور كل من المتدخلين.

### 3. الجهاز القانوني والمؤسسي

- ◆ طبقا لدستور 2014 "تلتزم الدولة بالحفاظ على الهوية الثقافية المصرية بروافدها الحضارية المتنوعة"
- ◆ قانون حماية الآثار رقم 117 لسنة 1983 المعدل بالقانون رقم 12 لسنة 1991
- ◆ يعتبر المجلس الأعلى للآثار الجهة الحكومية المعنية بالإشراف على التراث الحضاري والمسؤولة عن سلامته وإدارته وحمايته وحفظه وعرضه وتوثيقه. ومن بين مهام المجلس:
  - تخطيط السياسة العامة للآثار والتنسيق بين الأجهزة المختلفة.
  - اتخاذ الإجراءات المتعلقة بالحماية والتسجيل والمصادرة والترميم.
  - المصادقة على منح رخص البناء في القاهرة التاريخية.
  - تسيير صندوق الدعم المالي للآثار ...

◆ القانون 144 لسنة 2006 المتعلق بتنظيم هدم المباني والمنشآت غير الآيلة للسقوط والحفاظ

### على التراث المعماري

ينص هذا القانون على أنه "يحظر الترخيص بالهدم أو الإضافة للمباني والمنشآت ذات الطراز المعماري المتميز المرتبطة بالتاريخ القومي أو بشخصية تاريخية أو التي تعتبر مزارا سياحيا..". وتحدد معايير ومواصفات هذه المباني والمنشآت بموجب قرار من رئيس الوزراء.

◆ القانون 119 لسنة 2008 المتعلق بالتخطيط العمراني والتنسيق الحضاري وتنظيم أعمال

البناء والحفاظ على الثروة العقارية. وهو يحدد المؤسسات المسؤولة عن الأمور المتعلقة بالبناء والتخطيط والنمو العمراني.

فعلى الصعيد الوطني:

- المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية، ويرأسه رئيس الوزراء. ويقوم، في إطار مهامه، بإقرار الأهداف والسياسات العامة للتخطيط والتنمية العمرانية والتنسيق الحضاري على المستوى القومي...

- الهيئة العامة للتخطيط العمراني. وهي المسؤولة عن إعداد مخططات وبرامج التنمية العمرانية على المستوى الوطني وعلى مستوى الأقاليم والمحافظات، ومراجعة وإقرار المخططات على المستوى المحلي.

وعلى الصعيد الإقليمي والمحلي، توجد فروع للهيئة العامة للتخطيط العمراني هي:

- المركز الإقليمي (في كل إقليم اقتصادي)

- الإدارة العامة للتخطيط والتنمية العمرانية (في كل محافظة)

ويتناول القانون في بابه الثاني موضوع التنسيق الحضاري الذي يعرفه بأنه "الأعمال التي تحقق القيم الجمالية والحضرية للشكل الخارجي للأبنية والفراغات العمرانية والأثرية وأسس النسيج البصري لكافة المناطق الحضرية بالدولة والطابع المعماري والعمراني مع الحفاظ على مواقع وعناصر البيئة الطبيعية". ويعتبر الجهاز القومي للتنسيق الحضاري الجهة المسؤولة عن تحقيق أهداف التنسيق الحضاري، بما في ذلك إعداد الأسس والضوابط المتعلقة بالحفاظ على المناطق والمباني والمنشآت ذات القيمة المتميزة وتقديم المقترحات الخاصة بتحديدتها إلى المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية لإصدار قرار بشأنها...

ويعرف القانون المباني ذات القيمة المتميزة ( غير الخاضعة لقانون الآثار رقم 117 لسنة 1983)

بأنها: "المباني والمنشآت ذات الطراز المعماري المتميز المرتبطة بحقبة تاريخية أو قيمة فنية من حيث

أسلوب إنشائها وأنماط وطرز بنائها أو وظيفتها، أو المرتبطة بحرفة نادرة، أو علاقتها بشخصية تاريخية، أو ارتباطها بحوادث قومية أو دينية هامة"، كما يعرف المناطق ذات القيمة المميزة بأنها "المناطق التي تتميز بثراء محتوياتها ذات القيمة التراثية أو المعمارية أو العمرانية أو الرمزية أو الجمالية أو الطبيعية، وتحتاج إلى التعامل معها كوحدة متكاملة للحفاظ عليها".

#### وفيما يخص القاهرة التاريخية ينبغي ذكر نصين:

- القرار رقم 250 لسنة 1990 بشأن تحديد ارتفاعات المباني في بعض مناطق القاهرة التاريخية
  - قرار المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية بتاريخ 29 يوليو 2009 باعتماد أسس ومعايير الحفاظ على المناطق ذات القيمة المتميزة بالقاهرة التاريخية،
- وفي يناير 2015 تم تعديل حدود القاهرة التاريخية بناء على توصيات "مشروع الإحياء العمراني للقاهرة التاريخية" وتمت الموافقة عليه من قبل الحكومة.

وهكذا تطلب رسم حدود المدينة التاريخية للقاهرة وإعداد قوانين التخطيط العمراني والمعماري الضرورية لإعادة تأهيل المباني السكنية القديمة والإحياء العمراني ربع قرن، من سنة 1990 إلى سنة 2015

#### 4. تقويم برامج التخطيط والتنمية العمرانية

يدعو كريم إبراهيم إلى مزيد من التنسيق وتوحيد الجهود بين مختلف الوكالات الحكومية، علما بأن القانون عدد 119 لسنة 2008 يعتبر أن الفضاءات الحضرية الهامة يجب أن تحظى بالأولوية في التنمية العمرانية.

#### 5. التعاون مع اليونسكو

يعتبر كريم إبراهيم أن تطوير التعاون مع اليونسكو يتطلب

- التحديد الدقيق لموقع القاهرة التاريخية والإجراءات الإدارية والقانونية للصون والحماية.
- تعزيز وتدعيم التنسيق بين مختلف الجهات الإدارية وتحديد مسؤوليات كل جهة،
- تعزيز التصرف الحضري من أجل مراقبة أي مخالفات للقانون داخل المدينة،
- إنشاء "منطقة فاصلة للحماية" من أجل ضبط وتنظيم التخطيط الحضري في محيط المدينة التاريخية.

وبصفة عامة، يلاحظ أن نجاح مشروع حماية الموقع الثقافي، بغض النظر عن البلد، يرتبط ارتباطاً شديداً بجودة العلاقات بين المنظمة العالمية والحكومة المعنية.

◆ في سنة 1992 شهدت القاهرة التاريخية هزة أرضية تم تقويم تداعياتها من طرف اليونسكو والمجلس الدولي للمعالم والمواقع.

◆ وفي سنة 2002، تم تنظيم ندوة دولية حول صون وترميم القاهرة الإسلامية من قبل وزارة الثقافة بالتعاون مع مركز التراث العالمي لليونسكو.

◆ في سنة 2004، تمت مناقشة التوصيات (سوجو، لجنة التراث العالمي) و طلب من الحكومة تفعيلها.

◆ في سنة 2008، طلبت اليونسكو وضع خطة إدارة وحفاظ على الموقع الثقافي المسجل في قائمة التراث العالمي وكان الهدف من ذلك وقف تدهور النسيج العمراني للقاهرة التاريخية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، طلبت اليونسكو الآتي:

- إحداث وحدة فنية تركز جهودها بشأن الإدارة والحفاظ، وتضم خبرات المؤسسات المصرية المعنية،

- تطبيق القانون عدد 119 لسنة 2008 من أجل التحكم في أنشطة المباني بهدف الحماية العاجلة الواجب فرضها.

◆ في سنة 2009، اتفقت السلطات المصرية ومركز التراث العالمي على إعداد أنشطة مشتركة هدفها حماية وإحياء التراث العمراني للقاهرة التاريخية في إطار برنامج اليونسكو لمساعدة الحكومة المصرية المعنون "حماية التراث الثقافي في مصر".

بين سنتي 2010 و2014 مكن الاتفاق المبرم بين الحكومة المصرية ومركز التراث العالمي من إطلاق "مشروع الإحياء العمراني للقاهرة التاريخية" بالتعاون مع السلطات المحلية.

في شهر يناير 2015، وافقت الحكومة المصرية على المنطقة الفاصلة للحماية المقترحة من قبل لجنة التراث العالمي. وبذلك، وبعد 35 سنة (1979-2015) من العلاقة بين الحكومة المصرية ولجنة التراث العالمي، أصبح مشروع الإحياء العمراني للقاهرة التاريخية مفعلاً.

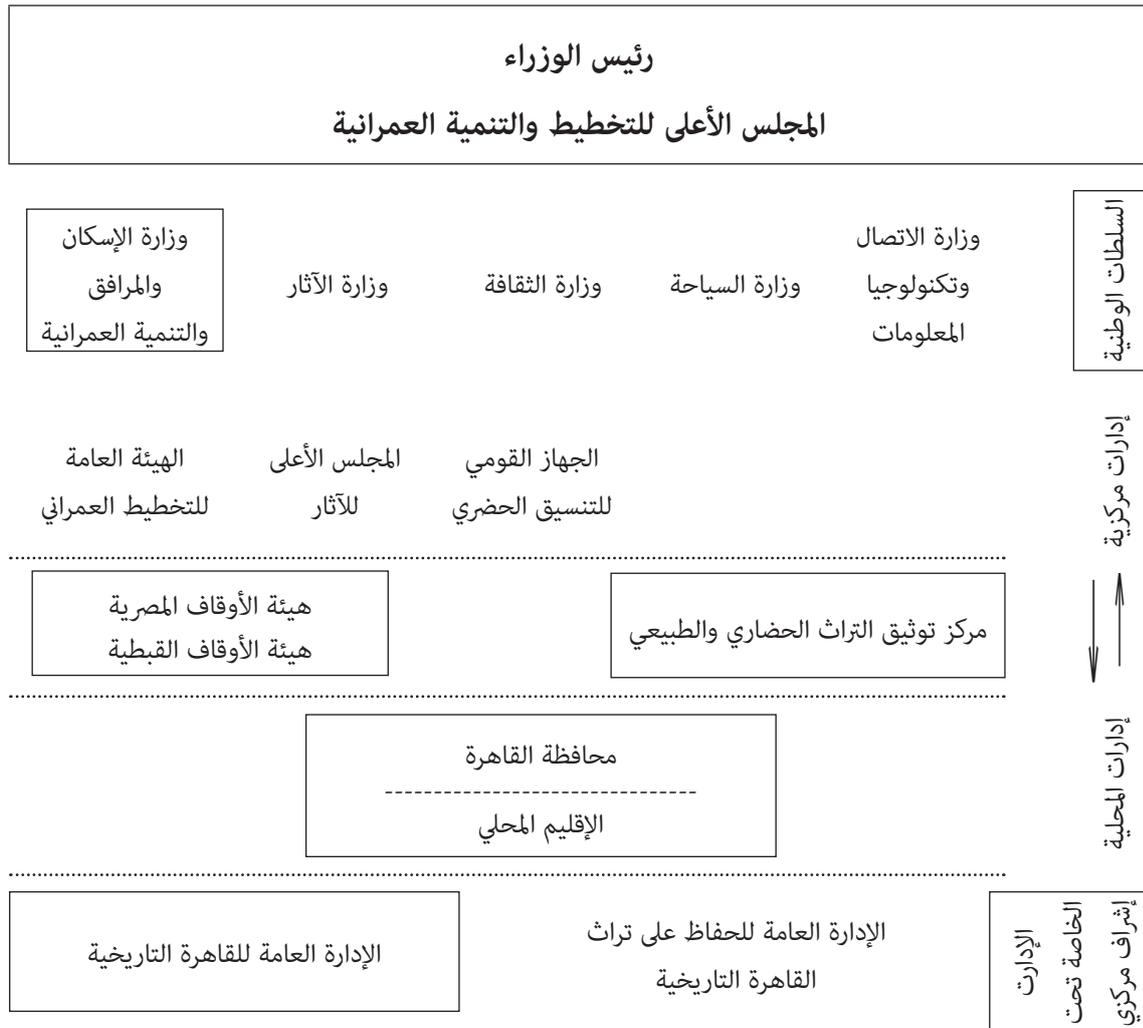
## 6. دور المؤسسات الفاعلة في عملية المحافظة على القاهرة التاريخية

### 6.1. خصائص الفاعلين

إن الهيئات الخمس عشرة المشرفة على عملية الحفاظ والإحياء الحضري على المستوى المركزي من جهة، والإقليمي والمحلي من جهة أخرى، تتفاعل حسب إجراءات هرمية ومنفصلة. وقد قام كريم إبراهيم بتحليل نسبة تعقيد هذه الهيكلية التي تولد خلافاً وتداخلاً في الأدوار والمسؤوليات :

### 6.2. توزيع الأدوار

يبين هذا التنظيم الهيكلي عملية توزيع الأدوار بين الهيئات الخمس عشرة المكلفة بالحفاظ على القاهرة التاريخية.



### 6.3. مسار اتخاذ القرار الحكومي

يعتبر المجلس الأعلى للتخطيط والتنمية العمرانية، الذي يترأسه رئيس الوزراء، الجهاز الحكومي المسؤول عن رسم حدود القاهرة التاريخية والمصادقة على الوثائق المتعلقة بصونها وإحيائها. ويتم اتخاذ القرار من قبل رئيس الوزراء بعد الموافقة المسبقة لثلاث وزارات أساسية هي وزارة الإسكان والتخطيط العمراني ووزارة الآثار ووزارة الثقافة. ولا يمكن لهذه الوزارات الأساسية أن تبدأ في عمل ما دون استشارة الإدارات و الهيئات والأجهزة المعنية، مثل:

- الهيئة العامة للتخطيط العمراني، المسؤولة عن رسم السياسة العامة وإعداد مخططات وبرامج التخطيط والتنمية العمرانية على مستوى البلد كله بما في ذلك القاهرة، كما تتولى مراقبة عمليات البناء.
- المجلس الأعلى للآثار، المسؤول عن كل ما يتعلق بالتراث الحضاري في مصر.
- الجهاز القومي للتنسيق الحضاري، الذي تم تأسيسه سنة 2001 من أجل مراقبة المحيط العمراني والعمل على جماليته .
- الهيئة المصرية للأوقاف وهيئة الأوقاف القبطية وهما شريكان يستطيعان تعبئة أصحاب الأراضي والممتلكات.

### 6.4. الإدارة العامة للقاهرة التاريخية

في عام 1997 أنجز برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بمعية المجلس الأعلى للآثار، دراسة حول "إعادة تأهيل القاهرة التاريخية". وقد انتقلت هذه الدراسة تدريجيًا من مستوى المحافظة على المعالم التاريخية المعزولة إلى مستوى تهيئة النسيج العمراني للقاهرة التاريخية. وأصدق مثال لهذا التوجه الإيجابي هو تهيئة شارع المعز الذي يقع فيه ثلاثون معلمًا تاريخيًا مسجلًا ضمن قائمة المعالم التاريخية، تعود إلى حقب مختلفة.

وتبعًا لهذا النجاح أحدثت الحكومة المصرية "الإدارة العامة للقاهرة التاريخية" التي وُضعت تحت إشراف وزارة الآثار والتي تمّ تدعيم سلطاتها مؤخرًا.

### 6.5. الإدارة العامة للحفاظ على تراث القاهرة التاريخية

- أحدثت هذه الإدارة العامّة سنة 2008، وأنيطت بعهدتها مهمّة ثقيلة ذات أوجه متعدّدة منها:
- التخطيط للأنشطة والارتقاء بعملية تقييم وتخطيط موقع التراث العالمي للقاهرة التاريخية.
  - إخلاء المباني الأثرية من الإشغالات الحكومية، والحفاظ على النسيج العمراني ومنع الهدم

والبناء العشوائي والتأجير داخل الموقع، ومنع تدهور الأبنية التاريخية.

- معالجة شبكات المياه والصرف الصحي.
- توعية السكان بأهمية القاهرة التاريخية...

ويرجو كريم إبراهيم أن تعطى لهذه الإدارة العامة الوسائل الضرورية لتنفيذ المهام التي أنشئت من أجلها.

وقد تعهدت هذه الإدارة العامة سنة 2015 بمشروع تحسين الفضاءات العامة للقاهرة الخديوية، لكنّ هذا المشروع المحدّد وغير القابل للاستنساخ لم يكن مدرجا ضمن السياسة الهادفة إلى تحسين المناطق العمرانيّة المتبناة من طرف الحكومة.

إنّ الحكومة المؤسّسية للقاهرة التاريخية ترجع بالنظر أساسا إلى الحكومة حيث إن الحفاظ على التراث الثقافي يقتضي إيجاد الحلول المناسبة لعديد المشكلات السياسيّة والإداريّة المعقدة التي من شأنها أن تعرقل كلّ محاولات التخطيط الفضائي والتنمية الحضريّة المستدامة. وقد سعت الهيئات المهنيّة المكلفة بهذا الأمر إلى مساعدة السياسيّين على اتّخاذ القرار الصائب لكنّها لا يمكن لها أن تقوم مقامهم.

ويرى كريم إبراهيم أهمية تخطّي بعض العقبات على مستوى التصرّوات والأعمال التّنفيذيّة سببها:

- تعدد المتدخلين،
- تداخل الإجراءات الإداريّة والتقنيّة، على المستويين الأفقي والعمودي،
- عدم وضوح حدود تفويض السلطات على المستوى المحليّ.

## 6.6 آليات الإدارة المحليّة

**محافظة القاهرة** هي الوحدة الإداريّة المحليّة: وهي تؤدّي دورا بالغ الأهميّة للحفاظ على القاهرة التاريخيّة بما أنّها تتولّى إسناد رخص البناء والهدم كما أنّها تتولّى مهمّة توسيع الشوارع وإنشاء المنافذ، علاوة على إدارة البنى التحتيّة والفضاءات العامّة. وللوحدات الإدارية على مستوى المحافظة سلطة كبيرة نظرا لدرابنتها بالميدان وبالعمليات التخطيطيّة التي تعدّ من ممارساتها اليوميّة.

إنّ وحدات إدارة المناطق المحليّة - محافظات وأقاليم- والمعنيّة بالحفاظ على القاهرة التاريخية على النطاق المحليّ هي المسؤولّة عمليّا عن تخطيط الفضاءات والتنمية العمرانيّة المستدامة. فهي باتصال دائم مع السّكان والتجار والحرفيين في المدينة العتيقة بما أنّها تضطلع بمهمّة منح الرّخص للمعنيين...

ويؤكد كريم إبراهيم أنّ هذه المهّمات الهامة والمتعلقة بالإدارة والتصرف والتنفيذ تشكو من قلّة الإمكانات البشرية والمادية الضرورية.

## 7. الاستراتيجية الثقافية للحفاظ والإحياء العمراني

منذ أن تمّ تسجيل القاهرة التاريخية في قائمة التراث العالمي لليونسكو عام 1979 والعمل جارٍ في إجراءات تخطيط وتنفيذ المشاريع التي تقودها الخبرات الوطنية بدعم من التعاون الدولي والثنائي. وفي هذه المرحلة من التّقييم، تجدر الإشارة إلى أنّ تعبئة الخبرات الوطنية والعالمية مكّنت من التّعريف بالاستراتيجية الثقافية للحفاظ والإحياء الحضري ضمن آفاق التنمية الحضريّة المستدامة.

### 1.7. مشاريع الحفاظ المؤسسي

◆ 1980 دراسة اليونسكو: "الحفاظ على مدينة القاهرة القديمة"

وتمثّل التطوّر الأوّل في مقارنة الصون التي تمكّن من التحوّل من الحفاظ على المعلم المعزول إلى الحفاظ على المجموعة التاريخيّة كاملة.

◆ 1994-2001: مشروع إعادة تأهيل حارة الدّرب الأصفر.

يمثّل هذا المشروع تطورا من مرحلة الترميم ( بيت السحيمي) إلى مرحلة تأهيل الدرب الأصفر بالكامل وهو التطوّر الثاني نحو مقارنة حضريّة مندمجة.

◆ ويعتبر بيت السحيمي بالدرب الأصفر المتفرع من شارع المعز لدين الله نموذجا فريداً من نماذج عمارة البيوت السكنية الخاصة بل إنه البيت الوحيد المتكامل الذي يمثل عمارة القاهرة في العصر العثماني في مصر، بني سنة 1648م وأكمل سنة 1796م ، وسمي بيت السحيمي نسبة إلى الشيخ أمين السحيمي شيخ رواق الأتراك بالأزهر وهو آخر من سكن فيه. وقد صدر قرار بتحويل بيت السحيمي إلى مركز للإبداع الفني تابع لصندوق التنمية الثقافية بعد ترميمه وإعادة افتتاحه عام 2000.

• 1997: تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والمجلس الأعلى للآثار "إعادة تأهيل القاهرة التاريخية"، ويتضمن تحليل الواقع الاجتماعي (الفقر/الشغل) للإطار الفضائي (السكن المتدهور، البنية التحتيّة المتهاكّة) للبيئة العمرانيّة (العلاقات بين المدينة التاريخيّة والقاهرة الكبرى). كما يتضمن حصيلة تشخيصية واستراتيجيّة لتأهيل السكن من منطلق احترام الإرث الثقافي والسياسي لأعمال الإحياء العمراني على أساس مشاركة السكان.

ويمثّل التطوّر الثالث نظرا لدعوته إلى تصور جديد للتخطيط.

• 1998: صدر قرار رئيس مجلس الوزراء رقم 1352 بتاريخ 16 مايو 1998 بتشكيل مجموعة عمل وزارية مكلفة بخطة عمل "مشروع القاهرة التاريخية". وشملت الخطة ترميم 147 أثرا مسجلا و48 أثرا غير مسجل خلال المدة الفاصلة بين 1998 - 2006. ووقع الاتفاق مع اليونسكو على تحديث الدراسات باستمرار في ضوء التغيرات البيئية والسكانية والعمرانية والثقافية السريعة التي يتعرض لها ممتلك التراث العالمي في القاهرة.

• وقد أنشئ مركز لدراسات تنمية القاهرة التاريخية تحت إشراف وزارة الثقافة، وتمّ تكليفه بدراسة وتنسيق أنشطة التنمية الجاري تنفيذها في الموقع وإعداد نظام معلومات جغرافي GIS للمباني التاريخية ووضع السياسات الخاصة بتنفيذ القرارات وسن آليات التنسيق بين المتدخلين.

وقد وضع المركز خطة لحماية الآثار تمثلت أهدافها الأساسية فيما يلي:

- إنقاذ المعالم المهددة،
- تطبيق مفهوم الحفاظ الشامل، بدلا من ترميم مبانٍ محدّدة،
- تقسيم مراحل الإنجاز حسب أوضاع كل منطقة واحتياجاتها.

◆ 2010-2014: اليونسكو (مركز التراث العالمي): "مشروع الإحياء العمراني للقاهرة التاريخية"

في يوليو 2010 أطلق مركز التراث العالمي باليونسكو "مشروع الإحياء العمراني للقاهرة التاريخية" بعد موافقة الحكومة المصرية على مقترح المساعدة التقنية. ويهدف المشروع إلى إعداد وسائل الإدارة اللازمة للحفاظ على القيم التراثية والإحياء الاجتماعي والاقتصادي وتحسين البيئة، كما يهدف إلى تبني سياسة صون عمراني وفق المحددات التالية:

أ. وضع مفاهيم واضحة للصون، يتم تنفيذها من خلال أدوات جديدة للتخطيط العمراني،

ب. بناء القدرات المؤسسية والمهارات التقنية الملائمة،

ج. نشر الوعي بقضايا التراث على مستوى السلطات المعنية والجمهور.

وحددت النتيجة المنشودة للمشروع بأنها: حماية موقع التراث العالمي للقاهرة التاريخية "من خلال نظام إدارة فعال وتدابير حماية ملائمة، بالتعاون مع السلطات المحلية المعنية. ولهذا السبب يجب الربط بين "الحفاظ" و"إعادة التأهيل"، مع تفضيل التدخلات التي تهدف إلى تحسين جودة الحياة.."

## 7.2. مشاريع إعادة الإعمار والإحياء:

### ◆ 2010 - 2013 الإدارة العامة للقاهرة التاريخية و"مشروع إعادة تأهيل شارع المعزّ":

على إثر الزلزال الذي وقع عام 1992، وألحق أضرارا جسيمة بمئات المعالم الأثرية في شارع المعزّ لدين الله الفاطمي، قررت السلطات إطلاق مشروع إعادة تأهيل هذا الشارع التاريخي الذي يعود إلى العصر الفاطمي. وتم تنفيذ المشروع على مراحل، أولاها ترميم ودهانات واجهات المحلات والأبواب والرفارف الخشبية على الواجهات، واستبدال التالف من الأرضيات البازلتية والجرانيتية...، والثانية إصلاح البوابات الإلكترونية لمراقبة حركة المرور وإغلاق الشارع في وجه السيارات، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فخاصة بإعادة تشغيل الإضاءة المتخصصة للشارع. ويُعدّ تنظيم حركة المرور في شارع المعزّ لدين الله بتحويله إلى شارع مراقب مخصّص للمارة نجاحا تخطيطيا وإداريا دلّت عليه الزيادة في التوافد السياحي وارتفاع قيمة الأراضي والعقارات، وتحويل إثره هذا الشارع إلى متحف مفتوح.

### ◆ 1997 - 2011 مؤسسة الأغا خان للثقافة (AKTC): مشروع إحياء الدّرب الأحمر:

في عام 2000، وفي إطار تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام 1997، وافقت الحكومة على مشروع إحياء الدّرب الأحمر الذي قدّمته "مؤسسة الأغا خان للثقافة" (AKTC)، بدعم من محافظة القاهرة والمجلس الأعلى للآثار وبمشاركة مجتمعية. وقد ركز المشروع على المجالات التالية:

- التكامل الاجتماعي والاقتصادي والفضائي،
  - المشاركة المحليّة وتحسين دخل المتساكنين،
  - إشراك الشّركاء المحليّين والمستثمرين في عملية الإعمار.
- وقد سمح المشروع خلال عشر سنوات بالمعالجة المتزامنة للمتطلبات الحياتية والحضريّة، من خلال الإقراض المتناهي الصغر لتنمية الأعمال واستحداث فرص العمل بما في ذلك تدريب الحرفيين المحليّين وتوظيفهم لإنجاز المشروع، وكذلك إعادة تأهيل المساكن والاستخدام التكميلي للمباني التاريخية، وإنشاء مركز صحي للعائلات...
- ويُعدّ هذا المشروع الذي عالج في الوقت نفسه الوضع الاجتماعي والبيئة الحضريّة نجاحا كبيرا. فلماذا توقف؟

## 7.3. مشاريع المجتمع المدني:

لقد تكفّل المجتمع المدني بنصيبه من المسؤولية في مسيرة الحفاظ على القاهرة التاريخية:

♦ أطلقت جامعة الأزهر في عام 1915 مبادرة تطوير شارع باب الوزير. وقد قاد زمام المبادرة في هذه العملية الأستاذ صلاح زكي الذي أعدّ وثائق المشروع بالتعاون مع السكّان المحليين. وقد أدّى ذلك إلى التعبئة التدريجية لتدعيم المساكن المتدهورة بمساهمة مالية من الجمعية الأمريكية للبحوث في مصر (جمعية أهلية). ويعدّ إشراك خبرات الجامعة والتزامها وقدرة الأستاذ صالح زكي على تحفيز الناس، أمرا يستحقّ الثناء.

♦ تعرضت المعالم التاريخية في أعقاب ثورة 25 يناير 2011 لعمليات تخريب وتدمير، بالإضافة إلى عمليات التشييد غير القانونية التي ألحقت أضرارا جسيمة بالقاهرة التاريخية. وقد أدّى ذلك إلى ردود فعل قويّة من جمعيات المجتمع المدني التي طالبت بمشاركة المواطنين في عملية صون القاهرة التاريخية إلى جانب السلطات الحكومية والمنظمات العالمية. ونسوق هنا مثالين بارزين من أمثلة تدخّل هذه الجمعيات:

- طالبت حركة "أنا من الأزهر" بترميم حيّ الأزهر. وتمّ فتح قصر السكاكيني (1897) للجمهور. ونتيجة لذلك، قامت وزارة الآثار بتوفير الاعتمادات اللازمة للترميم.
- أطلقت مبادرة "الآثار لنا" نداء إلى السلطات من أجل إشراك سكّان المناطق الحضرية فحواه: "لا يصبح المجتمع شريكا نشطا في الحفاظ على التراث الثقافي إلّا عندما يكون مفيدا له".
- وفي عام 2012، نظّمت مبادرة "الآثار لنا" ورشة عمل جمعت سكّان المنطقة التاريخية ووزارة الثقافة والإدارة المحليّة.

## 8. الدروس المستخلصة

وفي ختام دراسة الحالة الخاصّة بالقاهرة التاريخية، يتساءل المهندس كريم إبراهيم عن السياق الأوسع للدعم السياسي والجهاز المؤسسي والقانوني والقضائي والتنظيمي للحفاظ على العمارة والإحياء الحضري في مصر.

و يرى أن الموجود حاليا يمكن اعتباره مبادرات بمشاريع من قبل الجهات الفاعلة الوطنية و/أو الدوليّة، وأنه لا بدّ من وضع سياسة جديدة، مع تطوير الأجهزة لكي تستجيب أكثر للواقع المعاصر، إذ أصبح من الضروري:

- إعادة النظر في الإطار القانوني حتى يعكس الانتقال من مقاربة الحماية المنعزلة للمعالم إلى مقاربة الحفاظ على المعلم والمناطق المحيطة به في إطار النسيج الحضري الحاضر.
- نقل مسؤولية الحفاظ والإحياء المعماري من السلطة المركزيّة إلى المجالس المحليّة.
- تحديد أدقّ للمسؤوليات في عملية التخطيط والإدارة الحضريّة.

- وضع إجراءات للاستثمار تشجّع على التنمية الاقتصادية للتراث العمراني التاريخي لصالح المجتمعات المحليّة.

## 9. الآفاق المستقبلية

في ختام استعراضه لعمليات الحفاظ على القاهرة التاريخية، أشار كريم إبراهيم إلى أنّ مشاريع التخطيط التي يتمّ تنفيذها خارج الإجراءات الإداريّة، أو على هامشها، على يد جهات فاعلة لا تنتمي دائماً إلى التسلسل الهرمي الإداري، تفتح آفاقاً مستقبلية. ويستشهد في هذا السياق بمشروعين مرجعيين نموذجين:

- تأهيل شارع المعزّ،
  - مشروع إحياء الدرب الأحمر.
- كما يذكّر أيضاً بالجهود التي يبذلها المجتمع المدني، وبمشاركته العملية في تأهيل حيّ الأزهر، وقدرته على حشد السكّان، كما تبرهن عليه مبادرة "الأثار لنا".

لماذا هذا التوجّه التفضيليّ؟

يؤكد المهندس كريم إبراهيم مقارنته المنهجية التي مفادها أنّ الحفاظ المتكامل والإحياء العمراني المبنيين، من حيث التّصوّر، على أنهما عملية للتنظيم الفضائي والتّخطيط الحضريّ، لا يمكنهما أن يؤديا إلى فتح الآفاق المستقبلية إلا إذا استند المنهج إلى:

- الحقائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي لا بدّ من رصدها وتقويمها مسبقاً،
- احتياجات النّاس في مجالات التّعليم والصّحة والثّقافة،
- توفير فرص العمل والقروض الصّغيرة لإنشاء وحدات إنتاجية،
- توفير المساعدات لإعادة تأهيل المساكن،
- إعادة الاستخدام التّكفيفي للمباني التاريخيّة.

ويلجّ كريم إبراهيم على ضرورة المشاركة الفعّالة للسكّان في الصيانة والإحياء، بشرط أن يتمّ التخطيط على المدى الطويل للسماح للمجتمع بممارسة حقّه في مراقبة التقدّم المحرز وتقويمه، أو عند الاقتضاء، تصحيح الأخطاء. وهذا ما يمكن تلخيصه في ضرورة استثمار مكاسب التجربة.

إنّ هذه الرؤية القائمة على المحافظة/ الإحياء العمرانيّ تتجاوز المألوف، ذلك أنّ المشروع العمرانيّ في البيئة التاريخيّة لا يقتصر على التحف المعماريّة بل هو عملية تشاركيّة هدفها دمج الجهود المؤسّسية والتّعاون الدّوليّ والثّنائيّ وجهود المجتمعات المدنيّة. "وإنّ من أهمّ الدّروس المستفادة في

حالة القاهرة التاريخية، إن لم يكن أهم درس على الإطلاق، هو أنّ نجاح مشروع الحفاظ والإحياء العمرانيّ يعتمد بالكامل تقريباً على فعالية هيكل الحوكمة الحضريّة في السياق المحليّ."

وقد توصلت أغلب دراسات الحالة الواردة في هذا التقرير إلى نفس الاستنتاج.

وفي الختام، فإن الحوكمة الرشيدة لا يمكن توفرها إلا إذا ضمن الدعم السياسيّ الحد الأدنى من الديمقراطية. وعليه هل يمكننا، بناء على مفهوم "الحق في المدينة"، الذي تناولته الأوساط الأكاديمية في ستينيات القرن الماضي، أن نتحدث اليوم عن مفهوم "الحق في التراث"؟

ويطرح كريم إبراهيم، بفطنة براغماتيّة بالغة الأهمية، السؤال التالي: "ما هي الخطة البديلة؟".

ويمثّل جوابه عن هذا السؤال المثير للقلق الاستنتاج النهائيّ لهذا التقرير:

"لقد كافح المهنيّون والناشطون والمواطنون المعنيّون وحتى الكيانات الحكوميّة، في مناسبات عديدة، من أجل إنقاذ المباني التاريخيّة من الهدم أو الانهيار. وقد خاضوا معارك قانونيّة، ونظّموا الاعتصامات، وأطلقوا حملات المناصرة، من أجل حماية هذه المباني المميّزة. ومع ذلك، فقليل جدّاً هم الذين فكّروا في (أو تمكّنوا من) توثيق المباني التي يدافعون عنها قبل أن يتمّ هدمها. لقد كانوا يفتقرون ببساطة إلى "الخطة البديلة" في حال فشلت جهودهم في حفظ هذه المباني، وهو ما حدث في كثير من الحالات.

ونظراً لتسارع وتيرة هدم المباني التاريخيّة والمناطق الحضريّة، فإنّ توثيق المباني التراثيّة والمناطق الحضريّة لا يعتبر ترفاً بل ضرورة ملحة واستراتيجيّة جوهريّة، على الأقلّ لنقل شكل هذه الأصول التراثيّة التي لا تقدّر بثمن إلى الأجيال القادمة".

# الهلال الفصيب

## طرابلس، لبنان: المدينة التاريخية



(جامع المنصوري الكبير)

### 1. الوضع الجغرافي لطرابلس

مدينة طرابلس، المدينة التي أسسها الفينيقيون، هي أيضا ميناء العبور الذي يربط المناطق النائية من بلاد الشام بالبحر الأبيض المتوسط عبر مدينة حمص عقدة المواصلات في بلاد الشام. كما تعدّ طرابلس بفضل موقعها الجغرافي المزدوج - الساحلي والجبليّ - مستوطنة بشرية مفصليّة في المجمع الإقليمي اللبناني - السوري.

### 2. التطور العمراني لطرابلس

◆ 1289 - 1516: الفترة المملوكيّة

استعاد المماليك مدينة طرابلس العربيّة من الصليبيين، وقد تمّ تدمير المدينة وأعيد بناؤها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

#### ◆ 1516 - 1918: الفترة العثمانية

ظلت مدينة طرابلس العربية، التي توسّعت بفضل مينائها، منغلقة داخل أسوارها على الضّفة الشرقيّة لفترات طويلة من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

وخلال المدّة الواقعة بين 1750 و1850، أصبحت طرابلس، ذات البنية الحضريّة ونوعيّة السكن المطبوع بالثقافة العربيّة، مدينة صغيرة، إذ ارتفع عدد سكّانها من 5000 نسمة إلى 15.000 نسمة. بعد ذلك، توسّعت طرابلس باتجاه الغرب حاملة طراز العثمانيين الذين أنشأوا في أواخر القرن التاسع عشر مركزا إداريا واقتصاديا جديدا لتخرج مدينة طرابلس التاريخيّة من أسوارها ويستمرّ توسّعها بدون توقّف حتّى القرن العشرين.

#### ◆ 1920 - 1943: فترة الانتداب الفرنسي

في أوائل القرن العشرين، وكما هو الحال في جميع مدن البلدان العربيّة تحت الوصاية الاستعماريّة، سواء كانت استعمارا أو حماية أو انتدابا، ولدت أساليب الإنتاج الجديدة تحوّلًا في الهياكل الحضريّة السّابقة للتّورة الصّناعيّة وللرأسماليّة.

وقد صمّمت سلطات الانتداب الفرنسي شبكة طرقات ساهمت في نشأة المدينة الجديدة جنبا إلى جنب مع البلدة القديمة. وأصبحت ساحة النّجمة في طرابلس رمزا للحدثيّة السياسيّة.

#### ◆ 1943 - 1975: فترة سيادة الدّولة اللبنانيّة

بداية من سنة 1950، أصبحت الجمهوريّة اللبنانيّة محطة رئيسيّة للتّجارة العالميّة في منطقة الشّرق الأوسط. حيث حوّل استيراد السّلع المصنّعة والموادّ الغذائيّة وإعادة تصديرها إلى المنطقة العربيّة لبنان إلى "سويسرا الشّرق الأوسط" (جورج موتان 2012 G. Mutin)، خاصّة بعد إعادة توطين المهاجرين وتدقّق رؤوس الأموال العربيّة إلى لبنان متّخذة إيّاه ملجأ.

هذا الحدث التّجاريّ والماليّ الكبير دفع بيروت إلى مرتبة الحاضرة الدّوليّة، "كهمة وصل حضريّة بين الغرب وشبه الجزيرة العربيّة." كما مكن مختلف القرى والبلدات اللبنانية من التطوّر. فماذا نالت طرابلس، المدينة التّاريخيّة العربيّة، والميناء الحدوديّ بين لبنان وسوريا، في هذا السّياق؟

لقد كانت طرابلس ضحيّة لكارثتين:

◆ في عام 1955، فاض نهر "أبو علي" الذي يعبر المدينة، وغمر الأحياء المحيطة به: فدُمّرت البيوت وحُرّبت الصّواحي، كما تفكّكت المدينة التّاريخيّة جرّاء هذه الكارثة الطبيعيّة وانفرط عقد المجتمع الحضريّ.

- ◆ وفي عام 1960، تسبب بناء قناة إسمنتية في تغيير جذري لضفاف النهر، كما مثل إنشاء مسالك في النسيج الحضري التقليدي وتوسيع الممرات لإدماج حركة مرور السيارات خطأ تخطيطياً بل كارثة تقنية.

وقد نتج عن هاتين الكارثتين، الطبيعية والتقنية، تدمير جزء أساسي من التراث الثقافي لطرابلس وتشويه المشاهد الحضريّة التاريخية.

- ◆ وفي عام 1970، أصبحت الضفة اليسرى من المدينة التاريخية منطقة معزولة ومهمشة، وملجأ للأسر الفقيرة وللخارجين عن القانون.

- 1975 - 1991: الحرب الأهلية والفوضى في طرابلس
- 1991 - 2011: الخروج من الأزمة وتحديات إعادة إعمار طرابلس

### 3. الثقافة الحضريّة والعمارة المنزليّة في طرابلس

تستجيب طرابلس المملوكية إلى النموذج الأصليّ للمدن العربيّة: الجامع الكبير "المنصوري" والأسواق والحمامات ومساجد الأحياء هي العناصر المكوّنة للهيكل الحضري والتي تضيف عليه الطابع التاريخي. وتستجيب العمارة السكنية لمبدأ الخصوصية وتطابق نموذج المنزل التقليديّ الانطوائيّ الذي يتجلى في عدد من العناصر منها: الولوج عبر مدخل متعرّج، وغرفة الانتظار- أو المنزل- والفناء الداخلي والإيوان (وهو غرفة ربّ البيت) وبيوت النساء. أمّا خارج الأسوار، فتعدّ التكيّة الملوّية التي بناها الدرّوايش في العصر العثمانيّ بمثابة "وثيقة تاريخية".

### 4. النّظام القانونيّ البنائيّ والإطار التنظيمي

#### 1.4. الإطار القانوني

مازال النص المعتمد لحماية الآثار هو القرار رقم 166 بتاريخ 7 نوفمبر 1933 الصادر في عهد الانتداب الفرنسي. وتعرف المادة الأولى من هذا القرار الأثر بما يأتي: "تعتبر آثاراً قديمة جميع الأشياء التي صنعتها يد الإنسان قبل سنة 1700 (1107 هـ) مهما كانت المدنية التي تنتمي إليها هذه المصنوعات. تُعتبر شبيهة بالآثار القديمة وخاضعة لقواعد هذا القرار الأشياء غير المنقولة التي صنعت بعد سنة 1700 وفي حفظها صالح عمومي من جهة التاريخ أو الفن، وقيدت في قائمة الجرد العام للأبنية التاريخية المنصوص عليها في المادة 8".

## 2.4. الإطار التّنظيمي للتّخطيط في مدينة طرابلس

إذا كان قانون الآثار يقدّم فرصاً قليلة لحماية المناطق التّاريخية والتّقليدية، فإنّ الإطار التّنظيمي للتّخطيط الخاصّ بمدينة طرابلس يساعد على الدّفاع عن التّراث العمراني باسم المصلحة العامّة والمنفعة الاجتماعيّة.

وعلى هذا الأساس يتضمّن التصميم التوجيهي لسنة 1971 في ملحقه خطة تفصيليّة مخصّصة للأحياء القديمة. فهو يحدّد المعالم التّاريخية الواجب حمايتها، كما يحدّد محيطها بدائرة شعاعها 20 متراً، وعمليات إعادة التّأهيل والتّرميم وكذلك أشغال المسالك في النّسيج الحضري... ويشير المهندس مصباح رجب إلى أنّ التصميم التوجيهي لعام 1971 يقيّد جزئياً حماية التّراث للأسباب التّالية:

- حصر المدينة التاريخية في الضّفة اليسرى فقط ، مما يعني إقصاء حيّ التّبانة والسّوقة بدون مبرّر،
- عدد المعالم التاريخية التي تمّ جردها (والتي تقتصر على 30 معلماً) لا تمثل إلا جزءاً من المعالم التي تستحقّ الصون، كما بينت ذلك بعثتا اليونسكو عام 1953 و1990،
- يعتبر إنشاء مسالك لحركة المرور داخل النّسيج الحضريّ لطرابلس التاريخية خطأ تخطيطياً ارتكّب تعسّفاً باسم إيديولوجيّة التّقدّم التي رفعتها الحركة التحديثية.

## 5. الحوكمة المؤسّسية

إنّ مهامّ التّصميم والتّنفيذ والمراقبة الخاصّة بحماية وحفظ التّراث للمدينة التاريخية تتبع ثلاث سلطات فنيّة وإداريّة، هي:

- المديرية العامّة للتّنظيم المدنيّ وهي تراقب وتوافق وتصادق على وثائق ولوائح تخطيط المدن التاريخية، وهناك جهاز مكمل لعملها هو المجلس الأعلى للتّنظيم المدنيّ.
  - البلديّة، وتتحمّل مهامّ تنفيذ التّخطيط والرّقابة على العمليّات من خلال "قسم الهندسة" ومن خلال وحدة فنيّة مخصّصة تمّ إنشاؤها مؤخّراً للمدينة التاريخية،
  - المديرية العامّة للآثار التابعة لوزارة الثقافة، ويجب أن توافق مسبقاً على أيّة عمليّة تطوير وعلى جميع تراخيص البناء في المدينة التاريخية.
- ويرجو مصباح رجب أن تعطى هذه الأجهزة "وسائل فعّالة للرّقابة والرّدع"، حيث تضاعفت المخالفات التي تضر بحماية المدينة التاريخية.

## 6. الدّعم السّياسيّ لمشاريع صون المدن التّاريخيّة

تمّت عمليّات حماية المدن التّاريخيّة اللّبنانيّة في مرحلة ما بعد الحرب الأهلية بدعم شخصيّات على وعي بقضايا ورهانات الصون وإعادة الإعمار.

### 1.6. دور بلدية طرابلس

لقد أصيبت الجماعات المحليّة في لبنان بالشلل بسبب استقالة رؤساء البلديّات المنتخين قبل الحرب وغياب الانتخابات في فترة ما بعد الحرب. ودفع هذا الوضع وزارة الداخلية إلى اللّجوء إلى نظام التّعيينات.

وهكذا تم تعيين العميد الدكتور سامي منقارة رئيسا لبلدية طرابلس، فحاول خلال فترة رئاسته أن يصلح الخدمات البلديّة لكي تؤدي دورها كاملا في الحماية والمحافظة على المدينة التّاريخيّة. وتبعاً لذلك، وجّه دعوات إلى المجتمع المدنيّ والجامعة اللّبنانيّة، وأولى اهتماما بالتّعاون الدّوليّ والثّنائيّ.

#### ♦ التعاون الأورو- متوسطي:

أطلق قسم الهندسة المعماريّة في معهد الفنون الجميلة بالجامعة اللّبنانية وبرنامج التّعاون الأورو- متوسطيّ وشبكة إعادة التّأهيل المتوسّطيّة مبادرتين:

- خريطة تحديد المدينة التّاريخيّة لطرابلس على "أسس تاريخيّة وعلميّة".
- إحصاء 190 معلما تاريخيّاً تتوزع على ضفّتيّ المدينة التّاريخيّة لتسجيلها في قائمة الجرد، بموجب قانون الآثار.

#### ♦ التّعاون الثّنائيّ مع منطقة ميدي بيرينيه Midi-Pyrénées (فرنسا) 1995

مكّنت اتّفاقيّة التّعاون الثّنائيّ هذه (1995-1996) من تنفيذ المشروع العمليّ الأوّل المتمثّل في إعادة تاهيل سوق المجوهرات بتصميم مبتكر، وتم ذلك في إطار مسابقة في الهندسة المعمارية.

#### ♦ التّعاون مع مدرسة شايو P'École de Chaillot (فرنسا) 1997

تم بفضل اتّفاقيّة التّعاون الجامعيّة هذه إحداث مركز لترميم وصون المعالم والمواقع التّاريخيّة وقرّ للمهندسين تدريبا مُنظّرا بشهادة في مادّة ترميم المعالم التّاريخيّة.

## 6.2. دور الحكومة اللّبنانيّة

#### ♦ مشروع الإرث الثقافي والتنمية الحضريّة 2003

- الإطلاق: الحكومة اللّبنانيّة في خمس مدن هي: صور وصيدا وجبيل وبعبك وطرابلس.

• التّمويل: الحكومة اللّبنانيّة، والبنك الدوليّ، والوكالة الفرنسيّة للتّنمية، ومنظمة التّعاون الإيطاليّة.

• إدارة المشروع: مجلس التّنمية والإعمار/وزارة الداخلية، مسنودا بوحدة لإدارة المشاريع.

• البرنامج:

- إعادة تأهيل المراكز التّاريخيّة،

- البحث والتّرميم الأثريّ،

- الدّعم المؤسّسي للمديريّة العامّة للآثار والمديريّة العامّة للتّخطيط الحضري،

- المساعدة التّقنيّة لبلديات المدن الخمس المختارة.

وبفضل هذا المشروع أُعيد تأهيل الأحياء المكتظة بالسكان في هذه المدن التّاريخيّة، وتمت مساعدة المجتمعات المحليّة على تطوير الاقتصاد المحلي وخلق الوظائف، خاصة للشباب والنساء. كما قدم المشروع مساهمات جوهرية على صعيد البنى التّحتية والخدمات الأساسيّة.

#### ◆ إعادة تأهيل خان العسكر

أنجز مشروع إعادة تأهيل خان العسكر الأثري في قلب مدينة طرابلس القديمة، ضمن مشروع الإرث الثقافي الذي ينفذه مجلس الإنماء والإعمار بالتعاون مع بلدية طرابلس والممول من البنك الدولي، ومعه استعادت الحجارة القديمة ألقتها. ويعود خان العسكر إلى العصر المملوكي وقد تمّ استخدامه لإيواء الأسر المتضرّرة من فيضانات عام 1955. وفي سنة 2001 أصبح مقرا لمصالح الخدمات الفنيّة والإداريّة والاجتماعيّة بالبلدية.

#### ◆ إعادة تهيئة ضفّتي نهر أبو علي

تطرح إعادة تهيئة ضفّتي نهر أبو علي الذي يهيكل مدينة طرابلس إشكالات تقنيّة واجتماعيّة خاصّة بالتّخطيط الحضري أهمها:

- توجيه حركة مرور السيّارات،

- إزالة تلوث مياه النهر،

- ترميم معلمين تاريخيين هما: "التّكيّة المولويّة"، التي هي رمز تراثي، و"جامع البرطاسي" الذي يمثل جوهره معماريّة.

- مراقبة حيّ التّبانة، الذي يمثل بؤرة للفقر ومعقلا للاضطرابات.

- إعادة بناء الجسر الرّابط بين الضفّتين لإعادة تشكيل المحور التّاريخي لطرابلس.

إنّ الحفاظ والإحياء العمرانيّ لمدينة طرابلس، المجرأة فضاءيا واجتماعيا، يفترض وجود منهجية تخطيط ممتازة وقدرة حقيقية على التنفيذ. ولا يمكن تحقق ذلك إلا إذا كان الدعم السياسي للمجتمع المحلي والسلطات الحكومية فعّالا حقاً.

### 6.3. دور اتحاد بلديات الفيحاء

التزم اتحاد بلديات الفيحاء الذي يتألف من مدن طرابلس والميناء والبدوي والقلمون بوضع الخطة الاستراتيجية لمدينة الفيحاء، وذلك بدعم من رئيس الوزراء ووكالات الأمم المتحدة والبنك الدولي والجهات المانحة الأخرى.

استفاد هذا المشروع، الهادف إلى تطوير التنمية الحضرية المستدامة والربط الشبكي في أفق 2020، من الدراسات السابقة لوضع الرؤية المستقبلية لتطوير طرابلس وتنشيط وسط المدينة وإعادة تأهيل المناطق التاريخية.

### 7. إشكالية التمويل

#### 7.1. التمويل المحلي ومشروع الصون المتكامل

تمّ دعم مشاريع إعادة الحفاظ على المدينة التاريخية وإحيائها من طرف الحكومة والعديد من الجهات الفاعلة في المشهد السياسي المحلي، وكذلك من المنظمات غير الحكومية المدفوعة بالتعاون الدولي أو الثنائي. ويذكر المهندس مصباح رجب مشاريع عديدة أنجزتها بعض الجمعيات والمؤسسات (مثل: فرح العطاء، الحريري) أو شخصيات حكومية سابقة (مثل رئيس الوزراء نجيب ميقاتي).

#### 7.2. نطاق مساعدات التنمية والتضامن بين الشمال والجنوب وحدودها

مكنت مساعدات التنمية التي تمّعت بها طرابلس من بدء معركة صون المدينة التاريخية. وكان للتعاون الثنائي والدولي آثار إيجابية فورية، تمثّلت في:

- تطوير الإطار التنظيمي للتخطيط .
- ممارسة العمل التشاركي بين مختلف الفاعلين المحليين و/أو الوطنيين والمهنيين، العامّ منهم والخاصّ.

ومع ذلك فإن محدودية الموارد المالية أدت إلى أن الميزانية هي التي تحدد المشروع وليس العكس، وهو ما يتسبب في وضع حدود للبرمجة والتخطيط، ويجعل من غير الممكن وضع مشروع عمراي تطوري.

## 8. الدروس المستخلصة والآفاق المستقبلية

لقد تمّ إطلاق عملية الحفاظ على مدينة طرابلس التاريخية بنجاح: وهي بصدد الإنجاز. ولاشك أن مسارها سيتوطد باستتباب الأمن، و إشراك المواطنين في حوكمة عمرايية مسؤولة وفعّالة، واتخاذ عدد من الإجراءات، يذكر منها مصباح رجب:

- إنشاء كيان تصوري وحيد يكون مسؤولا عن التخطيط، ودمج الوحدة الفنيّة المسؤولة عن متابعة "مشروع الإرث الثقافي والتنمية الحضرية" في دوائر الخدمات الفنيّة التابعة للبلديّة.
- وضع نظام معلومات جغرافيّ لتوجيه الإدارة الحضرية والصيانة المتكاملة.
- تأمين تمويل المساعدات لعائلات الأحياء الفقيرة في المدينة التاريخيّة، وإيواء العائلات المحرومة في الوحدات السكّنية الشاغرة.
- إنشاء مجموعة ضغط من المجتمع المدنيّ للحفاظ على التّراث العمراي لطرابلس.
- تطوير البحوث الجامعيّة في مجال التّراث العمراي التاريخي، وإحداث شراكة بين الجامعة اللّبنانيّة والبلديّة للتدريب المستمرّ في مهن التّراث وتطوير خبرات المهنيّين في العمارة والعمران.

## بغداد

### المدينة الحديثة: الصيانة و/أو إعادة الإعمار



(جامع مرجان)

تأسست بغداد أو "مدينة السلام" أو "مدينة ألف ليلة وليلة" في سنة 766م ونهضت بدور عاصمة الإمبراطورية الإسلامية في العهد العباسي (750م - 1248م)، وما فتئت تعرف العديد من الفتن والحروب والغزوات المتتالية التي دمّرت وخرّبت مشهدها المعماري والعُمُراني طوال تاريخها الزاخر بالأحداث، إلى درجة اعتبارها "مدينة بلا ماضٍ" (بيار مارتلوت 1961 Pierre Marthelot) أو طِرسًا- كما تصفها سيسيليا بياري<sup>56</sup>- لتعاقب عمليات البناء والهدم وإعادة البناء.

وتقترح دراسة الحالة التي أجرتها سيسيليا بياري حول بغداد القيام بتقويم شروط إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بغداد الحديثة التي تعود إلى القرنين 19 و20، لأن التراث السالف يندرج ضمن الآثار، ولا يدخل في نطاق المشروع الخاص بالتنمية الحضرية المستدامة المعروض على مؤتمر الموئل الثالث. وتُشدّد سيسيليا بياري على أن مشروع المحافظة على المشهد الحضري التاريخي لبغداد ينبغي

أن يستهدف القيام بعمليات ملموسة لتحسين الوضعية الاجتماعية بشكل عملي، ومعالجة مشكلة "تكويخ" وسط المدينة بسبب نزوح الطبقات الوسطى عنها وتعويضها بالنازحين من المناطق الداخلية، كما ينبغي أن يسعى إلى زيادة الوعي بالتراث الذي قل بسبب التراجع في مستوى التعليم، وإلى تطوير التدريب المهني والتكوين الجامعي في مجال التراث.

## 1. حالة المستوى المعيشي في بغداد

عدد السكان:

في سنة 2003 كان عدد السكان 6 307.000 نسمة أي بمعدل 5.9 أشخاص في كل مسكن.

السكن:

73%	73%	المساكن التي يقطنها مالكوها
27%	18%	المساكن المؤجرة
	7%	المساكن التي يقطنها أشخاص دون حق
	2%	المساكن المُعارة

### 1.1. "تكويخ" وسط المدينة

لقد تسبب انتشار السكن العشوائي بسبب النزوح في تفشي الفقر وانتشار ظاهرة الأكوخ وسط المدينة.

### 1.2. المضاربة العقارية والجغرافيا الجديدة للعاصمة

ما فتئت أسعار الأراضي في ارتفاع:

- الأحياء البعيدة عن المركز (مدينة الصدر): من 1000 إلى 4000 دولار أمريكي / م<sup>2</sup>
- الأحياء في الضواحي (زيونة): من 4000 إلى 7000 دولار أمريكي / م<sup>2</sup>
- الأحياء المركزية (أبو نواس): من 7000 إلى 10 000 دولار أمريكي / م<sup>2</sup>
- أحياء قلب المدينة (شارع الكرادة): من 10 000 إلى 20 000 دولار أمريكي / م<sup>2</sup>

وبغض النظر عن أي اعتبار متعلق بالتخطيط الفضائي والتنمية العمرانية، فإن خريطة جغرافية جديدة للعاصمة العراقية بصدد التشكل.

### 1.3. الرؤى العمرانية المفخمة للمشاريع الضخمة

تتبلور الجغرافية الجديدة للعاصمة، والتي تنشأ في سياق المضاربة العقارية الخارجة عن السيطرة، في مشاريع ضخمة ذات كلفة عالية، منها: مبنى البرلمان العراقي الجديد، و المقر الجديد لمجلس الوزراء، وقاعة الأوبرا الجديدة، والمبنى الجديد للبنك المركزي العراقي. وتتساءل س.بياري عن تأثير وجود مبنى البنك المركزي الجديد في حي سكني، وهل سيتسبب في المساس بالتوازن البيئي والاستدامة والتناسق البصري لحي كامل مع العلم أن اليونسكو توصي باحترام التناسق بالنسبة إلى المدن التاريخية (DUH 2011).

### 1.4. التوظيف السياحي للفضاء العمومي

يواجه شارع أبو نواس، الذي يمتد على طول النهر ويُعتبر فضاء عموميا مميزا في العاصمة، خطر الخصخصة، ذلك أن مشروعا ضخما لبناء الفنادق والمطاعم سيقوم مكان هذه الفسحة ذات الجودة البيئية المتميزة، ويحوّلها إلى منطقة سياحية متاحة لوسائل النقل بالإضافة إلى تشييد مرآب متعدد الطوابق. ويخشى أن يؤدي هذا المشروع إلى نتائج عكسية، لأن فسحة أبي نواس تحيط بها عدّة منازل من التراث العمراني.

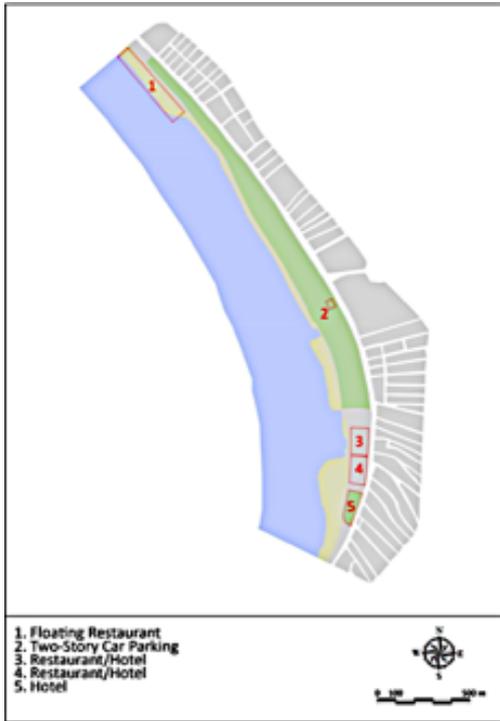
### 2. التطور العمراني لبغداد ونشأة مدينة

#### الحدثة

تُعتبر عملية تدمير الأسوار- التي ظلت قائمة

طوال 7 قرون - في سنة 1869، بأمر من الوالي العثماني مدحت باشا، أول عمل لتواصل المدينة الجديدة مع المدينة العتيقة. وتمّ إنشاء شبكة من الممرات لتسهيل عبور العربات التي تجرها الخيول (ثم السيارات فيما بعد). كما تمّ إحداث شارعين رئيسيين مستقيمين وهما شارع الماء المحاذي للنهر وشارع الرشيد الرابط بين البوابتين الشمالية والجنوبية لبغداد، وهو ما خلق مدينة جديدة احتوت مرافق كبيرة (منها مركز بريد ودار طباعة ومؤسسة تعليم) بالإضافة إلى الصناعات والسكك الحديدية.

وقد عوّض الأجرّ بمواد بناء جديدة علاوة على استخدام التقنيات المبتكرة (الساكف المستقيم) ممّا مكّن من توسيع المباني وإنجاز جسور...



المشاريع البلدية للبناء في شارع أبي نواس  
المصدر: RAAD 2015

## 1870 - 1920: بغداد، بلدة ريفية عثمانية في مرحلة التحديث

كانت بغداد، في نهاية القرن التاسع عشر، تتميز بشكل حضري تغطي عليه الفضاءات والمسالك المخصصة للمارة وأصناف من المساكن التي تستجيب لمبدأ الحرمة. كانت المنازل التقليدية ذات الطابق الواحد تحتوي على فناء داخلي في مركزها وتُحيط بها جدران بلا نوافذ من جهة الشارع فيها باب وحيد للدخول.

يتمُّ الدخول من الشارع إلى الفناء الداخلي عبر رواق منحرج على شكل إيوان. ويحيط بالفناء رواق تعلوه مقصورة مُقامة على مجموعة من الأعمدة الخشبية تعلوها تيجان منحوتة على شكل مقرنصات. وتتوزع حول الفناء مختلف الوحدات السكنية الخاصة بالنساء (الحریم) أو الرجال (الديوان). وتوجد في الطابق العلوي شناسيلات (مشربيات) تُمكن من مشاهدة الخارج، بالإضافة إلى وظائفها الأخرى المتعلقة بالإضاءة والتكييف. أما السطوح فيتم استغلالها في الليالي الحارة، في حين تُساعد الغرف الموجودة في السرداب تحت الطابق السفلي على مقاومة الحرارة الشديدة والرياح الرملية.

وعليه، يمثّل المنزل، الذي يحتوي على ساحة داخلية ومشربيات، فضاء مفتوحا يدعو إلى التلاقي والمؤانسة وتجنّب الوحدة والانعزال، كما يشير إلى ذلك القول المأثور في العراق "الجنة بلا ناس لا تداس".

## 1920 - 1950: بغداد، مأسسة السياسات العمرانية البريطانية

عرف العراق منذ 1922 دستوره وبرلمانه وإدارته الحديثة لاسيما في بغداد. وقد أدى إحداث قسم الأشغال العامة في سنة 1921 إلى مأسسة السياسة العمرانية، على أن الغرض الأساسي من هذا التخطيط العمراني التنظيمي كان تمكين السلطات الإنجليزية من التحكم في المجال حسب أهدافها وخاصة مراقبة تدفقات الهجرة في صفوف القرويين والجبليين في اتجاه العاصمة التي هي في طور توسّعها وتحديثها. وأدى التخطيط العمراني التنظيمي إلى تحويل الشكل الحضري: تجاور الأحياء البريطانية مع أحياء السكان الأصليين، كما أصبحت الممرات واسعة والمنازل مصطفة على خط واحد وتم تغيير المشربيات إلى شرفات وسقائف.

وأغرى هذا النوع الجديد من السكن، الذي يتعارض مع مبدأ الخصوصية ويتبنّى مبدأ التمثيلية حسب مستوى الدخل، الشرائح العليا والمتوسطة للبورجوازية العراقية التي كان مرحبا بها في الأحياء البريطانية الجديدة (المدن الحداثية).

وكانت إدارات الأشغال العامة والنقل العمومي والسكك الحديدية، في الفترة 1921 - 1936، خاضعة لسلطة المعمارين البريطانيين التابعين للحكومة الذين يتحكمون أيضا في السجل العقاري وترقيم الشوارع حسب تخطيط شبكي.

وهكذا عرف الشكل العُمراني التاريخي والتقليدي- والذي تمّ الحفاظ عليه خلال الفترة العثمانية- تحويرا كاملا بفعل الرؤية الحضرية الاستعمارية التي يطبعها التمييز الاجتماعي والفضائي.

### 1950 - 1960: بغداد: إضفاء الطابع الغربي

نتج عن عملية إضفاء الطابع الغربي على بغداد:

- تفكير وسط المدينة وتحويل المنازل ذات الفناء إلى محلات تجارية أو ورشات صناعية،
- هدم المنازل التقليدية لضمان انتظام البنايات على خط واحد في الشوارع،
- تعميم استعمال التخطيط الشبكي وهيكلية المقاسم بواسطة طرقات واسعة مرور وسائل النقل.
- أسهم هذا التحول تدريجيا في بروز مفهوم الفرد وتملُّك النموذج الغربي للمجتمع، لأن المدينة هي مسرح تطوّر الطبائع.
- بعث قسم الهندسة المعمارية بجامعة بغداد في سنة 1959 وهو ما يعتبر أكبر مؤشر على مسار التخريب.

### 3. النهضة الثقافية المعمارية

ساهمت سياسة التعليم في التعصير المؤسسي لآليات التنمية العمرانية الذي بادرت به سلطة الوصاية. ويدل على ذلك بناء جامعة آل البيت في سنة 1924 على الطريقة الإنجليزية، من تصميم المهندس المعماري للحكومة "ولسون".

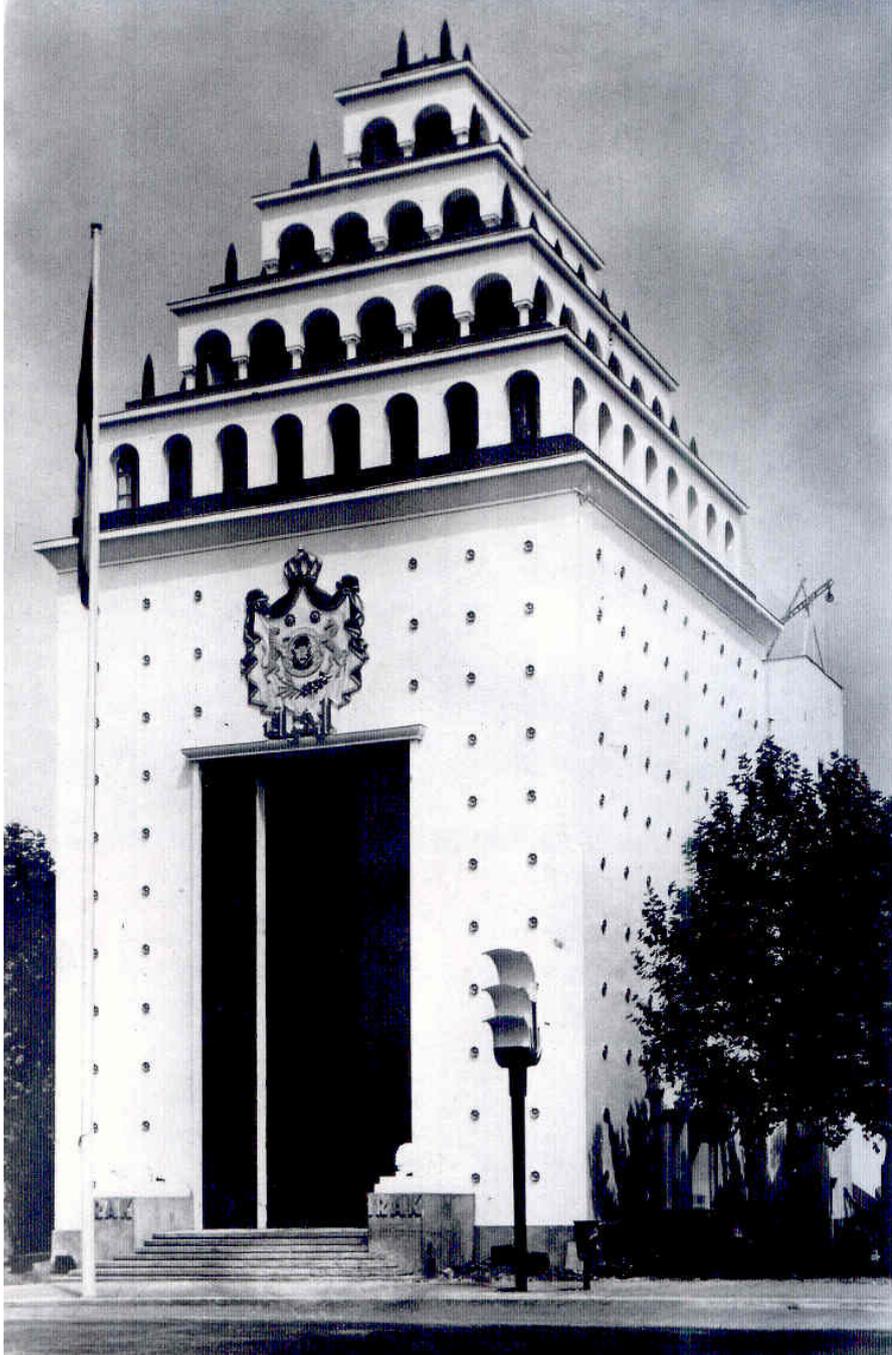
وتشير سيسيليا بياري إلى إسهام المهندسين المعماريين للحكومة البريطانية في نهضة الثقافة المعمارية بالعراق وخاصة في بغداد.

ويؤكّد ولسون المهندس المعماري للحكومة منذ سنة 1922 على "مدى التأثير الكبير للهندسة المعمارية على الحياة العامة وخاصة في المجال التربوي ويُذكّر بأنّ الهند كانت مهذا لنمط معماري أثر في الحضارة برمتها". وقد كان يدعو إلى استعمال مواد البناء الموجودة على عين المكان حتى تسهم العمارة في قيام "نهضة عربية".

هذه التصريحات التقدمية، التي تندرج ضمن أفق مستقبلي للتنمية المعمارية والعمرانية، تشير إلى "النهضة" الأدبية والفنية والمسرحية التي كانت، آنذاك، الشغل الشاغل للعالم العربي وللدولة العثمانية. وتعتبر بياري أنّ هذه التصريحات تفصح عن "إرادة التوفيق بين الشرق والغرب في خدمة الارتقاء بالمتقّف العربي".

وفي الحقيقة، فإن هذه الأقوال "التقدمية" للمهندسين المعماريين للحكومة البريطانية كانت تركز  
الهيمنة الغربية في أشكالها الصناعية والرأسمالية، ولا تترك أبدا مكانا للفاعلين المحليين.

وقد كان المهندسون المعماريون العراقيون الذين درس أغلبهم في الجامعات البريطانية يعتبرون  
ممثابة المهندسين المحليين المتعاونين مع زملائهم البريطانيين. وتجدر الإشارة إلى أن الجناح العراقي  
في المعرض الدولي للفنون والتقنيات الذي أقيم في باريس سنة 1937 أُسند تصوّره إلى المهندسين



الجناح العراقي  
المعرض الدولي للفنون والتقنيات - باريس 1937

المعماريين الفرنسيين ألبار لا براد Albert Laprade وليون بازان Léon-Emile Bazin، بينما قام المهندس المعماري العراقي أحمد مختار إبراهيم (1908 - 1958)، خريج مدرسة ليفربول المعمارية عام 1935، بدور المهندس المستشار.

#### 4. الدعم السياسي والجهاز الإداري والقانوني

وزارة الثقافة والسياحة والآثار هي السلطة المسؤولة عن التراث التاريخي. وتتدخل هذه الوزارة عبر "الهيئة العامة للآثار والتراث" المخولة بموجب القانون رقم 55 لسنة 2002، الذي يتضمن التعريفات التالية:

- الآثار: الأموال المنقولة وغير المنقولة التي بناها أو صنعها أو نحتها أو أنتجها أو كتبها أو رسمها أو صورها الإنسان ولا يقل عمرها عن مئتي سنة وكذلك الهياكل البشرية والحيوانية والنباتية.
- المواد التراثية: الأموال المنقولة والأموال التي يقل عمرها عن 200 سنة ولها قيمة تاريخية أو وطنية أو قومية أو دينية أو فنية، يعلن عنها بقرار من الوزير.
- الموقع التاريخي: الموقع الذي كان مسرحاً لحدث تاريخي مهم أو له أهمية تاريخية بغض النظر عن عمره.

وبموجب هذا التصنيف تكون مدينة بغداد ضمن التراث، ويحتاج هذا القانون من وجهة نظر التشريعات الحديثة إلى مراجعة لإدراج عدد من المفاهيم مثل المناطق المحمية والمناطق العازلة لحماية التراث المعماري والحضري والمناظر الطبيعية.

#### 5. مستوى التدريب وتوفر الكفاءات

يحتاج تكوين وتدريب الكفاءات في ميدان التراث إلى مزيد من العناية، حيث لا توجد حالياً إلا مؤسسات عموميتان ومؤسسة خاصة للتعليم العالي في الهندسة المعمارية والتخطيط الحضري. وغالبا ما تعتبر هذه المواد ثانوية جدا في برنامج تكوين المهندسين. وحتى الكفاءات التي تم تكوينها قد هاجر معظمها في السنوات الأخيرة.

وتؤكد ج. شاتلار (2014) ضرورة مساعدة المؤسسات المسؤولة عن صون تراث بغداد كوزارة الثقافة والسياحة والآثار وبلدية بغداد في مجال بناء القدرات المتخصصة.



Photo Caecilia Pieri,  
January 2011



صور سيسيليا بيري (الصورة الأولى - يناير 2011) ونظام جليل (الصورة الثانية- نوفمبر 2015)  
"التشويه الحالي لوسط المدينة باستعمال واجهات جديدة من الألمنيوم المستورد من الصين وتركيا"

## 6. التوصيات

### 1.6. التدخّل

- إطلاق عمليّة نموذجيّة لتهديب حيّ نوّاس قصد تأطير مشروع الفندقّة والسّياحة لضمان احترام معايير المحافظة على التراث والإحياء العمراني،
- تنفيذ عمليّة تهديب عمرانيّة على جزء من شارع يوجد به بعض المساكن كمنهجية تشاركية تجمع بين المالكين الخواص ومختصّين من الجامعات والمجتمع المدني.
- ويتمّ وضع هاتين العمليتين تحت إشراف بلدية بغداد مع الدعم السياسي لوزارة الثقافة والسّياحة والآثار ووزارة الداخليّة ومساهمة اليونسكو والألكسو.

### 2.6. التوثيق

- إعداد جرد للتراث العمراني وفق المواصفات المعتمدة دوليا، يأخذ بعين الاعتبار الدراسات المعمّقة التي أجريت خلال سنة 1980 حول الأحياء التقليديّة، ويشمل الأحياء التي تمّ بناؤها بين سنتي 1920 و1960 على الضفتين الشرقيّة والغربيّة للنهر.
- تأسيس قطب لتوثيق التراث العصري وذلك بالتعاون مع لجنة التنسيق الدولية لصون التراث الثقافي العراقي التي أسستها اليونسكو في 2003 وعقدت اجتماعها الأول في مايو 2004 بمقر اليونسكو بمشاركة عدد هام من الخبراء العراقيين وغيرهم.
- تشريك الكليات الثلاث للعمارة في عملية التوثيق بالإضافة إلى مكاتب التخطيط والبلديات والهيئات المعمارية الوطنيّة و الدوليّة.

### 3.6. التدريب والإصلاح

- تدريب المدربيين،
- اعتماد التدريبات المنظرّة بالشهادات العلميّة والمؤجّهة للمهندسين المعماريين والمخططين العمرانيين والمختصين في المناظر الطبيعيّة والحضريّة. هؤلاء المهندسون مطالبون بتفعيل إجراءات توصية اليونسكو لسنة 2011 المتعلّقة بالمناظر الحضريّة التاريخيّة،
- تحيين كراسات الشروط الخاصة بالمؤسسات المختصّة في عمليات تهديب وترميم المساكن القديمة والتراث العمراني،
- تثمين التدريبات الخاصة بمهن التراث،

- إعادة إدراج العلوم الإنسانية والاجتماعية في برنامج التكوين في مجال التراث للمهندسين المعماريين (التاريخ وتاريخ الفن وعلم الاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا).

#### 4.6. التشريع

- مراجعة النصوص القانونية الحالية لتحديثها وخاصة فيما يتعلق بإدراج مقارنة الصون المتكامل التي تعتبر المعلم التاريخي ومحيطه كلاً لا يتجزأ.
- تشجيع المالكين عبر الإغراءات الجبائية على صيانة ممتلكاتهم بدلا من هدمها.

#### 5.6. التنسيق

التنسيق بين عمليات التعاون الثنائية والدولية التي تُجريها اليونسكو والألكسو في إطار إجراءات الحفاظ المندمج والإحياء العمراني المصادق عليها من طرف الحكومة العراقية.

## شبه الجزيرة العربية

### جدة التاريخية: بوابة مكة المكرمة، وراث عالمي



جدة المدينة التاريخية

اتخذها الخليفة عثمان بن عفان ميناء لمكة عام 26 هـ/ 647م. بني سورها عام 915 هـ/ 1509 م في عصر المماليك لتحصينها من هجمات البرتغاليين. تتمتع جدة، كما يفسر ذلك سيموني ريكا Simone RICCA، في دراسة الحالة المتعلقة بها، بموروث ثقافي فريد مقارنة ببقية مدن المملكة العربية السعودية، كما يشهد عليه هذا المنزل-البرج: فقد مكنت المهارات المعمارية من تكييف الفضاءات السكنية مع التيارات الهوائية وأشعة الشمس. كما كانت لجدة ثقافة عمرانية خصوصية تزخر بالفولكلور الموسيقي، وعادات الملابس، وفن الطبخ. وتستقبل جدة، هذه المدينة المعروفة بقوافلها ومينائها والمطلة على البحر الأحمر، التجار والدبلوماسيين، والحجيج باعتبارها بوابة البقاع المقدسة في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة.

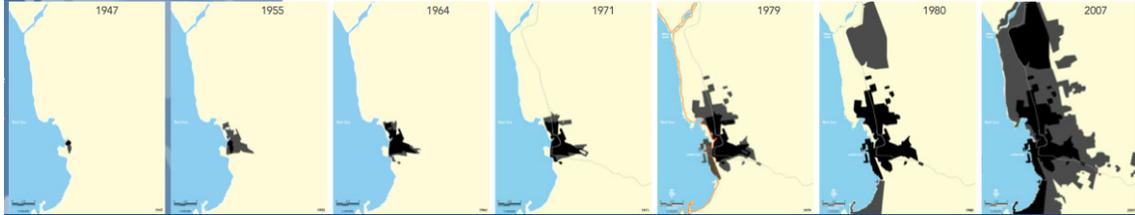
وقد تم إدراج جدة المدينة التاريخية سنة 2014 على لائحة التراث العالمي. وشجع هذا الاعتراف العالمي السلطات على الحرص على التحكم في الرهانات المتعلقة بالتخطيط التراثي في سياق التحضر.

## 1. تطور المشهد العمراني التاريخي

- 1947: هدم جدران المدينة القديمة لبناء المدينة الجديدة.
- 1956: تسارع النمو العمراني للمدينة الجديدة التي أصبحت تغطي 3300 هكتار أي 10 مرات مساحة المدينة القديمة.
- 1960 - 1970: تدهور المدينة القديمة في حين شهدت المدينة الجديدة ازدهارا وتوسعا مطّردا.
- 1971: التقسيمات السكنية الطرفية تستقبل 350 000 ساكن.
- 1976: إنشاء مجمّع مرفئي قطع العلاقة المباشرة بين المدينة التاريخية والبحر.
- 1980 - 2000: استمرار توسع المدينة وتضاعف عدد سكانها 100 مرة، من 35 000 نسمة عام 1947 إلى 3 500 000 في عام 2000.

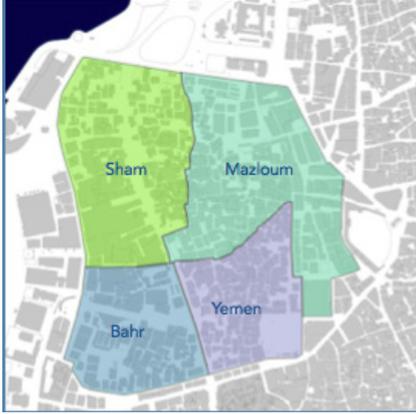
من حيث النمو العمراني، يحدد الرسم البياني أدناه مكانة المدينة التاريخية لجدة في المنطقة الحضرية

## النمو العمراني لمدينة جدة من عام 1947 إلى عام 2007 ( RC Heritage، 2013 )



## 2. التنظيم الحضري والمعماري

كانت جدة، حتى سنة 1947، مدينة تقليدية ملفوفة في سورها، تتألف من أحياء مخصصة، ويشقها محوران تجاريان مهمّان: الأول شمال-جنوب، والثاني شرق-غرب، يربط بين باب حارة البحر وباب مكة. وعلى هذين المحورين ازدهرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية لجدة التي هي في الأساس ميناء ومركز تجاري. وتنقسم مدينة جدة التاريخية إلى عدة أحياء: حارة المظلوم، حارة الشام، حارة اليمن، حارة البحر. ومن أشهر أسواقها: سوق العلوي وسوق البدو وسوق قابل وسوق الندى، إلى جانب عدد من الخانات التاريخية، ومن أهمها: خان الهنود، خان القصبه وهو محل تجارة الأقمشة، وخان الدلائين، وخان العطارين.



والأحياء التاريخية (RC HERITAGE 2013)



الأسواق الرئيسية في جدة (CCDC2009)

كانت أصالة مدينة جدة تقوم على المورفولوجيا العمرانية والتصنيف السكني إذ كانت المساكن مجمعة في كتل متراسة يحدها من الجهات الأربع شوارع تلعب دور الفضاء العام.

وكانت الحياة العائلية تدور في الشرفات والحياة الاجتماعية في الشوارع والأزقة والساحات الموجهة نحو نسيم البحر. ويمكن هذا التنظيم الفضائي من توزيع التيارات الهوائية داخل شبكة الأزقة. أما داخل المنازل ذات الأبراج فقد كانت التهوية تتم عبر المداخل.

وبما أن غرف الطابق الأرضي مخصصة للأنشطة التجارية، فقد كانت الأسرة تعيش في الطوابق العليا التي تناسب الطقس الحار. وتضمُّ السطوح "المبيت" للنوم، و"الخرجة" للجلوس، وهي جميعها وحدات معمارية تبرهن على القدرة على التكيف. إن هذا النجاح في تلطيف المناخ في المنطقة الحضرية يستحق الذكر، وقد توصلوا إليه بفضل منظومة من التقنيات منها ملاقف الهواء (البراجيل) على الغرف، واستخدام الرواشين بأحجام كبيرة، والأخشاب بمسطحات كبيرة تساعد على تحريك الهواء وانتشاره، علاوة على تراس البناءات لضمان وجود الظل...

ومن أشهر وأقدم المباني الموجودة حتى الآن: بيت آل باعشن وبيت آل نصيف وبيت الجمجوم ومسجد الشافعي ...

### 3. النمو الديمغرافي والضغوطات الاجتماعية والاقتصادية

حتى سنة 1950، كان جلّ سكان جدة التاريخية من السعوديين واليمنيين والهنود. لكن الهجرة الناجمة عن الحاجة إلى العمال الأجانب للعمل في مجال الأنشطة النفطية والزيادة المستمرة في عدد الحجيج غيرت جذريا المعطيات السكانية.

- بلغ عدد سكان جدة 3.430.000 نسمة في سنة 2012، 58% منهم من السعوديين و42% من غير السعوديين أغلبهم من العمالة المؤقتة.

• عرفت مدينة جدة التاريخية انخفاضا ديمغرافيا متواصلا منذ الخمسينيات:

- 1970: 58000 نسمة

- 1980: 46000 نسمة

- 2002: 35000 نسمة

وهما أن السكان التقليديين للمدينة التاريخية نزحوا إلى الأحياء الأخرى من جدة، فقد تم إيواء العمال المغتربين في المناطق السكنية القديمة. وأصبحت المدينة التاريخية تأوي عددا متزايدا من العمال الأجانب محدودي الدخل، أغلبيتهم من العمال الآسيويين الذين تختلف ثقافتهم عن الثقافة المحلية. وهكذا تعرضت جدة لما تعرضت له المدن العربية الأخرى في المشرق والمغرب، من القاهرة إلى فاس مروراً بتونس والجزائر:

- تخلي البرجوازية التقليدية عن المدينة القديمة،

- تدهور المساكن القديمة، الإيجار بالغرفة، التحوّل إلى أحياء فقيرة،

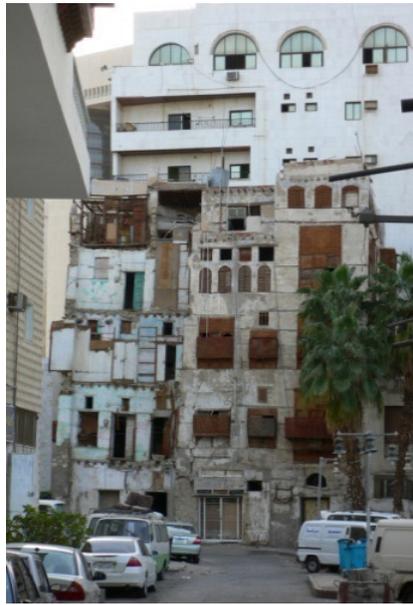
- تراجع الوظائف الاجتماعية والاقتصادية للمدينة التاريخية وظهور التجار المتجولين، وباختصار، أصبح من الملحّ صون التراث المعماري والثقافي لمدينة جدة التاريخية.

#### 4. استراتيجيات الحفاظ على الطابع العمراني

منذ سنة 1960، وعلى وجه الخصوص ابتداء من عام 1973، تحولت جدة جذريا إلى مدينة جديدة في توسّع مستمر فارضة نفسها على المستوى الفضائي والاجتماعي على حساب المدينة القديمة. وأحدث هذا التطور تبديلا للمنظر الحضري التاريخي، بسبب تناقص المشهد الأفقي للمنازل ذات الأبراج، ليغلب عليه منظر ناطحات السحاب للمدينة الجديدة. وحسب المهندس ريكا، تم محو جزء كبير من التراث التاريخي والثقافي لمدينة جدة، بسبب موجة التحضر ومعها الارتفاع الهائل لأسعار الأراضي.

#### 1.4. الوعي البلدي، أول محاولة للحماية

في أواخر سنة 1970، تصدّى أمين المدينة، الدكتور المهندس محمد سعيد فارسي، لعمليات تدمير المساكن التاريخية. وفي عام 1979، أوكلت السلطات السعودية إلى شركة استشارة بريطانية مهمة إجراء دراسة مفصلة حول المدينة القديمة لجدة. فقام المهندس المعماري روبر ماتيوو Robert Matthew بالجرد الأول للمنازل القديمة، وساعد البلدية في إصدار تشريع ذي طابع حمائي. لقد كان موقف أمين جدة موقفا رائعا أعطى الدعم السياسي لعملية صون التراث التاريخي والثقافي للمدينة.



(تلاشي نسيج المدينة القديمة ( ف. كرسوفيلي، 2010)

وفي هذا المثال، كما في موقف رئيس بلدية تونس الذي ذكر من قبل، الدليل الساطع على أهمية الدور الحاسم للجماعات العمومية المحلية في كل استراتيجية لإعادة تأهيل السكن القديم والإحياء العمراني للمدينة التاريخية. وهو ما أشارت إليه اتفاقيات اليونسكو وتوصياتها. لقد كان من نتائج هذه السياسة الخاصة بصون تراث جدة:

- قرار أمين محافظة جدة بإنشاء بلدية جديدة خاصة بجدة التاريخية تحت مسمى "بلدية المنطقة التاريخية". ومهمتها وضع الخطط والبرامج التطويرية للمنطقة التاريخية، والإشراف المباشر على المباني التاريخية بهدف الحفاظ عليها من ناحية التأهيل والترميم، كذلك المتابعة والتنسيق لجميع المشاريع الخاصة بالبنية التحتية للمنطقة التاريخية، وتنمية الأنشطة الاجتماعية والثقافية، وإصدار التراخيص التجارية المتعلقة بها ومراقبة جميع الخدمات البلدية فيها.

- أدرجت 500 دار ذات قيمة معمارية في مشروع ترميم وإعادة تأهيل مواقع التراث،

- أكدت الخطة البلدية على الطابع السكني للمدينة التاريخية وعلى دورها الاقتصادي،

- عمليا، تمت تهيئة الفضاءات العامة والطرق والمنظر بأكمله.

في الختام، خفّضت استراتيجية البلدية للحماية لعام 1980 من عمليات التدمير، ولكنها لم تتمكن من أن تقضي عليها تماما بسبب قوة المضاربة في الأراضي والعقارات.

#### 2.4. جدة تراث عالمي، ثمرة جهد جماعي

نجحت جهود كل من أمانة محافظة جدة والهيئة العامة للسياحة والآثار والقطاع الخاص في تسجيل جدة التاريخية على قائمة التراث العالمي عام 2014. وقد وضعت السلطات عددا من خطط العمل والمشروعات بهدف المحافظة على المنطقة التاريخية في جدة لتظل قلبها التاريخي النابض، من خلال إعداد مخطط ونظام للبناء يحافظ على الطابع التاريخي للمنطقة، والعمل على تصنيف المباني التاريخية فيها، ورصف شوارعها بالحجر، وإنارتها بالفوانيس التقليدية، فتأسست على إثر ذلك إدارة لحماية جدة التاريخية وصيانة المباني التراثية فيها، ثم تم إطلاق مشروع الملك عبدالعزيز لتنمية وتطوير جدة، وتشكيل إدارة لتتولى تنميتها وتطويرها، كما تم إعداد واعتماد مخططات لذلك الغرض، وتحديث نظام البناء بما يكفل المحافظة على النسيج العمراني التاريخي والمباني التراثية في المنطقة بشكل مستدام. ويؤكد سيمون ريكا على أهمية ما تقوم به السلطات وخاصة مقاربتها المفاهيمية والعملية التي يمكن تلخيصها كالتالي:

- إشراك أمانة جدة والهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني في عملية الدعم السياسي والحوكمة

المؤسسية في مشروع التخطيط العمراني والتنمية الاقتصادية.

- زيادة الاستثمارات العامة مما أدى إلى تشجيع المستثمرين من القطاع الخاص وإسهامهم في

إعادة تأهيل المساكن والإحياء العمراني.

- إشراك غرفة التجارة وجمعيات المدن التاريخية، وإدارة الأوقاف والمنظمات غير الحكومية

في جهود الحفاظ على المنظر العمراني التاريخي لجدة على النحو الوارد في توصية اليونسكو لسنة 2011.

##### 5. تحديث المنظومة التشريعية والقانونية والتنظيمية

لإنجاز مهمة الحفاظ على التراث العمراني، حدثت المملكة العربية السعودية المنظومة القانونية عام 2014 وذلك بإصدار نظام الآثار والمتاحف والتراث العمراني، الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/3) بتاريخ 1436/1/9.

يكلّف هذا النص القانوني الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني بتحديد مواقع الآثار والتراث العمراني وبالمحافظة عليها عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها وإيجاد منطقة حماية غير مبنية حول هذه المواقع. وينص النظام على أنه "لا يجوز إقرار مشروعات التخطيط التي فيها - أو في نطاقها- مواقع آثار أو تراث عمراني إلا بعد موافقة الهيئة" و"لا يجوز إصدار رخص البناء أو الترميم في الأماكن المجاورة لمواقع الآثار والتراث العمراني المحددة إلا بعد الاتفاق مع الهيئة". وتمنع بموجب هذا القانون، داخل حدود مواقع الآثار والتراث العمراني، أعمال الهدم الكلي أو الجزئي والقيام بأي عمل له تأثير فيها إلا بعد الحصول على موافقة مسبقة من الهيئة.

وينشئ النظام صندوقاً في الهيئة "يسمى صندوق الآثار والمتاحف والتراث العمراني للإنفاق منه على حماية الآثار والتراث العمراني والمحافظة عليها وصيانتها وعرضها، ودعم جهود القطاع الخاص من أفراد ومؤسسات وجمعيات أهلية بما يسهم في تحقيق الأهداف والغايات المنصوص عليها في هذا النظام". ويكلف القانون الهيئة بتشجيع إنشاء جمعيات متخصصة في مجال الآثار والتراث والمتاحف ولها الاستفادة من دعم الصندوق.

وقد أصدرت الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني اللوائح التنفيذية المفصلة لهذا النظام.

##### 6. إطلاق مقارنة للتخطيط العمراني على المدى الطويل

تضمنت الخطة الاستراتيجية لتطوير محافظة جدة في أفق 2030، المتناغمة مع خطة المملكة في الأفق نفسه، عملية إحياء على 4 محاور أساسية تتمثل في:

- إنشاء بوابة في اتجاه مكة المكرمة والمدينة المنورة،
- العمل على أن تصبح جدة موقعا للمؤتمرات الدولية ومركزاً ثقافياً للعالم الإسلامي،
- دمج المجتمعات السعودية وغير السعودية المقيمة في جدة وكذلك الطلاب في منظومة عمرانية للتجاور والتعايش،

## 7. الدروس المستخلصة

- يعتبر ما تم إلى حد الآن لإحياء جدة التاريخية نجاحاً تؤكده الاعتبارات التالية:
- تعزيز شعور المواطنين السعوديين المعاصرين بأهمية إعادة التواصل مع جذورهم، واعتزازهم بالانتماء والتشبث بالهوية، وذلك بفضل التراث الثقافي.
  - أصبح ترميم المنازل العائلية عملية تقبل عليها النخبة الحضرية، وتعتبر ما يصرف فيها استثماراً.
  - أصبح الدعم السياسي الذي تقدمه السلطات العمومية والحوكمة البلدية محل تقدير من قبل المجتمع المدني الذي يشارك في المناقشات العمرانية والمبادرات الاجتماعية.
- ولابدُّ من الإشادة بالجهود التي بذلها الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز، رئيس الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، التي كان من نتائجها تسجيل جدة التاريخية في قائمة التراث العالمي، وما تلاه من ترميم المباني التاريخية ومشاريع صيانة المدينة وإحيائها.
- ومن المشاريع الهامة أيضاً مهرجان جدة التاريخية الذي انطلق عام 2014 بهدف استحضار ماضي جدة، والذي يرأسه محافظ جدة الأمير مشعل بن ماجد بن عبد العزيز.

# مدينة الكويت

## من قرية لصيادي السمك إلى عاصمة الدولة



(أبراج الكويت)

### 1. التطور العمراني لمدينة الكويت

تأسست مدينة الكويت عام 1613/1612 حول حصن قديم، وكانت قرية صغيرة يسكنها بعض الصيادين والبدو، ثم بدأت تتسع مع تأسيس الدولة إلى أن أصبحت مركزا تجاريا هاما في المنطقة. وكانت محاطة بالأسوار، ومهيكلت حول الأسواق، ومقسمة إلى أربعة أحياء كبيرة هي الحي القبلي، والحي الشرقي، وحي الوسط، وحي المرقاب، وتنقسم هذه الأحياء الرئيسية إلى أحياء فرعية تسمى "فريج". وقد بنيت أسوار المدينة الثلاثة ما بين أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين، حيث شيد السور الثالث عام 1920 وتم هدمه، باستثناء بواباته، عام 1957 في إطار توسعة المدينة.

وتصف دراسة المهندسة المعمارية زهراء علي بابا التحول الذي عرفته هذه المدينة من قرية صيادين إلى عاصمة للدولة، ثم إلى حاضرة عالمية. وتلاحظ أن عملية التحديث المتسارعة أدت إلى تهميش الشواهد الثقافية.

وتتمثل المراحل الرئيسية لهذا التطور في:

- 1938: اكتشاف النفط الذي أدى إلى تطوير مدينة الكويت،
- 1946: استغلال النفط، والازدهار الاقتصادي، والتغير الجذري في أنماط السكن والعيش، والتحديث العمراني المتطور، فأصبحت قرية الكويت مدينة.

## 2. المخططات الهيكلية لمدينة الكويت

- 1952: وضع المستشارون مينيوريو وسبنسلي وماكفارين أول مخطط هيكلية لمدينة الكويت، وعلى أساسه بنيت المدينة الحديثة بطرقها ومناطقها وضواحيها.
- 1967: مخطط البلدية للتنمية، الذي أملت الحاجة إلى المزيد من الأراضي المنظمة للعمران نتيجة تضاعف عدد السكان ما بين 1957 و1965.
- 1970: المخطط الهيكلية الثاني، والذي جرى تطويره في 1977 و1983.
- 1997: المخطط الهيكلية الثالث (والذي تم تطويره عام 2005)
- 2008: المخطط الهيكلية العام لدولة الكويت، الصادر بموجب المرسوم رقم 255 لسنة 2008
- 2010 الخطة العمرانية لمدينة الكويت 2030

## 3. الحداثة والمحافظة على التراث المعماري

- في أوائل سنة 1970، كانت الكويت إحدى دول شبه الجزيرة العربية التي انخرطت باقتناع في عملية التحديث. ويشهد على ذلك إنشاء جامعة الكويت ذات الشعبية الواسعة في بلدان المغرب العربي والمشرق، بالإضافة إلى تطوير نظام مصرفي لتنمية المنطقة العربية.
- بين 1950 و1990، أصبحت الكويت مدينة- دولة، شيدت في صحراء قاحلة دون موارد مائية صالحة للشرب. ويعد إنشاء هذه المدينة-الدولة، مقارنة بالوضع السابق لسنة 1950، ثورة عمرانية استفادت من التكنولوجيات المتطورة ولاسيما في مجال تحلية مياه البحر وتشديد البناءات ذات الارتفاع الشاهق، بحيث أصبحت الكويت أيقونة معمارية ترمز إلى حداثة القرن العشرين.
- ولكن عملية التحضر هذه صاحبها هدم جزء كبير من البناءات التقليدية التي تعود إلى القرن التاسع عشر وما قبله والبناءات الحديثة التي تعود إلى بدايات القرن العشرين.
- 1997: تحديد المباني التاريخية الواجب حمايتها وصونها، وإدراجها في سجل المباني التاريخية للكويت،

2005: يهدف المخطط الهيكلي لمدينة الكويت في أفق 2030 إلى:

- تنظيم كثافة السكان في الأحياء القديمة ومراقبة عملية التحضر التلقائية،
- إعادة تأهيل المساكن القديمة وحماية جماليتها المعمارية وبعث استراتيجية لإحيائها،
- المحافظة على المواقع التاريخية والحفاظ على المناظر الحضرية.



(سوق المباركية)

- تعد أبراج الكويت الواقعة على شاطئ البحر والتي هي خزانات للمياه الصالحة للشرب (وقد صممها المهندسة المعمارية الدنماركية مالين بيورن Malene Bjorn) تحفة معمارية. ويتم حاليا إعداد ملف أبراج الكويت من أجل تسجيلها على قائمة التراث العالمي لليونسكو.
- يمثل سوق المباركية التاريخي الواقع في قلب مدينة الكويت في نظر المهندس المعماري دانيال بيني Daniele Pini أهم الشواهد التاريخية في النسيج العمراني. وقد سمي المباركية نسبة إلى الشيخ مبارك الصباح، ويمتاز بأسقفه المصنوعة من الخشب والجندل والباسجيل بأشكال هندسية جميلة.
- أنتج مكتب ويلبر سميث Wilbur Smith ومكتب المهندسين الكويتيين تصاميم نموذجية لحماية طابع العمارة والعمران التقليديين وإحياءه.
- يتم ترميم المساجد القديمة من طرف البلدية ووزارة الأوقاف.

بين 2003 و2015 قامت بلدية الكويت والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بإعادة توجيه سياسة تهيئة الفضاء العمراني لتحسين التنظيم الفضائي ذي الفائدة العملية القصوى ولإدماج الشواهد المعمارية والتاريخية والثقافية في المشهد العمراني.

#### 4. الدعم السياسي والجهاز المؤسسي والقانوني

- يضمن مجلس الوزراء والبرلمان الدعم السياسي إذ انخرطوا بطريقة إيجابية في خدمة المعالم التاريخية وذلك بالزيادة في الميزانية المخصصة للترميم من قبل الدولة. غير أنه وكما أشارت إلى ذلك زهراء علي بابا، لا بُدَّ من المزيد من أجل إدماج الموروث الثقافي في المشهد العمراني.
- يضمن قانون الآثار الصادر بالمرسوم الأميري رقم 11 لسنة 1960 حماية التراث الثقافي. ويكلف المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بأعمال الصيانة والترميم اللازمة لجميع المواقع الأثرية والمباني التاريخية المسجلة، وبدفع أي ضرر يلحق المواقع الأثرية والأبنية التاريخية المسجلة، ولا يحق للمالك إجراء الإصلاح أو الترميم دون موافقة المجلس المذكور ودون إشرافه. وإذا هدم المالك عقاره المسجل أو قسما منه، أو حور فيه دون موافقة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أجب على إعادة البناء إلى ما كان عليه فضلا عن العقوبات المنصوص عليها في القانون.

- اتخذ المجلس للسنوات الخمس القادمة شعار "استراتيجية 5 x 5 x 4 " أي 5 سنوات x 5 مشاريع استراتيجية 4 x أهداف رئيسية. وعليه، يتعين انتظار النتائج.

وخلاصة القول: تمت معالجة المشاكل التي اعترضت تطور مدينة الكويت منذ 1950 عن طريق سلسلة من المخططات الهيكلية مكنت من إنجاز مجال العاصمة أو المدينة- الدولة التي يصل عدد السكان فيها إلى أكثر من 3 ملايين نسمة وسيصل في سنة 2030 إلى ما يقارب الـ 4 ملايين نسمة.

## مدينة دبي

### الماضيات على المنظر الحضري التاريخي و/أو التحول إلى حاضرة



#### 1. التطور العمراني وثورة التحول إلى حاضرة

1920 - 1960: التأقلم مع الظرف الاقتصادي العالمي وولادة مدينة جديدة

1960 - 1980: "دبي الجديدة" مدينة حديثة وحاضرة بدون حدود

1980 - 2010: "دبي العالمية" حاضرة في تحول دائم وتغير مستمر

تطورت مدينة دبي من قرية على ضفاف خليج صغير، يسكنها صيادو السمك واللؤلؤ والتجار وصانعو القوارب لتصبح في غضون نصف قرن، من 1960 إلى 2010، المدينة التي يمكن اعتبارها الأكثر حداثة والأكثر جاذبية في شبه الجزيرة العربية. ووفقا لبعض الإحصائيات، بلغ عدد سكان دبي ما يقارب 2.3 مليون نسمة في 2015. وتبرز التطورات الديموغرافية أدناه التطور الفضائي لهذه المدينة:

10 000	1900
000 20	1940
000 59	1960
183 000	1975
000 419	1985
000 674	1995
000 300 1	2005
000 283 2	2012

(المصدر: ج. موتان، الجغرافيا السياسية للعالم العربي، 2012)

### 1920 - 1960: التأقلم مع الظرف الاقتصادي العالمي وولادة مدينة جديدة

واجهت دبي، الميناء الرئيسي للخليج في نهايات القرن التاسع عشر، الأزمة الاقتصادية لسنة 1929 والمنافسة التجارية لليابانيين الذين كانوا ينتجون اللؤلؤ المزروع، كما واجهت مخاطر التجارة عبر الطريق المؤدية إلى الهند بسبب الحرب العالمية الثانية. وكان لزاما على إمارة دبي أن تتطور، الشيء الذي عرفت كيف تقوم به، إذ أصبح سكان الواحات وصيادو السمك واللؤلؤ من أشهر صانعي القوارب الخشبية والتجار ورجال الأعمال على الصعيد الإقليمي، كما اشتهروا خاصة بتوريد الذهب وتصديره. وستقود هذه القدرة على التكيف إلى تحول القرية الواحية إلى مدينة. وقد كانت دبي تعد في سنة 1940 قرابة 20000 ساكن، وعرفت في سنة 1943 أول مستشفى وفي سنة 1946 أول مصرف.

### 1960 - 1980: "دبي الجديدة"، مدينة حديثة وحاضرة بدون حدود

خلال هذه الفترة الأولى للعوامة، أدت السياسة التي انتهجتها السلطات إلى جذب المستثمرين الغربيين إلى دبي. كما مكنت الحوكمة البلدية التوافقية والمستنيرة، التي أسهمت فيها عائلات ثرية ومؤثرة، من وضع خطط للتنمية العمرانية والاقتصادية، فأصبحت المدينة الجديدة في أواخر الخمسينات، في سياق الحوكمة المسيرة، مدينة حديثة وحاضرة تم تصميمها لتكون مركزا ماليا واقتصاديا على المستوى العالمي. ومن مراحل هذا التطور/الثورة العمرانية :

- 1963: افتتاح جسر آل مكتوم، وهو الجسر الذي يربط بين ضفتي خليج دبي موحدا بذلك أراضي دبي.
- 1966: اكتشاف النفط في عرض البحر، والتنمية الصناعية، وبناء ميناء راشد ومختلف الأرصفة، وتدفق أعداد كبيرة من العمال الأجانب، وتطور النمو السكاني.
- 1969: مكن تنظيم تجارة الذهب، إثر الاتفاق المبرم مع الهند في عام 1948، دبي من استقطاب

20% من التجارة العالمية (باستثناء البلدان الاشتراكية) من دون قيود أو ضرائب. وهو ما وفر دخلا ماليا جديدا لدعم التطور العقاري.

## 2. المخططات الهيكلية لمدينة دبي

- 1960: وضع أول وثيقة لتخطيط دبي، وهي المخطط الهيكلي لجون هاريس John Harris.
  - 1961: وضع نظام دائم للإمدادات الكهربائية.
  - 1971: المخطط الهيكلي الثاني لجون هاريس من أجل السيطرة على النمو العمراني المتسارع لتلبية حاجيات التنمية الصناعية والتجارية والسياحية وحاجيات الإسكان بسبب الانفجار السكاني.
  - 1973-1980: نمو سكاني سريع للغاية يتضاعف كل ستّ أو سبع سنوات وتحضّر مُتسارع.
  - 1993: إطلاق الخطة الاستراتيجية للتحكم في التحضر وتنظيم التنمية في أفق سنة 2012.
- وقد شهدت الفترة 1993-2012 نمواً عمرانياً كبيراً وتغيرات في استعمالات الأراضي وتوسيع شبكة



دبي الحديثة (أس. كيوني/ أي.أيتش.دي 2015)

الطرق والمرافق. وفي ظل هذه التحديات تم تشكيل لجنة التخطيط الحضري بموجب قرار المجلس التنفيذي في 2006 بعضوية بلدية دبي والدوائر والهيئات الحكومية وشركات التطوير العقارية الوطنية الكبرى، وذلك تأكيداً على أهمية الشراكة في تطوير خطة متميزة للتنمية الحضرية والعمرانية للإمارة، وتم تكليف استشاريين دوليين بوضع رؤية للتنمية الحضرية والعمرانية للإمارة لعام 2020 وما بعد، وتم تطوير الرؤية انبثاقاً من خطة دبي الاستراتيجية 2015 والتي تم إطلاقها عام 2006 بهدف جعل دبي "مدينة عالمية عربية رائدة تضمن متطلبات الحياة ورفاهية العيش للمواطنين وجميع القاطنين

في الإمارة". وانطلاقاً من هذه الرؤية قامت لجنة التخطيط الحضري بإعداد رؤية دبي للتنمية العمرانية والحضرية لعام 2020 وما بعد، وتضمنت الرؤية سبعة محاور، هي محور مدينة التنافس والتميز، محور المواصلات وترابط النسيج العمراني المتكامل، مدينة وأماكن ذات رونق جمالي وإلهام، مدينة لمجتمع رائد ذي تطلعات فكرية، مدينة للتطلعات والإبداع والحضارة، مدينة مستدامة على مدى الأجيال، مدينة النمو والتحديث.

### 3. العولمة والمنظر الحضري التاريخي

في بداية الثمانينيات، أثار هدم المباني ذات المعمار التقليدي جدلاً بين النخب المحلية وتسبب في ردود أفعال كانت لصالح التراث الثقافي. وبداية من سنة 1995، أطلقت إدارة التراث العمراني والآثار لبلدية دبي برنامجاً طموحاً لصون التراث المعماري التقليدي وإعادة تأهيله. وهكذا فازت البلدية (إدارة التراث العمراني والآثار) بجائزة من مؤسسة سيتي اسكيب العالمية في مجال العمارة الإسلامية لعام 2008، وذلك عن جهودها المتميزة في المشاريع التالية:

1. إحياء الأسواق القديمة في دبي: وتشمل السوق القديم في بر دبي وبر ديرة، والأسواق التقليدية المتخصصة.
2. ترميم 6 مساجد تاريخية في منطقة الشندغة القديمة، تعود إلى الفترة من عام 1896 إلى عام 1955، وقد تم الحفاظ عليها وترميمها بالمواد والأساليب التقليدية نظراً لأهميتها التاريخية وباعتبارها سجلاً اجتماعياً وتاريخياً للمجتمع في تلك الفترة.



ترميم وإعادة تأهيل بيت بن حارب في الشندغة  
مثال على جهود بلدية دبي للحفاظ على معالم التراث العمراني والحضري

3. إحياء منطقة البستكية التاريخية التي تضم 55 مبنى تاريخياً، وتتميز بالأبراج الهوائية والأحواش والزخارف التقليدية، ويرجع تاريخ أقدم البيوت إلى 1896 وأحدثها إلى عام 1955.

#### 4. تطوير المنظومة القانونية والمؤسسية

- انضمت دولة الإمارات العربية المتحدة عام 2001 إلى اتفاقية التراث العالمي لسنة 1972، وعام 2005 إلى اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي لعام 2003.
- تم تأسيس المجلس الوطني للسياحة والآثار، وهو جهاز اتحادي يهدف إلى تنسيق التنمية والترويج للسياحة داخلياً وخارجياً بما ينسجم مع الموروث الحضاري والثقافي وقيم المجتمع الإماراتي الأصيلة، وإلى الحفاظ على الآثار والهوية الوطنية.
- 1994: إنشاء إدارة التراث العمراني والآثار بلدية دبي.
- 1996: تحديد منطقة حماية الأحياء التاريخية لدي في وثائق التخطيط (المخطط الهيكلي). وتعتبر معالم تاريخية كل المباني التي شيدت قبل العام 1955.
- وقد لاحظ سيمون ريكا أن اللوائح البلدية المطبقة بصرامة من قبل الأجهزة التقنية والإدارية سمحت بحماية موروث دبي قبل صدور قانون فيدرالي يتعلق بالآثار.
- 2015 أصدرت دولة الإمارات العربية المتحدة قانوناً اتحادياً للآثار.
- 2015 أطلقت دولة الإمارات العربية المتحدة (مؤسسة دبي لمتحف المستقبل)، بالتعاون مع منظمة "اليونسكو" ومعهد الآثار الرقمية البريطاني (جامعة أكسفورد و جامعة هارفرد) مشروع التوثيق الرقمي للمواقع الأثرية في المنطقة بتقنية التصوير ثلاثي الأبعاد، ومن ثم إعادة بنائها بالكامل من خلال تقنية الطباعة ثلاثية الأبعاد، وذلك لحمايتها والحفاظ عليها من الاندثار في حال تعرضت لمخاطر تهدد وجودها، باعتبارها إرثاً حضارياً إنسانياً.

#### 5. الإدماج الاجتماعي للإرث التاريخي والاعتراف الدولي بالموروث الثقافي

إن إنشاء متحف دبي (1995) في "حصن الفهيدي"، هذا الصرح التاريخي الذي يعود إلى سنة 1795، ضمن شبكة من خمسة عشر متحفاً (2000) في منازل تقليدية مرممة، يمكن أن يساهم في النهوض بالأحياء التقليدية.

وتعد هذه العملية نجاحاً حقيقياً إذ يستقطب متحف دبي مليون زائر كل سنة. وإلى جانب ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هذه العمليات ساهمت في تكوين خبرات جيدة في الترميم والتحكم في المهارات التقليدية ومراقبة تصاريح البناء (الواجهات، المواد، الألوان، إلخ).

وبناء على هذه التجربة المقنعة، دفعت إمارة دبي بتفكيرها إلى أبعد من ذلك، للبحث عن إدماج الإرث التاريخي ضمن رؤية معاصرة تتجاوز البعد الخاص بالمعلم لتشمل كامل المنظر الحضري التاريخي، وتنخرط في ديناميكية اقتصادية واعدة.

من هذا المنظور، جاء ترشيح خور دبي للتسجيل على قائمة التراث العالمي لليونسكو.

وقد مكن الدعم السياسي لإمارة دبي ونجاعة الحوكمة المؤسسية للبلدية، خلال نصف قرن (1960-2010) من إنشاء "القرية العالمية" مع إدماج "دبي التاريخية"، أي مدينة ما قبل الحداثة. وتعدّ القرية العالمية من أكثر الأماكن شعبيةً على مستوى العالم، ويزورها في كل عام من شهر أكتوبر إلى أبريل حوالي خمسة ملايين شخص.

يفسر سيمون ريكا قصة النجاح هذه بقدره البلدية على تلبية حاجيات ومطالب السكان والمواطنين والأجانب في حياتهم اليومية وممارسة أنشطتهم بدون تعقيدات أو عوائق.



( المصدر: موقع دبي للثقافة )

# العين

## "مدينة الوامات": مدينة العداائق المفططة

سميت مدينة العين بهذا الاسم لوجود العديد من عيون الماء تم استغلالها منذ القدم من خلال قنوات للري سميت بالأفلاج.

### 1. تطور المنظر الحضري التاريخي

1960-1900: نظام المنشآت البشرية لأرخبيل الواحات

1960-1980: من أرخبيل واحات إلى مدينة جديدة ثم إلى مدينة حدائق

تعدّ العين، من ناحية حجم سكانها، المدينة الثانية لإمارة أبو ظبي. وقد تطور عدد السكان بتطور المدينة، كما يبينه الجدول التالي:

العين	إمارة أبو ظبي	
± 5 000	20 000	1960
50 000	-----	1975
444 000	1 374 000	2005
568 000	-----	2010
704 000	2 657 000	2014

(المصدر: SCAD)

تمثل العين "مهد الأمة" الإماراتية، باعتبار علاقاتها بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الأب المؤسس لدولة الإمارات العربية المتحدة، الذي حكم هذه المدينة وقضى فيها شبابه. وبفضل طبيعتها الجغرافية، والمناظر الطبيعية للصحراء والجبال التي تطوّقها والوجود البشري منذ العصر الحجري الحديث وحضارات فجر التاريخ وصناعات النحاس في العهد العباسي وطرق القوافل التي أدمجتها مع شبه الجزيرة العربية، تمثل العين رمزية تاريخية وثقافية أنقن الحكام والمحكومون

احترامها وحمايتها والمحافظة عليها في وقت أدت فيه عملية التمدن المعولمة إلى تغيير "المناظر الحضرية التاريخية" في شبه الجزيرة العربية.

لذا تم إدراج المواقع الثقافية في العين (حفيت، هيلي، بدع بنت سعود ومناطق الواحات) في لائحة التراث العالمي لليونسكو عام 2011. وتشهد هذه المواقع على استقرار الإنسان في المنطقة الشرقية لدولة الإمارات منذ العصر الحجري الحديث مع بقايا من مختلف الثقافات ما قبل التاريخ. وتشمل البقايا الأثرية والمعمارية المقابر ذات الشكل المستدير (حوالي 2500 قبل الميلاد)، والآبار ومجموعة واسعة من المنشآت: المباني السكنية والأبراج والقصور والمباني الإدارية. وفي موقع هيلي واحد من أقدم الأمثلة على نظام الري بالأفلاج المتطورة يعود تاريخه إلى العصر الحديدي. وقد أعطى هذا النظام خبرة في مجال البناء وإدارة المياه للسكان وأدى إلى التنمية في وقت مبكر من الزراعة في عصور ما قبل التاريخ. وفي دراسة الحالة الخاصة بمدينة العين، حلّ المهندس المعماري دانيال بيني النهج التصوري الذي توخاه الإماراتيون والذي قاد إلى اعتراف اليونسكو بالقيمة الكونية الاستثنائية للمواقع الثقافية بالعين. كما تحدث عن معضلة البحث عن حل وسط بين "الأصالة" و"الحداثة"، ويقترح سبل المضي قدماً لضمان الحفاظ على التراث الثقافي في مضمار التنمية الحضرية المستدامة.

## 2. من أرخبيل الواحات إلى مدينة الحدائق

1900 - 1970: نظام المنشآت البشرية لأرخبيل الواحات

- قرى ومنتجعات تمّ تركيزها خارج الواحات.



قصر الجاهلي، العين (المصدر: جريدة البيان، الإمارات)



- منازل ذات جدران سميكة من الطين وأسقف من سعف النخيل وغرف مستطيلة يتوسطها فناء داخلي.
- أبراج مراقبة وقلاع، ومنازل كبيرة للأعيان تضمن الأمن.

#### 1960-1980: من أرخبيل الواحات إلى المدينة الجديدة التلقائية ثم مدينة الحدائق

عرفت العين، بفضل برنامج الإسكان والبنية التحتية والتجهيزات، الذي أطلقه المرحوم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، تحولا وتطورا تدريجيا قاد إلى ولادة مدينة جديدة روعي فيها نموذج المنازل التقليدية ولكن بدرجة رفاهية أعلى. كما شهدت هذه الفترة تركيز منشآت كبيرة مثل مستشفى الواحة سنة 1964، ونزل الهيلتون سنة 1971، وجامعة الإمارات سنة 1976، إلخ...

تقوم مدينة الحدائق، كما أرادها الشيخ زايد، على مبدئين:

- كثافة منخفضة لمساكن بطابق أرضي أو طابق أرضي مع طابق أول بالنسبة إلى البناءات ذات الأجنحة، حيث المباني السكنية الصغيرة.
- تحديد ارتفاع المباني في المناطق الحضرية المركزية على طول الطرق السريعة الرئيسية إلى طابق أرضي +4/20 متر.

يعد هذا الخيار للكثافة المنخفضة الشرط الأول لإنشاء مدينة الحدائق حيث تحيط المنتزهات والحدائق بالمعالم التاريخية والتجهيزات الضخمة ومراكز التسوق والإدارات، إلخ... وتصل مساحة

الفضاءات الخضراء إلى حوالي 12 مليون م<sup>2</sup> أي ما يعادل 32 م<sup>2</sup> للسكان الواحد. وتوجد في مدينة العين 7 واحات رئيسة هي: العيني، والداوودي، والمعتز، والمويجعي، والجيمي، والقطارة، وهيلي، وتحتوي على أكثر من 1300 مزرعة أو ما يسمى بأرض نخيل، وأكثر من 170 ألف نخلة.



(المصدر: البيان الإماراتية)



(المصدر: البيان الإماراتية)

وتجدر الإشارة إلى أن واحات النخيل الموزعة في مدينة العين تشكل واحداً من أجمل ملامح المدينة، وتتميز بنظام الري بالأفلاج الذي يعود إلى العصر الحديدي.

### 3. العين، ممتلك ثقافي من التراث العالمي

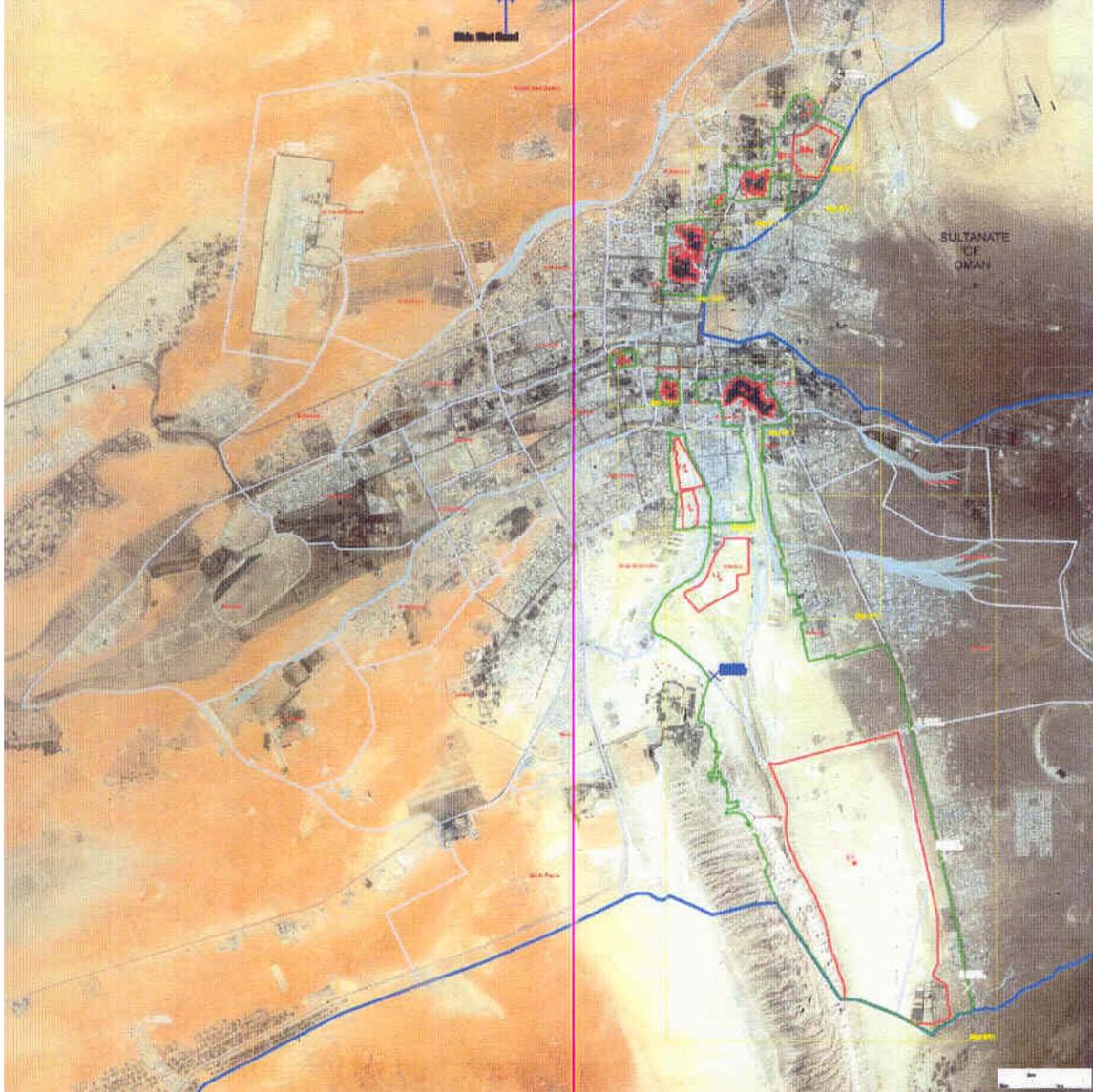
تمثل منطقة العين نموذجاً في مجال التراث يتميز بثناء وتنوع مكوناته. وتبين المواقع التراثية للعين الصلة الوثيقة بين المنشآت البشرية والمناظر الطبيعية كما تبين قدرة الحضارات القديمة على استخدام الموارد البيئية المتوفرة، وذلك منذ العصر الحجري الحديث. ويذكر المهندس بيني بالفائدة العلمية للجرد والتوثيق كخطوة أولى في كل عملية للمحافظة. كما يشير إلى أن ريّ النخيل من المياه الجوفية للجبّال بواسطة الأفلاج يمثل عملاً هندسياً استثنائياً يعود إلى العام 1000 قبل الميلاد.

توصّل الجرد الذي أجرته الهيئة المسؤولة عن التراث الثقافي إلى إحصاء 72 معلماً تاريخياً في العين، 55 منها داخل الواحات، تم ترميم البعض منها وهي تشكل الآن علامات في النسيج العمراني.

وفي عام 2011، سجلت اليونسكو "المواقع الثقافية للعين" على لائحة التراث العالمي اعترافاً بقيمتها الاستثنائية كشواهد لثقافة ساهمت في حضارة المجتمع العربي، خاصة مع اختراع نظام الأفلاج والقدرة على استمرار التقاليد المعمارية والفلاحية والاقتصادية والاجتماعية عبر العصور للتأقلم مع مقتضيات الحاضر. وتغطي المواقع الثقافية مساحة تبلغ 4945 هكتاراً وتصل مساحة المناطق العازلة التي تحميها إلى 7605 هكتاراً.



(قلعة ( قصر) المويجي التي تم ترميمها مؤخراً)



(خطة تصميم شاملة لمدينة العين تتضمن "مواقع الثقافية" المدرجة في عام 2011 في قائمة التراث العالمي لليونسكو)

#### 4. المنظومة القانونية والتشريعية والتنظيمية والحوكمة المؤسسية

تغطي المنظومة التشريعية والقانونية والتنظيمية لإمارة أبو ظبي جميع المجالات من خلال قوانين متعلقة بالبيئة (1999) والواحات (2004) والتنمية الريفية (2007)، والآثار التي صدر بشأنها قانون جديد (2016) عوض قانون 1970. وقد نظم هذا القانون الجديد اختصاصات هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ونطاق رقابتها على التراث الثقافي بالإمارة، بما في ذلك تعميق الوعي الوطني بأهمية التراث الثقافي والترويج له، والمحافظة على العادات والتقاليد، إضافة إلى اتخاذ كل التدابير اللازمة لصون وحماية التراث الثقافي في الإمارة. وموجب القانون، يحظر القيام بعدد من الأعمال إلا بعد الحصول على ترخيص من الهيئة، ومنها نقل ملكية التراث الثقافي المادي المنقول المقيّد، أو القيام بأعمال البنية

التحتية في المواقع الثقافية أو المناطق المحيطة بها، أو القيام بأي أنشطة صناعية أو تجارية أو زراعية أو علمية أو استثمارية في هذه المواقع. واستحدث القانون سجلين أحدهما للتراث المادي، والآخر للتراث المعنوي. وتسعى هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، وفق القانون، بالتنسيق مع الجهات التعليمية المختصة، إلى تضمين المناهج الدراسية التراث الثقافي المعنوي.

وتشمل المنظومة المؤسسية للإمارة:

#### 1.4. مجلس أبوظبي للتخطيط العمراني (2007)

أنشئ مجلس أبوظبي للتخطيط العمراني، الذي يضم إدارة التطوير العمراني، بموجب القانون رقم (23) لسنة 2007 كجهة مسؤولة عن مستقبل البيئة العمرانية في إمارة أبوظبي، وهو السلطة المختصة التي وضعت "خطة أبوظبي 2030: خطة إطار الهيكل العمراني". ويتأسس المجلس سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، ولي عهد أبوظبي. ويعمل مجلس أبوظبي للتخطيط العمراني على وضع الاستراتيجيات العمرانية والمخططات العامة والسياسات والاشتراطات التنظيمية والإجراءات اللازمة للموافقة على مشاريع التطوير العمراني بالتعاون والتنسيق مع شركائه في القطاعين العام والخاص. كما يندرج ضمن مسؤوليات المجلس الحرص على تحقيق توزيع واسع النطاق للأنشطة الاقتصادية. لقد أصبح مجلس أبوظبي للتخطيط العمراني يشكل مرجعاً ومقياساً لأحسن الممارسات التخطيطية في الإمارات العربية المتحدة وفي العالم بفضل العمل الذي قام به من خلال تطويره وإعداده خطط 2030 التي تشمل كلا من العاصمة والعين والغربية إلى جانب الخطة البحرية للإمارة، والتي تقدم مجتمعة نظرة عن مستقبل تطور إمارة أبوظبي خلال الـ 15 سنة القادمة.

#### 2.4. هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (2005)، التي أدمجت في هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (2012).

تم إنشاء هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة في فبراير عام 2012 لتحل محل هيئة أبوظبي للثقافة والتراث وهيئة أبوظبي للسياحة. وتتولى الهيئة حفظ وحماية تراث وثقافة إمارة أبوظبي بما في ذلك حماية المواقع الأثرية والتاريخية، وتطوير متاحف جديدة كجزء من المنطقة الثقافية في جزيرة السعديات في أبوظبي مثل اللوفر أبوظبي، متحف زايد الوطني، وغوغنهايم أبوظبي. كما تشرف الهيئة على إدارة قطاع السياحة في الإمارة وتسويقه عالمياً، من خلال إقامة مجموعة واسعة من النشاطات التي تهدف إلى الترويج لمقومات الإمارة الثقافية ومنتجاتها السياحية وتأكيد مكانتها العالمية باعتبارها وجهة سياحية وثقافية مستدامة ومتميزة.

### 3.4. المنظومة المؤسسية على المستوى المحلي

تتولى كل من بلدية العين وبلدية أبوظبي إدارة المدينة، ولها قطاع مختص يسمى "قطاع تخطيط المدن والمساحة". قام هذا القطاع، في بلدية العين، بوضع ثلاثة مخططات هيكلية، كان الأول في عام 1975 والثاني في 1986 لأفق سنة 2000 والثالث في 2005. وقد تركزت سياسة القطاع على الحفاظ على الواحات وحمايتها ضد التدهور والتوسع العمرانيين للترويج لصورة العين على أنها مدينة الواحات والحفاظ على مكانتها الخاصة من حيث التراث.

### 5. خطة التهيئة الترابية والعمرانية للعين في أفق 2030

#### 1.5. "خطة إطار عمل الهيكل العمراني لمدينة العين 2030"

تهدف هذه الخطة التي تعرف أيضا باسم "خطة العين 2030"، والتي وضعها مجلس أبوظبي للتخطيط العمراني، إلى ضمان أن تظل مدينة العين "مدينة مستدامة على الصعيد البيئي والاجتماعي والاقتصادي"، وذلك من خلال اتباع "أساليب جديدة لتنمية وتفعيل الفرص الاقتصادية المتوفرة بدون التضحية بالتراث البيئي والثقافي للمدينة".

وتتضمن الخطة إعادة تطوير المنطقة المركزية للمدينة، وتحسين النقل والمواصلات وتطوير مساكن المواطنين. ويهدف ممر العبور لساحة المدخل، الموجه إلى استقطاب النمو العمراني في المناطق المحيطة في أفق سنة 2030 وما بعدها، إلى تحقيق أهداف من بينها:

- وصل مناطق المقام وعشارج والمويجعي بالمنطقة المركزية لكي تستوعب أغلبية سكان العين والحركة التجارية فيها.

- إيجاد محور شمال - جنوب ثان يتألف من الهيلي والجيمي والمعترض والصناعية ذي مساكن بكثافة عالية.

- وبالتالي إنشاء تقاطع طريق يلتقي عنده المحوران الرئيسيان.

- حماية الأراضي الزراعية والحفاظ على المناظر الطبيعية والثقافية،

- تحسين الحركة في الطريق السريعة على المستويين الإقليمي والعمراني،

- الربط بين العين وأبو ظبي ودبي عن طريق قطار فائق السرعة.

تؤكد خطة العين لسنة 2030 مفهوم مدينة الحدائق، وقد وُقِّعت في دمج الفضاءات المفتوحة من خلال شبكة متواصلة ومتماسكة من ممرات الراجلين في "هذه الحديقة الموجودة وسط الصحراء".

## 2.5. خطة استخدام الأراضي

طور قطاع التخطيط في بلدية العين خطة استخدام الأراضي التي تنظّم تخصيص قطع الأراضي وارتفاع المباني وحماية المناطق المحيطة.. إلخ، بحيث تمكّن من مراقبة التطوير المبرمج في خطة العين لسنة 2030 وخاصة ارتفاع المباني ذات الطابق الأرضي +2 في المنطقة الحامية للمواقع الثقافية المسجلة في التراث العالمي.

## الفاتحة العامة

حينما كانت الشعوب في المنطقة العربية مُنكبة على تصفية الاستعمار في أواسط القرن الماضي، كانت المدن القديمة التي ترمز إلى التراث تثير نقاشات حادة ومتضاربة على مستوى الأوساط المهنية في مجال الهندسة المعمارية والتخطيط الحضري، تم خلالها طرح العديد من التساؤلات حول مصير هذه المدن.

وقد مثلت هذه المدن أيضا إطارا لمواجهة سياسية دارت حول جدلية الماضي والإصلاح والتحديث من أجل بناء الدولة الحديثة وتعزيز أركانها.

لقد جرت تلك المناقشات المهنية والسياسية بينما كانت اليونسكو والمجلس الدولي للمعالم والمواقع ICOMOS يناديان بحماية "المجمّعات التاريخية أو التقليدية". وقد تزامن هذا النداء الموجه من قبل كل من المنظمة الدولية والمنظمة غير الحكومية مع تبلور الوعي الفكري والسياسي بما تنطوي عليه الثقافة الحضرية من قيم وأبعاد تراثية.

لقد تحدث مصطفى الأشرف، الشخصية الأدبية والسياسية الجزائرية، بشعور فياض عن الذاكرة الحضرية قائلا: "حينما يستحضر المرء ذاكرة مدينة الجزائر، هذا الغيتو، بل هذه المدينة الشامخة التي لا تُقهر والتي كانت مُهابة على الدوام، وحينما يستعيد في ذاكرته حياتها التقليدية، فإنه يشير في المقام الأول إلى رونق جمالي خاص، إلى سلوك معين، وإلى منحى في التفكير".

ففي سياق هذه الفترة الانتقالية، أي ما بعد الاستعمار، اكتسبت المدينة القديمة ( المدينة التاريخية) الاعتراف بمكانتها كرمز من رموز التراث العمراني الذي ينبغي صونه باسم الهوية الوطنية. وبعد مُضي عقود على إضفاء الصبغة المؤسسية على ممارسات الحفاظ على التراث، ماذا عن التملك الثقافي للقيم المعمارية والحضرية في المجتمعات المدنية في الوطن العربي؟ فهل تمكن المواطن في الشارع، الذي يواجه أوضاعا معيشية هشة في المدينة القديمة المهمّشة اجتماعيا واقتصاديا، من النظر إلى تراثه بعين أخرى؟ هل إن عامة الناس، بعد أن أصبحوا أكثر اطلاعا بفضل وسائل الإعلام والفعاليات الثقافية، يدركون أهمية التهيئة العمرانية؟ وأخيرا، ما هي حصيلة تقييم تدخلات السلطات العامة في مجال التراث؟

قد يكون من المفيد التذكير ، على سبيل المثال، بأن ورشات تونس والجزائر وفاس قد واجهت، من حيث التنظيم الفضائي والتخطيط الحضري، قضايا متشابهة يمكن تصنيفها، من الناحية المنهجية، على النحو الآتي:

- إحكام السيطرة العقارية،
- المساعدة الاجتماعية والقانونية للفئات المحرومة،
- تقديم الدعم الفني والمالي لإعادة تهيئة السكن لأغراض اجتماعية،
- الدعم الضريبي والمالي لإعادة تأهيل المساكن التي يملكها الخواص،
- إعادة تهيئة الطرقات والشبكات المختلفة والأماكن العامة،
- إحياء الأنشطة الحرفية والتجارية، وتشجيع الفنون التقليدية وتثمين التراث التاريخي لأغراض السياحة الثقافية،
- إعادة تأهيل وتجديد المرافق الثقافية والتعليمية والصحية،
- التجديد الحضري من خلال إعادة تأهيل الأشكال الفضائية،
- الحدّ من استخدام السيارات داخل المدن، وإنشاء مناطق خاصة بالمتجولين، ومرافق للنقل العام في مواقع مخصصة لها، وتوفير مواقف للسيارات يسهل الوصول إليها.

لقد أسهم في هذه الورشات خبراء من تخصصات متداخلة ومتعددة، إذ شارك فيها علماء الاجتماع والاقتصاديون والجغرافيون والمؤرخون إلى جانب المهندسين المعماريين ومخططي المدن ومصممي المناظر الطبيعية. وهكذا تمكنت هذه الفرق، التي تختلف في طبيعتها عن المصالح الفنية التابعة للجماعات المحلية والإدارات المركزية، من إيجاد مقاربة جديدة لطرح إشكالية المحافظة على التراث، وذلك من خلال توشي مسافة منهجية إزاء الرؤية الأحادية لهيئات السياحة أو الآثار التي تتمثل مهمتها الأساسية في جرد وتصنيف الممتلكات الثقافية، باعتبارها وثيقة أثرية وأنتروبولوجية وتاريخية تستحق العرض وربما التثمين. لقد بادرت تلك الورشات بإطلاق عملية استقصائية للوقوف على الحقائق الاجتماعية والفضائية باعتبار ذلك المرحلة الأكثر إثارة في معركة المحافظة على التراث، وأنه قبل عملية التخطيط لابد من معرفة مدى تدهور السكن والاختلال الوظيفي في المناطق الحضرية.

إن بلورة الدعم السياسي، وإعادة النظر في النظم القانونية واللوائح التنظيمية، وتوضيح المسؤوليات المؤسسية والصلاحيات الإدارية هي من ضمن الشروط المسبقة لأيّة طموحات في مجال الصون المتكامل للتراث والتجديد الحضري، إذ لا جدوى لوجود "رؤية" دون توفر الوسائل اللازمة لتحقيقها.

6. تؤكد المذكرة التصورية التي تعرّف بمساهمة اليونسكو في وضع برنامج عمراي لفترة ما بعد الـ 2015 بإصرار أن "المدن في القرن الواحد والعشرين تمثل رهانات كبرى للتنمية المستدامة"، وفي هذا

السياق الجديد "تصبح الثقافة محرّك التنمية الاقتصادية وحلقة الوصل للدمج الاجتماعي". وأخذاً في الحسبان هذا الرهان الخاص بالاستدامة وبالرول الديناميكي للثقافة، تركّز اهتمام الألكسو على موضوع "إعادة تأهيل المساكن القديمة والتجديد العمراني للمدن التاريخية". ونظراً إلى الانفجار الديمغرافي وعملية التمدن المتسارعة، تؤيد مذكرة اليونسكو الرأي القائل بأنّ كسب رهان التنمية مرتبط بكسب رهان المدينة: "في المدن يقع رفع تحدي التنمية الحضرية أو خسارته".

فما عسى الألكسو (إدارة الثقافة) أن تفعل أمام هذه الرهانات والتحديات التي من شأنها أن تؤدي إلى مأساة اجتماعية في حال فشل الدعم السياسي والحوكمة الحضرية؟.

للإجابة عن هذا السؤال، الذي أدرجته جامعة الدول العربية في برنامج عملها، تقترح الألكسو تدعيم إمكانياتها الاستشارية وقدرتها على تقديم المساعدة لإنجاز خطة العمل الضرورية لترسيخ الثقافة العمرانية في العالم العربي. وهو ما يمثّل موضوع التوصيات المتعلقة بإنشاء مرصد التراث المعماري والعمراني في البلدان العربية، الصادرة عن الندوة العلمية التي نظمتها الألكسو يومي 3 و4 أكتوبر 2016، والتي تضمنت:

1. دعوة الدّول العربية وشركاء منظمة الألكسو إلى التعاون من أجل تركيز عمل المرصد ودعمه.
2. جعل المرصد آليةً فنيّة تستأنس بها الدّول العربية في وضع استراتيجية مشتركة للصون والتنمية المستدامة لتراثها المعماري والعمراني.
3. إنشاء لجنة قيادة و تسيير لمشروع المرصد صُلب الألكسو.
4. دعوة الدّول العربية الأعضاء إلى توفير المعطيات المتوفرة لديها وتوحيد قواعد البيانات لجرد المعالم المدرجة للتسجيل / التصنيف / الترتيب.
5. دعوة الدّول العربية الأعضاء إلى تخصيص الاعتمادات المالية الكافية للمحافظة على تراثها المعماري والعمراني وتوظيفه في تحقيق التنمية المستدامة؛
6. تفعيل دور اللجان الوطنية والإقليمية للايكوموس لمساعدة ضباط الاتّصال المكلفين بالمرصد في الدول العربية وتبادل التجارب في المجال.
7. حثّ الدّول العربية على احترام الاتّفاقيات والمواثيق والمقتضيات الترتيبية عند تدخّلاتها الميدانية على التراث.
8. حثّ الدّول العربية على تطوير سياساتها التّراثية في مجالات التربية وتوعية الناشئة.

9. حتّ ضباط الاتّصال على تنويع مصادر المعلومات وعلى القيام بمهام الملاحظة وردّ الخبر واليقظة في حالات الخطر والنزاعات.
10. إقرار يوم عربي للتّراث وإسناد جوائز لأفضل المشاريع ذات الصلة بحماية وتنميّة التّراث في الدّول العربية.
11. جعل التّراث المعماري والعمراني مصدر إلهام لتصميم المدن الجديدة مع الحفاظ على بعدها الإنساني.
12. اختيار شعار المرصد بناء على مناظرة أفكار بين طلبة المؤسّسات الجامعية المختصة في المجال.
13. وقد عرضت هذه التوصيات على الدورة 20 لمجلس الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي التي عقدت بتونس يومي 14 و15 ديسمبر 2016، فوافق عليها المجلس وحتّ الدول التي لم تعين ضباط اتصال المرصد على القيام بذلك في أقرب الآجال.

